روح القرآن

تفسير سورة النساء

بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

قال محمد رسول الله ﷺ :

إنّ أفضلكم من تعلّم القرآن وعلّمه

سُورَةُ النِّسَاءِ

روح القرآن

تفسير سورة النساء

بقلم
عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس، بناية متكو، الطابق الثاني
هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ (٠١)
فاكس: ٧٠١٦٥٧ (٠١)
ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان
www.malayin.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تحذير وإنذار

كل من يقوم بتزوير هذا الكتاب ويشترك بطبعه أو تغليفه أو بيع النسخ المزورة يلاحق بأقصى العقوبة المنصوص عليها في القوانين ويتحمل كل ضرر ناجم عن ذلك.

إن الوكيل الحصري المعتمد لتوزيع وبيع هذا الكتاب في جميع أقطار العالم:

دار العلم للملايين

الطبعة الأولى
نيسان 2011

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بسورة النساء

للعلاّمة الشيخ حسين غزال

الحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله والصلاة والسلام على الذي أرسله الله رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

سورة النساء سورة مدنيّة أي نزلت بالمدينة المنوّرة، وسُمّيت بذلك لأن ما جاءَ فيها من أحكام تتعلق بالنساء أكثر مما جاء في غيرها من السُوَر كما أنها اهتمت بأمر النساء وكانت نصيرًا لهن في شتّى مرافق الحياة.

افتتحت هذه السُورة باستهلال بالغ التأثير، فقد نادى الله الناس جميعًا وأمرهم بتقواه، وحثّهم على امتثال أوامره وتجنّب معاصيه مذكّرًا إيّاهم بمبدأهم الأول وهو أنهم خُلقوا من آدم وحواء حيث تجمعهم صلة القرابة، وأنهم كالعائلة الواحدة، أبوهم واحد وأُمهم واحدة، ما يستدعي منهم التراحم ورعاية ذوي الأرحام.

وهذه السورة اعتنت باليتامى اعتناءً خاصًا، فأمرت بالمحافظة على أموالهم والقيام بحقوقهم، وحذّرت من أكل أموالهم بالباطل حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [الآية: ١٠].

وهذه السورة اختصت بذكر أحكام المواريث وهي على جانب كبير من العدل فجعلت للنساء نصيبًا من الإرث: بنتًا، وزوجة، وأُمًّا، وأختًا، بينما كانت قبل الإسلام محرومة من الإرث، قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [الآية: ٧] وقد خصّ الله النساء بالذكر تأكيدًا على حقهنّ بالإرث. وهذه السورة هي الوحيدة التي اختصت ببيان الفرائض في المواريث وَذَكَرت أصحابها وشروط استحقاقها حتى لا يقع الناس في الخطأ[1]، ولأهمية هذا العلم يقول النبي محمد ﷺ: «تعلّموا الفرائض وعلّموها الناسَ فإنها نصف العلم».

وأباحت هذه السورة تعدد الزوجات وحددته بأربع كحدّ أقصى بعد أن كان عند العرب قبل الإسلام ليس له حد، ودعت السورة الزوج إلى العدل بين زوجاته، وفي حال الخوف من عدم العدل، وعدم القدرة على الإنفاق عليهن عليه أن يقتصر على زوجة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿.. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ...﴾ [الآية: ٣].

كما دعت هذه السورة إلى إنصاف المرأة ونبذ الظلم الذي درج عليه العرب قبل الإسلام في حقها حيث إنّ الرجل إذا توفي يكون ابنه الأكبر هو أحق بامرأته ينكحها إذا شاء إذا لم يكن ابنها، أو يزوجها مَن شاء، أو يحبسها حتى تفتدي منه بالمهر الذي أخذته من زوجها، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ...﴾ [الآية: ١٩] ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٢٢].

(١) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتابنا (الميراث على المذاهب الأربعة).

وهذه السورة رفعت الظلم عن الزوجة والإضرار بها، فكان بعض الأزواج يضيقون على زوجاتهم حتى تفتدي الزوجة نفسها بالمال الذي عندها، أو بالمهر الذي كانت قد أخذته من زوجها لتحصل على الفراق منه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[1] لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الآية: ١٩].

كما فتحت هذه السورة باب التوبة على مصراعيه، وإن التوبة يقبلها الله في حال الصحة، ولا تكون مقبولة عند حضور الموت وظهور أماراته.

ومن أسمى ما ذكرته هذه السورة حث الأزواج على معاشرة زوجاتهم بالمعروف وهو ما تستحسنه العقول ويدعو إليه شَرْعُ الله، وإذا كان بعض الأزواج يشعرون بالكراهية نحو زوجاتهم لسبب ما، فقد نصحت الآية التالية الأزواج بأن لا تكون كراهيتهم لزوجاتهم سببًا لفراقهن أو إساءة عشرتهن فلربما يحصل من هذه الكراهية خير كثير، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [الآية: ١٩].

كما ذَكَرت هذه السورة المحرّمات مِنَ النساء اللاتي لا يجوز للرجل الزواج بهن من ذوي الأرحام كالأمّ التي أرضعته والأخت من الرضاعة، والجمع بين الأختين في الزواج بهن.

وهذه السورة بيّنت أن للرجال القوامة على النساء وذكرت أنواع التأديب التي يباح للزوج أن يأتي بها في حال ترفُّع زوجته عليه، أو عند سوء سلوكها معه وإهمال بيتها وأولادها، وهذه الأنواع من التأديب فيها الكثير من الرفق حيث تعالج نفسيّة المرأة وتمضي بها إلى إصلاح شأنها. وفي حال استفحال

(١) لا تعضلوهن: لا تضيقوا عليهن.

الخلاف بين الزوجين والوصول إلى حافة الطلاق دعت السورة إلى التحكيم بينهما بإرسال حكمٍ من أهله وحكم من أهلها للإصلاح بينهما لأنهما أدرى بأحوال الزوجين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [الآية: ٣٥].

والجدير بالذكر أن الآية أمرت ببعث الحكمين عند خوف حصول الخلاف قبل أن يحصل.

كما اعتنت هذه السورة بالضمان الاجتماعي وذلك بالإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجار القريب والبعيد والزوجة والصاحب الذي برفقتك والمسافر المنقطع عن بلده والمحتاج إلى المعونة.

وبيّنت هذه السورة أساس الحكم الإسلامي الذي يقوم على أمرين عظيمين وهما: أداء الأمانات إلى أهلها والعدل بين الناس، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ...﴾ [الآية: ٥٨].

كما دعت هذه السورة المؤمنين إلى المبالغة في تطبيق العدل ولو كان ذلك يُصادم رغباتهم وفوائدهم الشخصية ومصالح أقرب الناس إليهم نسبًا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ...﴾ [الآية: ١٣٥].

كما قررت هذه السورة استقلال المرأة وأنّ مسؤوليتها عن أعمالها مستقلة عن الرجل وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [الآية: ١٢٤] وهذا تكريم للمرأة لم تعرفه الشعوب قديمًا حيث كانت منبوذة من المجتمع.

وهذه السورة تعرّضت لقضية جرت على عهد النبي محمد ﷺ حيث اتهم بالسرقة يهودي وهو منها بريء والسارق الحقيقي هو مسلم، فحاول أهل المسلم وعشيرته تبرئته بأن صوّروا للنبي ﷺ الوضع على غير حقيقته فمال النبي ﷺ إلى تصديقهم، فأطلع الله النبي محمدًا على حقيقة الأمر، وندّد بالذين دافعوا عن السارق، ودعا المؤمنين إلى الالتزام بالحق وعدم التحيز إلى أقاربهم وعشيرتهم ولو كان الخصم على غير دينهم.

وهذه السورة تنهى عن الطعن بالغير علنًا على مسمع من الجميع واتهامه بالسيئ من الأفعال كما يحصل عند البعض الآن بواسطة أجهزة الإعلام لأن ذلك يؤدي إلى سوء العلاقة بين الناس، ولا يستقيم حال أُمة ينتشر فيها مقالة السوء والطعن بأعراض الناس والمسّ بكرامتهم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ...﴾ [الآية: ١٤٨].

وتحدثت السورة عن المنافقين الذي يتظاهرون بالإسلام ويبطنون الكفر ويثيرون الشبه والأضاليل على الإسلام، ويستغلون كل حادثة لمصالحهم الخاصة ويتخذون الكافرين أولياء لهم من دون المؤمنين.

كما تعرضت السورة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ونددت باليهود ومخالفتهم المستمرة لنبيهم موسى ﵇ وجرائمهم بقتل الأنبياء، وقولهم البهتان على السيدة مريم، وطالبت النصارى أن لا يغلوا في دينهم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ...﴾ [الآية: ١٧١].

هذا بعض ما تحتويه هذه السورة من أحكام ووصايا، وهناك جوانب أخرى ذكرتها السورة تبيّن عظمة القرآن وسموّ مبادئه لم نذكرها خوفًا

من التطويل بل ندعها للقارئ ليستمتع بها ويرى ما فيها من خير للناس جميعًا.

وفي خاتمة المطاف أدعوك أخي القارئ أن تجلس جلسة هادئة وتقرأ معي ما ورد في هذه السورة بأسلوب مؤلّفنا الباحث الإسلامي الشيخ عفيف طباره لتجد فيه سلاسة العبارة وسهولة الأسلوب، وتتراءى لك المعاني المعقدة البعيدة في مراميها كيف أصبحت بفضل المؤلف البارع دانية الظلال قريبة المنال. وأهمس في أذن قارئنا العزيز ما صارحني به مؤلفنا القدير أن يجعل الله عمله هذا خالصًا لوجهه الكريم وأن يمدّ الله في عمره لإتمام تفسير مجمل القرآن الذي فيه العبرة لأولي الألباب، وأن يمنّ الله عليه وعلينا بحسن الختام، وأن يحشرنا في زمرة خاتم الأنبياء رسول الله محمد ﷺ، ويدخلنا الجنة بسلام مع صحابته الكرام وحَسُن أولئك رفيقًا.

سُورَةُ النِّسَاء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ
مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي
تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ وَءَاتُواْ
ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ
إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾

شرح المفردات

بَثَّ: نشر وفرّق.

تساءلون به: يسأل بعضكم بعضًا بالله، فتقولوا: أسألك بالله.

الأرحام: الأقارب الذين تربطهم بالإنسان صلة النسب.

رقيبًا: مراقبًا أعمالكم.

الخبيث: الحرام أو الرديء.

بالطيب: بالحلال أو الجيّد.

حُوبًا: إثمًا وذنبًا.

وحدة الجنس البشري تقتضي تواصلهم وتراحمهم

يستهلّ الله هذه السورة بهذه الآية البليغة التي مطلعها الدعوة إلى تقوى الله، مبيّنة وحدة الجنس البشري مع الوصية بالإحسان إلى الأقارب، قال الله تعالى:

﴿يا أَيُّها ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ وجّه الله الخطاب للناس جميعًا لأن الإسلام دين عالمي وليس خاصًّا بمجتمع إقليمي خاص، لقد أمرهم الله بأن يتقوه لأنه ربهم أي مالكهم وسيّدهم ومصلح أمرهم، واتقاء الله هو أن يتجنب الإنسان عذابه وذلك بالعمل بما أمر به والامتناع عما نهى عنه ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ فالله سبحانه خلق الجنس البشري من نفس واحدة هي آدم، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ: «**الناسُ بنو آدمَ وآدمُ من تراب**»[١].

﴿وَخَلَقَ مِنها زَوْجَها﴾ أي وخلق الله سبحانه من هذه النفس الواحدة زوجها وهي حواء، والزوج في كلام العرب يطلق على الزوج والزوجة، والمراد هنا الزوجة امرأة الرجل. وقد روي أنه لمّا خلق الله آدم عليه السلام ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه، وجاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إن المرأة خُلقت من ضلع فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها»[٢] وهذا يُشعر بأن طبيعة المرأة من طبيعة الرجل وأنها ليست من جنس دونه رتبة، وأنها ليست رمز غواية وعنوان شرٍّ وأداة من أدوات الشيطان كما كانت تعتقد بعض الشعوب القديمة، فالمرأة مساوية للرجل في نظر القرآن لأنها خلقت منه ﴿وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيرًا ونِساءً﴾ البَثُّ: النَّشْرُ والتفريق، أي نَشَرَ الله وفرّق من آدم وحواء بالتناسل رجالًا كثيرًا ونساء كثيرات حيث انتشروا شعوبًا وأُممًا في الأرض. والتعبير بالبثّ يُفيد أن البشر مهما تباعدت ديارهم واختلفت لغاتهم وألوانهم وأشكالهم عليهم أن يدركوا

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.
(٢) أخرجه الإمام مسلم.

أنهم ينتمون إلى أصلٍ واحدٍ وهذا يقتضي تراحمهم وتعاطفهم وعدم الاقتتال بينهم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ كرّر الله الأمر بتقواه لغرس مهابته سبحانه في النفس وعدم عصيانه ﴿الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ﴾ تساءلون: أصلها تتساءلون فحُذفت إحدى التّاءين تخفيفًا، أي اتقوا الله الذي تُعاهِدون وتتحالفون به فيقول أحدكم أسألكَ باللهِ، وأُنشدك بالله أن تفعل كذا ﴿والأَرْحامَ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة ـ الله ـ أي واتقوا الله واتقوا قطع الأرحام، أو بمعنى: واتقوا الله في الأرحام فَصِلُوها. والأرحام: تُطلق على الأقارب الذين تربطهم بالإنسان صلة النسب سواء كانوا يرثونه أم لا. وصلة الرحم تكون ببذل المال للمحتاجين منهم، وبالعون لهم عند الحاجة، وبدفع الضرر عنهم إذا وقع بهم ضرٌّ، وإيصال ما أمكن من الخير لهم عند العوز.

وقد حثّ النبي ﷺ على صلة الأرحام بقوله في الحديث القدسي: «قال الله ﷻ: أنا الرحمنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ وشَقَقْتُ لها اسمًا من اسمي فمَن وَصَلَها وَصَلْتُهُ ومَن قَطَعَهَا قَطَعْتُه»[١].

ويقول النبي ﷺ أيضًا: «لا يدخلُ الجنةَ قاطعُ رَحِمٍ»[٢].

﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي أنه سبحانه عليكم حفيظ مُحصٍ عليكم أعمالكم، وهذا وعيد لكل من يخالف أمر الله ويعصيه ويقطع صلة رحمه.

وقد ذكر الله ﷻ رقابته على عباده مؤكدة بأوثق التوكيد، فأكدها بـ(إنّ) وبالتعبير بـ(كان) الدّالّة على الاستمرار والدوام، وبذكر الفوقية بلفظ (عليكم) التي تدلّ على الاطّلاع الدائم مع السيطرة، وأخيرًا بلفظ (رقيبًا) وهي صيغة مبالغة من رَقَبَ يرقب، أي أنه سبحانه شديد المراقبة لجميع أقوالكم وأعمالكم.

(١) أخرجه الترمذي والإمام أحمد في مسنده.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

ثم ينتقل القرآن إلى التوصية باليتامى بقوله سبحانه:

﴿وَآتُوا اليَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ واليتيم هو الصغير الذي مات أبوه وهو صغير لم يبلغ سنّ الرشد بعد، والخطاب هنا موجّه إلى كل من له ولاية أو وصاية على يتيم فردًا كان أو جماعة، والمراد بإعطائهم أموالهم أن يحافظوا عليها ولا ينفقوها ولا يتعرضوا لها بسوء حتى يسلموها لليتامى عند سنّ البلوغ والرشد كاملة.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي ولا تستبدلوا الرديء من أموالكم بالجيّد من أموال اليتامى، فقد كان بعض الأوصياء من العرب يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم ويضع بدلًا منها شاة هزيلة ويفعلون في غير ذلك من المقتنيات ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ هنا نَهْيٌ للأوصياء أن يَضمُّوا أموال اليتامى إلى أموالهم فيأكلوها جميعًا ويسوّوا بينهما في الانتفاع، كما أنّ ضمّ مال اليتيم إلى مال الوصيّ قد يُؤدِّي إلى ضياعه، إذ يُخشى أن يموت الوصيّ ولا يُعرف مال اليتيم من ماله فيؤدّي ذلك إلى اختلاطهما وعدم التمييز بينهما، وبالتالي إلى ضياع مال اليتيم ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ والحُوبُ: معناه الإثم، فأكل مال اليتيم، وتبديل الخبيث بالطيّب هو إثم عظيم لأنه اعتداء على ضعيف وخيانة للأمانة التي وكّلهم الله بها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ
النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ
فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾

شرح المفردات

ألّا: أصلها (أن) و(لا) النافية فأُدغمت أن في اللام للتخفيف.

تُقْسِطوا: تعدلوا.

فانكحوا: أي تزوجوا بعقد الزواج.

ما طاب: ما مالت إليه نفوسكم.

ملكت أيمانكم: هن الإماء.

ألّا تَعُولوا: أن لا تجوروا وتظلموا.

وآتوا: وأعطوا.

صَدُقاتِهِنَّ: جمع صَدُقَة بضم الدال وهي المهر.

نِحْلَةً: عطيّة على سبيل التبرع عن طيب نفس.

هنيئًا مريئًا: طيبًا محمود العاقبة لا ضرر فيه عليكم في الآخرة.

أحكام تعدد الزوجات

وبعد أن حذّر القرآن من أكل مال اليتامى ظُلمًا واعتبره إثمًا عظيمًا، انتقل إلى الكلام عن تعدد الزوجات وما يجب في حقهن من العَدْل، قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي اليَتَامىٰ﴾ تُقْسِطوا: تعدلوا، والخطاب هنا موجّهٌ إلى الأوصياء الذين يتولّون أُمور اليتامى ويرغبون في الزواج منهن، أي إذا خفتم أيها الأولياء من أن لا تعدلوا إذا تزوجتم من اليتامى كأن لا تعطوهنّ المهر اللائق بهنّ أو لا تعاشروهنّ المعاشرة الكريمة ﴿فَانْكِحُوا ما طَابَ لَكُم مِنَ النِّساءِ مَثْنَىٰ وثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ فتزوجوا غيرهن من النساء ممن هنّ حلال لكم اثنتين أو ثلاثًا أو أَربعًا ممّن تميل إليهن نفوسكم وتستطيبه.

وقد روي في تفسير الآية عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة ﵂ عن

هذه الآية فقالت: «يا ابن أختي هي اليتيمة في حِجْرِ[1] وليّها تُشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليّها أن يتزوجها من غير أن يُقْسِطَ في صداقها[2] فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلّا أن يُقْسِطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سُنّتهن من الصداق»[3] والسُّنَّة: الطريقة والسيرة.

وهناك تفسير آخر ذكره المفسرون وهو: وإن خفتم أن لا تُقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك خافوا أن لا تقسطوا في حقوق النساء التي أوجبها الله عليكم فلا تتزوجوا منهن إلاّ ما أمنتم معه الجوْر[4] مثنىٰ وثلاث ورباع...

فالإسلام أباح للمسلم أن يجمع بين أربع زوجات ولا يزيد على ذلك، فقد روي أن النبي ﷺ قال لِغَيْلان بن أُمَيَّة الثقفي حين أسلم وتحته عشر نسوة: «اختر منهن أربعًا، وفارق سائرهن»[5].

وقال الإمام مالك والشافعي في الذي يتزوج خامسة وعنده أربع: عليه الحدُّ[6] إن كان عالمًا.

وقد قيّد الإسلام إباحة تعدد الزوجات بالقدرة على العدل بينهن، قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ والمراد بالخَوْفِ: العلم وتوقُّع مكروه أي إن خِفتم أنكم لن تعدلوا بين الزوجات في حال تعددكم لهن فاقتصروا على زوجة واحدة. والخوف من عدم العَدْل هو حالة وجدانية يشعر بها المرء

(١) حِجْر: كنف وحماية.
(٢) صداقها: مهرها.
(٣) هذا ما جاء في الصحيحين.
(٤) الجوْر: الظلم.
(٥) أخرجه أبو داود.
(٦) الحدّ: عقوبة مقدَّرة على الجاني.

إذا تدبَّر أمره، وعرف مدى قدرته وطاقته وظروف حياته، فعندئذٍ يستطيع الحكم على نفسه وتقدير أمره تقديرًا صحيحًا فيمتنع عن تعدد الزوجات إن علم في نفسه قصورًا أو جورًا في حقهنَّ، أو عدم قدرة على الإنفاق عليهن.

والعدل المطلوب هو العدل الظاهر بالتسوية بينهن في المطعم والمَلْبَس والمسكن والمبيت، فلا يبيت عند واحدة أكثر من غيرها إلّا بإذنها أمّا العَدْلُ في المحبة القلبية فهو غير ممكن وغير مطلوب. وكان النبيُّ ﷺ يُسَوِّي بين أزواجه فيما عدا المحبة القلبية، وكان يقول عند قسْمه بين أزواجه: «اللهم هذا قِسْمِي[1] فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[2].

وقد نفى الله إمكان العَدْل بقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ[3]...﴾ [النساء: ١٢٩]، قيل في تفسير ذلك: إنَّ العَدْل المطلوب هو العدل الظاهر والمساواة في المعاملة، والعدل المنفي هو المساواة في المحبة القلبية.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ تُطلق على الرَّقيق من عَبْدٍ أو أَمَةٍ، أي إن خفتم أن لا تعدلوا في الزواج من واحدة من النِّساء الحرائر فأنكحوا ما تملكون من الإماء[4] ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي ذٰلك أقرب ألّا تَجُوروا، وفُسِّرت

(١) القِسْمُ: النصيب والحظّ.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) فتذروها كالمُعَلَّقَةِ: أي فتتركوها، لا هي مطلقة ولا هي ذات زوج.
(٤) كان الرق شائعًا في زمن نشوء الإسلام، فدعا الإسلام إلى تحرير الأرقاء من الأسر، وجعل ذلك من أهم القربات التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه، كما جعل الإسلام للأرقّاء حصة من مال الزكاة تُصرف على تحريرهم. ويفعل المسلم بعض المحظورات فيكون تكفيره عن ذلك تحرير رقيق فيما يملك. وقد أباح الإسلام للرجل وطء ما يملك من الإماء وفي ذلك صيانة لهن من البغاء وصيانة لأسيادهن من الزنا، وإذا ولدت الأمة حررها وليدها من الرق وأصبحت حرة وتُسَمَّى أمّ ولَد.

بمعنى: ذلك أقرب ألاّ تكثر عيالكم، وهذا ما فسَّره الشافعي، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وإعالتهم قد تفضي به إلى الخروج عن حدود الوَرَعِ في كسب الحلال من الرزق، وبالأخص إنْ كان من أصحاب الدخل المحدود.

ضرورات لتعدد الزوجات

من المطاعن التي وُجِّهت نحو الإسلام السماح بتعدد الزوجات، والحق أنَّ تعدد الزوجات كان موجودًا عند أغلب الشرائع والأديان. والعرب قبل الإسلام كانوا يكثرون من تعدد الزوجات فجاء الإسلام وجعل للتعدّد حدًّا لا يتعداه.

والعالم الغربي اليوم الذي لا يسمح بتعدد الزوجات، يمارس أفراده اتخاذ الخليلات بجانب زوجاتهم، وهؤلاء الخليلات لا يخرجن عن طبقة المتاجرات بأجسادهنَّ، المحرومات من جميع الحقوق الزوجية من النَّفَقَة والإرْث. فأيّ الأمرين أجْدى للمرأة؟ أن تُصبح زوجة ثانية لرجل تستطيع أن تُطالبه عن طريق المحاكم بِنَفَقَتِها ونفقة أولادها منه، ويكون لها الحق في الإرْث منه إذا مات، أو أن تُصبح في عداد النسوة الساقطات ليس لهن أي حق إذا أراد الرجل الانفصال عنهن؟

وهناك مبررات لتعدد الزوجات ترجع إلى خصائص الطبيعة الإنسانية أو إلى ضرورات المعيشة الاجتماعية، فالخصائص الطبيعية الإنسانية تدلُّ على ذلك، فقد ظهر من إحصاءات الأُمم أن عدد النساء يزيد على عدد الرجال في أوقات السِّلْم فضلًا عن أوقات الحرب التي تأكل شباب الأُمَّة. فطبيعة المرأة بحاجة إلى استيفاء حاجاتها الجنسية وتعدُّد الزوجات أهمّ علاجٍ لذلك، وإذا لم يُبَحْ تعدد الزوجات فستنتشر شرور الدعارة أكثر فأكثر، وهذا ما نشاهده في أكثر بقاع العالم.

وهناك مبررات تفرضها ضرورات المعيشة الاجتماعية وهي أن المرأة قد تُصاب بِمَرضٍ عُضال أو بِعقم، أو تذهب عنها جميع المغريات الجنسية، أو

يرى الرجل أن المرأة الواحدة لا تكفي لإحصانه لأن طبيعته تدفعه إلى كثرة معاطاة الجنس وامرأته من النساء اللاتي تغلب عليهن البُرودة الجنسية، أو لأنه يضطر إلى الامتناع عنها قَسْرًا أيام الحيض والولادة، أو تكون امرأته عاقرًا.

يقول الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس السابق رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الزوج المسكين ماذا نفعل به؟ إننا حين نحرمه من حق التزوج بامرأة ثانية سنضعه أمام ثلاثة حلول كل حلّ منها أقْبح من الآخر، فإما أن يَرْضىٰ بهذه التعاسة التي نزلت به من جراء حرمانه من اللذة والهناء ونعمة الأولاد، وهذا ضد الحق والخير وضد الفطرة، وإمّا أن يسعى إلى إشباع لذّاته الجنسية عن طريق الزنا وهذا ضد الحق وضد الخير الخاص والعام، وإمّا أن يتجرد من الرحمة وينسى المودة والوفاء فيطلّق تلك الزوجة العاقر أو المريضة المسكينة التي لا ذنب لها، وقد تكون بلا معيل ليستطيع أن يتزوج بأُخرى سواها، فأيُّ حَلٍّ من هذه الحلول يختاره المفكر المنصف؟ أَلَيْسَ من الخير أن نلجأ إلى حَلٍّ رابع ونسمح لهذا الزوج أن يقف عند حقه في الحياة وعند غريزته الطبيعية وعند واجب الود والوفاء والرحمة فيُبقي تلك الزوجة الأولى معززة مُكَرَّمة في بيت الزوجية ويتزوج بأخرى زواجًا شريفًا مثمرًا لكل خيراته موفرًا لكل لذاته...؟».

المهر من حقوق الزوجة

وبعد أن بيَّن اللهُ في الآية السابقة ما يجب على الزوج من العَدْل بين الزوجتين أو الزوجات بيَّن الله في الآية التالية ما يجب على الزوج لزوجته من حقوق، قال الله تعالى:

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ والصَدُقات: جمع صَدُقة بضم الدال وهي ما يعطيه الزوج لزوجته من المهر والمسمى الصداق. والنِّحْلَة معناها: عطاء بطيب نفس، والمهر واجب في كل زواج.

والخطاب في الآية للأزواج وأولياء النساء، وقد كان العرب لا يحترمون حق ملكية الزوجات لمهورهنّ، فوليُّها إذا قبض مهرها نيابةً عنها لا يُعطيها إياه فأمر الله سبحانه أولياء النساء بدفع مهورهنّ لهنّ، كما طالب الزوج بإعطاء الزوجة مهرها، وأن يكون هذا العطاء بطيب نفس، ولهذا صار المهر رُكْنًا من أركان الزواج في الإسلام كما هو في مذهب مالك ﴿**فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا**﴾ أي إنْ طابت نفس الزوجة بإعطاء زوجها شيئًا من هذا المهر فلا مانع له من أخذه والانتفاع منه بشرط أن يكون ذلك من غير إكراه ولا خديعة ولا لجوء إلى سوء العشرة وأن تتوافر للزوجة الحرية الكاملة. وإذا طلب منها زوجها شيئًا من المهر فحملها الخجل والخوف منه على إعطائه ما طلب فلا يحلّ له أخذه، والنص القرآني يشير إلى أن مسامحة الزوجة ينبغي أن تكون ببعض المهر وليس بكله، ولذا قال الله تعالى عن المهر: ﴿**مِنْهُ**﴾ ومِنْ للتَّبعيض أي عن بعضه ﴿**فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا**﴾ والمراد بالأكل هنا هو أخذ المهر، والهنيء هو الطعام السائغ، والمريء ما يحمد عاقبته، أي يُباح للأزواج أخذ بعض المهر أخذًا لا ضرر ولا تبعة عليهم فيه وهو حلال لهم خالص من الشوائب.

وإن تشريع إعطاء مهر للزوجة هو أول اعتراف لها بحق الملكية لمالها تتصرف فيه كما تشاء بما هي مقبلة عليه من تأسيس أُسرة زوجية، وهذا المهر يُدخل السعادة إلى قلبها من حيث تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها من الزوج، وقد جعل الله المهر على الزوج تحقيقًا لهذه الغاية التي هي تكريم للمرأة وإعزاز لها، وذلك ما لا يوجد في بعض المجتمعات في العالم التي تفرض على الزوجة أن تدفع مالًا لبناء حياتها الزوجية بما يسمى (الدوطة) فهذا الوضع بأن يُفْرَضَ على المرأة مال لتأسيس الأُسرة دون الرجل وهي أضعف منه على المكافحة في الحياة هو قَلْبٌ للعدالة كما أنه مُنافٍ للوضع الطبيعي للمرأة.

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

شرح المفردات

السُّفهاء: جمع سفيه، وهو الخفيف العقل، الجاهل الذي لا يُحسن التصرف في ماله.

قِيامًا: ما تقوم به أُموركم وتصلح به شؤونكم المعيشية.

قَوْلًا معروفًا: قولًا تطيب به نفوسهم وتستبشر.

وأبْتلوا اليتامى: الابتلاء: الاختبار، أي اختبروهم في عقولهم وإدراكهم وحفظ أموالهم.

بلغوا النكاح: وصلوا إلى سنّ البُلوغ.

آنَسْتُم: أبْصرتم وتبيّنتم.

رُشْدًا: سدادًا وحُسن تصرف في المال.

بِدارًا أن يكبروا: ولا تُسارعوا في إنفاق أموال اليتامى حَذَرًا أن يكبروا فيلزمكم تسليم المال إليهم.

فَلْيَسْتَعْفِفْ: أي أن يعفَّ عن مال اليتيم ويمتنع عن أكله.

بالمعروف: ما يُعرف بالعَقل والشرع حُسنه.

حسيبًا: مُحاسبًا للمحسنين والمسيئين.

الحَجْرُ(١) على أموال السفهاء وحفظ مال اليتيم

ثـم ينتقل القرآن إلى دعوة المؤمنين إلـى المحافظة على الأموال العامة والحجر على مال كل سفيه قال الله تعالى:

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ والسُّفهاء: هُم الذين لا يُحسنون تدبير الأموال إمّا لنقص عقولهم، وإما لسوء تدبيرهم.

والمخاطبون بهذه الآية هم أولياء اليتامى لأن سياق الآيات يدلُّ على ذلك، فهنا نهي لأولياء اليتامى عن إيتاء السُّفهاء من اليتامى أموالهم بعد بلوغهم سن الرشد ـ وهم في حالة السَّفَهِ ـ خشية إساءتهم التصرف في أموالهم، كما أن الخطاب في الآية لمجموع الأُمَّة، فهو نَهْيٌ لها عن إيتاء السفيه ماله ليتصرف فيه كما يشاء، ولهذا ذهب جمهور الفقهاء إلى لزوم الحَجْر على كل من كان سفيهًا أو طرأ عليه السَّفَهُ، ويُنفَق على السفيه المحجور عليه من ماله وكذا يُنفَق على من تلزمه نفقته.

والغاية من الحجر على السفهاء هي المحافظة على الأموال العامة وهو ما أشارت إليه الآية: **﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾**.

والملفت للنظر أن الله سبحانه لم يقل: «ولا تؤتوا السفهاء أموالهم» بل قال: **﴿أَمْوَالَكُمُ﴾** ليلفت أنظار المسلمين إلى أنّ مال السَّفيه هو في الوقت نفسه مال الأُمّة فيجب المحافظة عليه وعدم إعطائه للسفيه لأنه إذا بَدّده أصبح فقيرًا وبالتالي أصبح عالة على المجتمع، فالتضامن الاجتماعي

(١) الحَجْرُ: المنع من التصرُّف.

يقضي بأن نعتبر مال السفيه مالَ مجموع الأُمة فيجب المحافظة عليه، فليس لأحدٍ أن يقول: المالُ الذي في حوزتي هو مالي وحدي لا ينتفع به سواي فالمال مال الجميع والمال مال الله كما جاء في القرآن **﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾** [النور: ٣٣]، فالمالُ يَنتفع به الجميع من الطريق الذي شرعه الله لعباده.

ثم بيّن الله الغاية من المحافظة على الأموال العامة بقوله: **﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾** أي أن الأموال جعلها الله لتقوم بها معايشكم وتُبنى عليها مصالحكم فهي قوام الحياة الاقتصادية وعمادها. وهذا المبدأ الاقتصادي الذي جاء به القرآن وجرى تطبيقه في الدولة الإسلامية في كثير من العهود يفوق في عدالته كل النظريات الاقتصادية التي طالعنا به علماء الاقتصاد في العالم.

وبعد أن نهى الله عن إيتاء المال للسفهاء أمر الأوْصياء عليهم بقوله: **﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾** أي اجعلوا أموال السفهاء مصدرًا للإنفاق عليهم لطعامهم وكسوتهم، والملاحظ أن الله سبحانه قال: **﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾** ولم يقل: «وارزقوهم منها» للإشارة إلى أنَّ الرزق لا يُقتطَع من أموال السفهاء بل على الأوصياء أن يتَّجروا فيها ويستثمروها ليربحوا فيها وعندها تكون النفقة عليهم من الأرباح لا من رأس المال وبهذا لا يأكلها الإنفاق **﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾** والقول المعروف هو كل ما سكنت إليه النفس وأحَبّته لِحُسْنه عقلًا وشرعًا، كأن يقول الأوصياء لهم قولًا غير منكر وغير مضعِف لشخصيتهم ولا مُذلٍّ لهم بل يَنصحونهم ويرغّبونهم في ترك التبذير والإسراف الذي يؤدّي إلى الفقر، أو يقولون لهم: المالُ مالُكم وما نحن إلا خَزَنَةٌ عليه نحفظه لكم من الضياع، وعندما تعرفون قيمة المال ونشعر أنكم تحافظون عليه نُسلِّمه لكم.

فالقول الجميل للسفهاء له أثره الطيب في نفوسهم، ويفعل فعله الحسن بترشيدهم وإعادتهم إلى جادّة الصواب.

ثم يخاطب الله الأوصياء على اليتامى بقوله:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي اختبروا اليتامى قبل بلوغهم سن الرُّشْد من حيث قدرتهم على التصرف بأموالهم بدون إسراف أو تبذير، وذلك بأن تدفعوا إليهم شيئًا من مالهم يتيح لهم التصرف فيه، وبأن يظهروا مهارة في حفظ أموالهم وإدارتها وتنميتها ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ حتى إذا وصلوا إلى سِنِّ الزواج ويُعرف ذلك بالبلوغ عند الذكور ويكون بالاحتلام وهو إنزال المنيّ الدافق، وعند الإناث بالحيض[1]، كما يُعرف البلوغ ببلوغ الفتى أو الفتاة سِنًّا معيّنة فيرى الشافعية والحنابلة وأبو يوسف ومحمد من الحنفية أن البلوغ بالسن يكون بتمام خمس عشرة سنة قمرية للذكور والإناث، ويرى المالكية أن البلوغ يكون ببلوغهما ثماني عشرة سنة، ويرى أبو حنيفة أن البلوغ بالسنّ للغلام هو بلوغه ثماني عشرة سنة والفتاة سبع عشرة سنة.

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ فإن أبصرتم ورأيتم فيهم صلاحًا في العقل وحُسن تصرف في المال وعدم التبذير به ووضعه في مواضعه ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي بعد البلوغ وإيناس الرشد منهم. وجاءت صيغة الرشد بصيغة النَّكِرة ﴿رُشْدًا﴾ للإشارة إلى أنه لا يُطلب من الصغير الرشدُ الكامل بمجرد البلوغ بل يُكتفى منه بنوع من استئناس الرشد وتوقع الخير منه، لأن الرشد الكامل لا يكون إلّا بمزيد من الممارسة.

وظاهر مفهوم الآية أن أموال اليتامى لا تُدفع إليهم إلّا إذا بلغوا راشدين، فإذا بلغ اليتيم غير راشد فلا يُسلَّم له ماله عند جمهور الفقهاء ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ بِدارًا: المُبادرة هي الإسراع إلى الشيء، فهنا ينهى الله الأوصياء على اليتامى عن أكل أموال اليتامى في مُدَّةِ الوصاية عليهم مسرِفين في الإنفاق من أموالهم ومسرعين ومتعجّلين أكلَها مخافةَ أن

(١) كما أن الحمل علامة على بلوغ الأنثى.

يكبر اليتامى، فتؤخذ أموال اليتامى من الأوصياء وتؤول إلى أصحابها وتُنزَعُ الوصاية عنهم ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ فالله يُرشد الأوصياء الأغنياء الذين يقومون برعاية اليتيم أن يتحرَّوا العفاف فلا يأخذوا شيئًا من مال اليتيم الذي يدبرونه ويشغلونه ولتكن رعايتهم له من غير أجرٍ احتسابًا لرضى الله، وكلمة ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أبلغ من العفاف لأنه تحرّي العفاف وبلوغ أقصى غاياته كما ذهب إلى ذلك الزمخشري في تفسيره ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وإذا كان الوصيّ فقيرًا فقد أذن الله له أن يأخذ من مال اليتيم أجرًا على وصايته له ورعاية أمواله، ولكن بالمعروف أي بالقدر الذي تقتضيه حاجته الضرورية وبدل أتعابه، بما لا ينكره الشرع وأصحاب العقول السليمة.

ومن العلماء من يرى أنّ للوصيّ أن يأخذ من مال اليتيم ما يحتاج إليه قرضًا، ثم إذا أَيْسَرَ قضاه، وإن مات ولم يقدر على قضائه بأن كان معسرًا فلا شيء عليه.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي فإذا دفعتم ـ أيها الأوصياء ـ لليتامى أموالهم بعد بلوغهم سن الرشد، فأحضروا شهودًا يشهدون بأن اليتامى قد تسلّموا أموالهم وفي ذلك إبراء للذمة وهو أنفى للريبة. والإشهاد لا يتم بمجرد أن الوصيّ يسلِّم اليتيم مبلغًا من المال أو بعض الممتلكات، ومن أين للشهود أن يعلموا بأن هذا المال هو كل ماله وأن هذه الممتلكات هي كل ما يملك!

وإنما يتم ذلك بأن يقدم الوصيّ حسابًا عن المدخول لممتلكات اليتيم والمبالغ التي أنفقها عليه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي وكفى بالله مُحاسبًا وشاهدًا ورقيبًا على الأوصياء، وكأن المعنى: حاسبوا أنفسكم ـ أيها الأوصياء ـ فقدِّموا الحساب عن مال اليتيم بصدقٍ وأمانةٍ واحذروا من أكل مال اليتيم ظُلمًا، فإنكم إن أفلَتُّم من حساب الدنيا فلن تُفلتوا من عقاب الله في الآخرة.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨)
وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟
عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ
نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠)﴾

شرح المفردات

نَصِيبًا: النصيب هو الحصة من الشيء والقسم منه.

مفروضًا: بيّنها الله وقدّرها وألزم بها.

القِسْمَة: التَّركة.

فارْزقوهم منه: أعطوهم شيئًا من المال من هذه التركة.

مِنْ خَلْفِهِم: من بعد موتهم.

سَديدًا: صوابًا.

سَيَصْلَوْنَ سعيرًا: سيقاسون حرّ نار جهنم الموقدة.

تخصيص الأقارب واليتامى والمساكين بقسم من الميراث

ولمّا ذكر الله تعالى أمر اليتامى وما يجب على الأوصياء نحوهم من الرعاية شرع بذكر المواريث التي يستحقها اليتامى وغيرهم من أقاربهم الأقرب فالأقرب، ولا ريب أن من أهم التشريعات التي تظهر فيها عظمة الإسلام المواريث التي تقوم على العدالة المطلقة، وقد كان العرب في الجاهلية قبل الإسلام لا يورثون النساء والأطفال ويقولون: لا يرث إلا من قاتل على ظهور الخيل وطاعن بالرمح وضارب بالسيف وحاز بالغنيمة، فجاء الإسلام مبيّنًا أن الإرْث غير مختصّ بالرجال بل هو أمر مشترك بين الرجال والنساء والأطفال واليتامى، قال الله تعالى:

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ ذكر الله سبحانه حق الميراث فذكره أولًا للرجال، ثم ذكر سبحانه حق الميراث ثانيًا للنساء ليبيِّن أن حق المرأة مستقلٌّ عن حق الرجل حتى لا يتوهَّم أحد أنّ حقها تابع لحقّه ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي لكلٍّ من الصنفين ـ الرجال والنساء ـ نصيب من التركة سواء كانت قليلة أو كثيرة ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي حقًّا معيّنًا مقطوعًا به لا سبيل إلى الهوادة فيه ولا يستأثر به بعضهم دون بعض بل تجب مراعاته وتحرم مخالفته، وتقديم القليل على الكثير في الآية للتنبيه على وجوب دخول القليل في الميراث للمستحقين له لأنه مظنّة التهاون به.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ﴾ القِسْمَةُ: المراد بها التركة التي تُقسم بين الوَرَثة، والمراد بذوي القُربىٰ هنا: الأقارب الذين لا ميراث لهم من التركة، والمعنى: وإذا حضر قسمة الميراث أصحاب القرابة ممن لا حق لهم بالميراث وحضرها اليتامى والمساكين. وليس المراد من حضورهم أن يكونوا مشاهدين لتوزيع التركة على المستحقين لها لأن

قسمة الأموال على الورثة لا تكون عادة في حضرة هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين، وإنما المراد العلم بها من مقسِّمي التركة أو من طريق آخر.

﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي فأعطوا هؤلاء الأقارب الذين لا يرثون واليتامى والمساكين شيئًا من مال التركة تطيب به نفوسهم، وتجبر خاطرهم، وتدفع عنهم ما يُساورهم من الحسد لهؤلاء الوَرَثة.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو الكلام الجميل الذي ليس فيه مَنٌّ عليهم ولا يخدش كرامتهم، بأن يلطفوا لهم القول ويعتذروا إليهم إذا كان في العطاء لهم قِلَّة.

ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية التي نحن بصددها منسوخة بآية الميراث، وقال البعض الآخر: إن هذه الآية واجبة على أهل الميراث الذين يرثون ولكن تهاون الناس في العمل بها. وذهب جمهور من الفقهاء إلى أنّ هذا الإعْطاء لهم على سبيل الاستحباب إذ لو كان واجبًا لجرى تحديده.

وهكذا نرى في هذا التوجيه القرآني مدى التكافل الاجتماعي الذي يحرص القرآن على بثّه في قلوب المسلمين لتكون قلوبهم دائمًا مع من هم بحاجة إلى المعونة والإحسان، وأن يتنازلوا لهم عن قسم ضئيل من الميراث الذي ورثوه بدون كدٍّ ولا تعب.

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في هذه الآية يأمر الله الأوصياء على اليتامى أن يخافوا ربهم ويتقوه في رعاية اليتامى فلا يظلموهم، وأنهم في حال الإساءة إليهم وظلمهم لهم فليخشوا موقفًا قد يكون فيه أولادهم صغارًا يتامى يخافون عليهم من أن يولّى عليهم أشخاص مجرّدون من العاطفة يعاملونهم بقسوة وعنف، فكما يتملكهم الخوف على صغارهم من أن يكون وليّهم قاسيًا غليظ القلب

فليتَّقِ الله إذن هؤلاء الأوصياء وليعاملوا اليتامى الذين في عُهدتهم باللطف والرِّعاية والحنان. إضافةً إلى ذلك ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ والقول السديد هو القول الجميل الذي فيه الحب والحنان بما يُنْسيهم فَقْدهم لوالديهم.

ثم يختم الله الوصية باليتامى بأبلغ خطاب فيه التهديد والوعيد لمن يسيئون إليهم ويستولون على أموالهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ عبَّر الله عن الاستيلاء على مال اليتيم بالأكل لأنه الغاية المتوخاة منه، وأكثر ما ينتفع به الإنسان من المال هو الأكل. وَوَصْفُ أخذ مال اليتيم بالظلم هو تشنيع وذمّ للآكلين له لأن اليتامى هم بحاجةٍ إلى مزيد من العناية والكرامة لضعفهم وحاجتهم إلى من يرعاهم ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ يرى بعض المفسرين أن الآكلين لمال اليتامى ظُلْمًا سيأكلون النار يوم القيامة حقيقة، وأن المراد إنما يأكلون في بطونهم المال الحرام الذي يفضي بهم إلى عذاب النار ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ويقاسون حرّ جهنم الموقدة.

ويُلاحظ أنه ورد فيما سبق سِتّ آيات في الدعوة إلى الاعتناء باليتيم وحُسن رعايته والمحافظة على ماله مما يُشعر بأن ضعفه وعجزه عن القيام بمصالحه يستدعي رعاية المجتمع له.

وإنّ عدم رعاية اليتيم والاستيلاء على أمواله الموروثة سيفجّر في قلبه الحِقْد والكراهية مستقبلًا للذين أساءوا إليه وبالأحرى على المجتمع الذي لم يهتمّ به، وقد يجنح إلى السرقة والإجْرام مقابل ما أجْرم في حقه.

تمهيد لنظام الميراث في الإسلام

نظام الميراث الذي شرعه القرآن هو أعدل نظام للتوريث في كل قوانين العالم، وقد اعترف بذلك كل علماء القانون في أُوروبا وهو دليل على

أن القـرآن مـن عنـد الله فمن أين لرجل أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتـب ـ وهو نبيُّ الإسلام ـ الذي لم يدخل الجامعات ولم يتتلمذ على أساتذة القانون أن يأتي بهذا التشريع العادل في الميراث، الذي قال عنه الدكتور غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

«... ومبادئ المواريث التي نصَّ عليها القرآن على جانب عظيم من العَدْلِ والإنْصاف... والشريعة الإسلامية منحت الزوجات ـ اللواتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف ـ حقوقًا في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا»(1).

والجدير بالذكـر أن الميراث الـذي بيّنه القرآن ليس لـه مثيل ولم يكن معروفًا عند الفرس ولا عند الرومان في العصر الذي نزل فيه القرآن ولا في أي شريعةٍ قبله حتى يقال إن الميراث الإسلامي مقتبس عن الشرائع قبله.

والقرآن وسَّـع دائرة الانتفاع بالثروات على أكبر عدد ممكن، فكل أبناء المتوفى من ذكور وإناث كبارًا وصغارًا لهم حق في الميراث بعكس القانون الإنكليزي مثلًا الذي كان يقضي بانتقال ثروة الأب إلى الابن الأكْبَر ثم عُدِّل هذا القانون أخيرًا وجعل الميراث لكل أبناء المتوفى.

والميراث في الإسلام إجباريٌّ للورثة الذين عيّنهم القرآن لا يتصرف فيه المورِّث حسب أهْوائه ولا يحق له الوصية إلا بثلث ماله فقط كحدٍّ أقصى، والثلثان هما من حق الورثة.

والنظام الإسـلامي قسَّـم الوارثين إلى طبقتين: الأُولى هي طبقة الأولاد والآبـاء والأزواج، والثانيـة هي طبقة الإخوة والأخـوات، وجميع من ذُكروا فـي الطبقة الأولى هم الوارثون المباشـرون، أما مـن ذكروا في الطبقة الثانية فلا يرثون إلا إذا انعدمت الطبقة الأُولى أو معظمها، كما سيأتي تفصيله.

---

(١) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص٤١٦.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ
فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ
وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ
مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ
فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ
أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

شرح المفردات

يُوصيكم: يأمركم ويفرض عليكم.

حَظٌّ: نصيبٌ.

ميراث الأولاد

فـي هذه الآيـة والآية التي تليهـا يُبيِّن الله من يسـتحق الميراث تفصيلًا، وكذلك هناك آية ثالثة تتحدث عن الميراث خُتمت بها هذه السورة.

هـذه الآيات الثلاث تُبيِّـن أحكام المواريث عامـةً إضافة إلى الأحاديث الشـريفة التي وردت عن رسـول الله ﷺ مما هو تفسير وتوضيح لذلك، وما اتصل بذلك من مبادئ في المواريث استنبطها الفقهاء.

ويُطلق على علم الميراث: علم الفرائض، وقد ورد عن النبي ﷺ الدعوة إلى تعلّمه فقال: «تَعَلَّموا الفرائضَ وعَلِّموها الناسَ فإنه نصف العلم، وهو أول شيء يُنسى، وأوّل شيء يُنتزَع من أُمَّتي»[1].

وفي أسباب نزول الآية الأُولى من الميراث ما روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: «جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع قُتِلَ أبوهما معك في أُحُد شهيدًا، وإنّ عمَّهما أخذ مالَهما فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا تُنكَحان إلّا ولهما مال، فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ...﴾ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما فقال له: أعطِ ابنتَي سعد الثُّلُثَين، وأُمَّهما الثُّمُن، وما بقيَ فهو لكَ»[2].

يقول الله تعالى في مستهلّ هذه الآية:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ الوَلَدُ: يُطلق على الذَّكَر والأُنثى. والحظ: هو النصيب. والمعنى: يأمركم الله في أولادكم أمرًا مؤكدًا في شأن ميراث أولادكم من بعد موتكم أن يكون نصيب الذكر منهم في الميراث مثل نصيب الأُنثيين. وبعبارة أوضح: أنه إذا مات الميت وترك أولادًا ذُكورًا وإناثًا، كان للذكر مثل نصيب اثنتين من الإناث.

وعبَّر القرآن بلفظ الذكر والأنثى دون الرجال والنساء ليبيّن تساوي الكبار والصغار من الفريقين في استحقاقهم للميراث من غير دخل للعمر في ذلك خلافًا لما كان عليه العرب فقد كانوا لا يورثون الأطفال والنساء.

وبعض القوانين المدنية يُسوي بين الذكر والأنثى في الميراث ويعيب

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) أخرجه البخاري.

مُشرِّعوها على الإسلام أنه يُفَرِّق بين الذَّكَر والأُنثى في الميراث، فيجعل حصة الرجل ضعف حصة الأنثى، نقول لهؤلاء: إن الإسلام أعطى للرجل حق الرياسة في الأُسرة وجعل عليه في مقابل ذلك كل النفقات المالية، فالرجل هو الذي يبذل لزوجته مهرها، وهو الواجب عليه أن يُنفق عليها جميع نفقاتها، ونفقات أولادها منه من طعام وشراب وكسوة ومسكن ولو كانت غنية، كما أن على الرجل واجبات نحو أقاربه إذا كانوا فقراء وفي مقدمهم والداه بخلاف المرأة فإنها لا يَتوجَّب عليها ذلك. أمام هذا كله لا مجال لأن يُقال إن الإسلام بَخَسَ حق المرأة، إذ ليس من العَدْل أن تكون المرأة معفاة من كل نفقة على هذا الوجه وأن يكون نصيبها من الميراث مساويًا لنصيب الرجل!

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ أي فإن كان الأولاد إناثًا لا ذكر معهن وكان عددهن أكثر من اثنتين فلهن ثُلثا التَّرِكَة مهما بلغ عددهن، والنص القرآني لم يبيّن إذا ترك الميت بنتين ولكن يُفهم من آية أُخرى أن نصيب البنتين هو الثلثان أيضًا قياسًا على نصيب الأُختين لأن الله قال في توريث الأخوات: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾ .. ففي الأخوات نصّ القرآن على أن نصيب الأُخْتَيْن الثُّلُثان، فمن باب أولى أن يكون نصيب البنتين الثلثين لأنهما أقوى قرابةً من الأخوات وأجدر بالرعاية.

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾ أي إنْ تَرَكَ الميت بنتًا واحدة: لا أخ لها ولا أُخت فلها نصف الميراث، والنصف الآخر يأخذه باقي الوَرَثة حسب حصصهم في الميراث.

هذا توريث الأولاد وإليكم بعض الإيضاحات حول ذلك:

أولًا: إن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورًا وإناثًا يتمّ بعد أن يأخذ الأبوان وأحد الزوجين حصصهم.

ثانيًا: إن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه وهم أبناؤه وبناته وأبناء أبنائه وبنات أبنائه دون أبناء وبنات البنت لأنهم ليسوا من أولاده بل هم من ذوي الأرحام يأتي إرثهم متأخرًا عن العصبات[1] وأصحاب الفروض[2].

ثالثًا: الفروع وهم طبقتان: الطبقة الأولى تشمل الأبناء والبنات، والطبقة الثانية تشمل أبناء الابن وبنات الابن، فإذا لم يوجد أحد من الطبقة الأولى فإن الطبقة الثانية تحلُّ محلّها بكل التفاصيل. وإذا كانت الطبقة الثانية خليطًا من أبناء ابن وبنات ابن فللذكر ضعف نصيب الأنثى وإن كانت بنت ابن واحدة فلها النصف، وإن تعددت بنات الابن ولم يكن معهن ابن ابن فلهن الثلثان.

ونقتصر على ذلك، ومن أراد الإيضاح واستزادة المعرفة في حقوق الورثة فليرجع إلى كتاب (الميراث على المذاهب الأربعة) للعلّامة القاضي حسين غزال فهو من أوفى الكتب في هذا الموضوع.

ميراث الأب والأُم

وبعد أن بيّن القرآن حصص الأولاد ذُكورًا وإناثًا شرع في بيان ميراث الأب والأُم:

﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ والمراد بالأَبَوَيْن: الأَب والأُم، أي إذا ترك الميت أبويه وولدًا ذكرًا أو أُنثى، فلأبيه السدُس ولأُمه السدُس والباقي يُعطى للأولاد على ما تقدّم في بيان حصصهم.

(١) العصبات: جمع عاصب والمراد بهم هنا قرابة الإنسان الذكور من جهة أبيه وتشمل الأصول والفروع.

(٢) أصحاب الفروض: هم كل من له سهم مقدَّر من الميراث نص عليه القرآن أو سُنَّة رسوله محمد ﷺ.

فمثلًا: إن مات رجل وترك ابنًا وأبَوَيْن، فلأبويه لكل واحدٍ منهما السُّدُس وما بقي من المال فللابن. وإن ترك ابنة وأبَوَيْن فللابنة النصف وللأَبَوَيْن السُّدُسان وما بقي وهو السدس فلأقرب عصبة وهو الأب **﴿فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾** أي إذا مات الميت ولم يترك ولدًا ذَكَرًا كان أو أُنثى، وورثه أَبوه وأُمه، أخذت أُمُّه ثلث التَّرِكَة والباقي للأب وهو الثلثان، لِأَنَّ الميراث انحصر فيهما **﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ﴾** أي إن كان للميت إخوة سواء كانوا من الأب والأُم أو من الأب فقط، أو من الأُم فقط ذكورًا كانوا أو إناثًا أو مختلطين ففي هذه الحالة يكون لِأُمّ الميت سُدُس التركة والباقي للأب ولا ميراث للإخوة لحجبهم بالأب. أما إذا كان للميت أخ واحد أو أخت واحدة فلا تُحجب الأم من الثلث إلى السدس بل يبقى لها الثلث، والثلثان للأب.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ أي أنّ تقسيم الميراث على نحو ما تقدّم: لـلأولاد والأَبَوَيْن لا يكون إلا بعد أداء وصية يكون الميت قد أوصى بها قبل موته ـ والوصية لا تكون إلا في حدود الثلث، ولا تنعقد في أكثر من ذلك إلا إذا وافق الورثة. كما أن الوصية لا تجوز لوارث، وكذلك الميراث لا يُقسم على الورثة إلا بعد أمرين، أولًا: سداد ديْن كان على المورِّث قبل موته، ثانيًا: تنفيذ الوصية على ما سبق **﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾** أي أن آباءكم وأبناءكم الذين خصّهم الله بهذا الميراث لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا في دنياكم فعليكم أن تلتزموا تنفيذ قسمة الميراث كما قسمها الله لكم، ولا يصحّ أن تحكِّموا أهواءكم في أموالكم بعد وفاتكم فتخالفوا ما شرعه الله لكم **﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾** أي فرض الله ذلك الميراث على عباده وقدّره تقديرًا مُلزمًا فليس لأحدٍ أن يخالف قسمة الله **﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾** فالله سبحانه يعلم ما به الصلاح لِخلْقه، لذا فرض الميراث على هذا النحو وهو حكيم فيما يشرّعه من الشرائع التي فيها الخير للفرد والجماعة.

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ
فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ
وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ
إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ
ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ
وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ
فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ
شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ
مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ
ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ
﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا
خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾

شرح المفردات

كَلالَةً: من لا والد له ولا ولد.

غيرَ مُضارٍّ: غير مدخل الضرر على الورثة.

حُدود اللهِ: أحكام الله وفرائضه في الميراث.

ميراث الأزواج والزوجات

وبعـد أن بيّـن الله سبحانه ميـراث الأولاد والأب والأم شـرع فـي بيان ميراث الأزواج والزوجات قال الله تعالى:

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي ولكم أيُّها الأزواج نصف ما ترك نساؤكم بعد وفاتهن من أموال إن لم يكن لَهُنَّ أولاد مِنهُنَّ مباشرة أو من أصلاب بنيهنّ أو بني بنيهنّ... إلخ ذكورًا كانوا أو إناثًا، منكم أو من أزواج آخرين، والباقي بعد النصف الذي استحقه الزوج يعطى لذوي الفروض والعصبات الذين لهم حق ميراث الزوجات ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾[1] أي فإن تركت الزوجة ولدًا على نحو ما سبق كان لزوجها ربع ما تركت من مال.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي يأخذ الزوج نصف مالها تارةً والرُّبُع تارةً أُخرى حسب التفصيل السابق بعد تنفيذ وصية الزوجة إن كان لها وصية وقضاء دَيْنها إن كان عليها دَيْن. وإن كانت التركة تكفي الدَّيْن وحده قُدِّمَ الدَّيْنُ على الوصيَّة.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أي ولزوجاتكم الرُّبُع مما تركتم بعد وفاتكم

(١) المتأمل في آيات المواريث يجد أن الله سبحانه قد ميّز الوالدين عن الزوجين في الإرث فأعطى الزوجة الربع إن لم يكن للزوج ولد وأعطاها الثمن إن كان له ولد على حين أعطى لكلٍّ من الأُم والأب السدس إن كان للمتوفى ولد، وفي حال عدم وجود الولد أعطى الأب الثلثين وأعطى الأُم الثلث. إن هذا الموقف القرآني من تمييز الوالدين في الإرث على الزوجة يشعرنا بأنه يجب أن ينعكس ذلك على معاملة الوالدين في الحياة وأنه ينبغي تمييز الوالدين على الزوجة في الرعاية والعناية والعطاء. أين ذلك مما نراه الآن من انصراف الأزواج نحو زوجاتهم يغدقون عليهن العطاء وبالمقابل يقتّرون على والديهم؟ أما سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] فقد قرن الله الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله للحث على البرّ بهما.

من مال والباقي لورثتكم ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ منهن أو من زوجة سواها ذكرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي فإن ترك الأزواج بعد وفاتهم وَلَدًا على النحو المذكور ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ أي عند وجود الولد يكون للزوجات ثُمُنُ المال الذي تركه أزواجهن ويكون المال الباقي لبقية الوَرَثة.

ويكون الربع أو الثمن للزوجة إذا انفردت، وفي حال تعدد الزوجات يقسم الربع أو الثمن بينهن بالسوية ﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وتكون حصة الزوجة بعد تنفيذ وصية الزوج ووفاء دَيْنِه إن كان عليه دَيْنٌ ويدخل في الدَّيْن مهر الزوجة ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ والكلالَةُ: مَن ليس له ولد ولا والد فإذا مات ورثه غيرهما، كالإخوة، والكلالة: مأخوذة مَن الكلال وهو الإعياء، فكأنه يصير الميراث إلى الوارث عن بُعد وإعياء.

﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ والمراد بالإخوة والأخوات هنا الإخوة والأخوات لِأُمّ، ويؤيده قراءة للقرآن لسعد بن أبي وقاص (وَلَهُ أَخٌ أو أُختٌ مِنْ أُمّ) ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ أي لكلٍّ من الأخ أو الأخت لأُم السدس ﴿فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ فإن كان الإخوة والأخوات لِأُمّ أكثر من واحد فهم شركاء في ثُلُث التَّرِكة يقتسمونه فيما بينهم بالسوية بين ذكورهم وإناثهم كما يفهم من كلمة (شركاء)[1] والباقي من المال الموروث يقسّم بين أصحاب الفروض والعصبات من الورثة.

هذا وقد ذكر ميراث الإخوة مرتين: هنا مرة، ومرة أخرى في آخر آية من

(١) وميراث الإخوة لأمّ مشروط بعدم وجود من يحجبهم وهم ستة: الأصل الوارث ويشمل الأب والجد، والفرع الوارث ويشمل أربعة: الابن وابن الابن والبنت وبنت الابن.

هذه السورة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ...﴾ [النساء: ١٧٦].

فقد جعل الله سبحانه في الآية التي نحن بصددها للأخت لأُمّ السُّدُس، وجعل في الآية التي في آخر السورة للأُخت النصف، فوجب أن يُحمَل الأخوات في آخر السورة على الشقيقات والأخواتِ لأب.

﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ أي يأخذ الوارث نصيبه بعد تنفيذ الوصية التي أوصى بها المتوفى من رجل أو امرأة وبعد أداء ديون المورث ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أي غير جالب لورثته الضرر بعد موته بالزيادة على الثلث في الوصية، أو يقرّ لشخص بِدَيْنٍ ليس عليه منعًا للميراث عن الورثة، أو يقرّ بأنّ الدَّيْنَ الذي كان له على غيره قد استوفاه مع أنه لم يحصل شيء من ذلك ﴿وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي وصية كائنة من الله لا يجب التفريط بها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ أي أنه سبحانه عليم بجميع أحوالكم ونيّاتكم حسنة كانت أو سيئة فيجزيكم عليها، وهو حليم لا يعجِّل بعقوبته على المخالفين أمره لعلهم يتوبون ويؤدون الحقوق لأصحابها[1].

(١) تعقيبًا على ما ورد في الدَّيْن والوصية نُشير إلى أن الترتيب في تقسيم التركة يكون كما يلي:
١ ـ تجهيز الميت.
٢ ـ أداء الدَّيْن.
٣ ـ الوصية في حدود الثُّلُث أي ثُلُث الباقي بعد التجهيز والدَّيْن.
٤ ـ يأتي دور الورثة.
فلو كانت التركة ألف دولار وكان التجهيز /٢٠٠/ وكان الدين /٢٠٠/ فيبقى /٦٠٠/ فإذا أوصى بالثلث نأخذه من الـ /٦٠٠/ وهو يساوي /٢٠٠/ فيبقى للورثة /٤٠٠/.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ تلك الأحكام المذكورة في بيان المواريث وما سبقها من أحكام هي شرائع الله التي حددها لعباده ليعملوا بها ولا يتعدُّوها ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾ ومن يطع الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي يُدْخله الله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ باقين في الجنة أبدًا لا يموتون فيها ولا يُخرَجون منها ﴿وذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ وذلك هو الفلاح العظيم الذي لا فوز وراءه ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ ومن يعص الله ورسولَهُ ويتعدَّ حُدود ما شرعه سبحانه مستبيحًا ذلك التعدِّي ﴿يُدْخِلْهُ نارًا خالِدًا فِيهَا﴾ يكون جزاؤه دخول جهنم ليعذب بنارها، ماكِثًا فيها أبَدًا ﴿وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ وله فوق عذاب الحريق الجسماني عذاب روحاني مُذِلّ لا يعرف كنهه إلا الله.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ
أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ
يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا
مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

شرح المفردات

الفاحشة: الزِّنا وقد يراد بها السحاق.

فأمسِكُوهُنَّ في البيوت: احْبسوهنَّ في البيوت.

عقاب الذين يزاولون الفواحش

وبعد أن وزّع القرآن الميراث على أَفراد الأُسرة توزيعًا عادلًا حذَّر من اقتراف الفواحش وبيَّنَ العقوبة على من يقترفها لتقوم الأُسرة على الطهر والعفاف وفي هذا سلامة المجتمع من تفشي الرذيلة فيه، قال تعالى:

﴿واللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِسائِكُمْ﴾ اللاتي: جمع التي، والفاحشة: هي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيرًا ما أَطلق القُرآن اسم الفاحشة على الزنا وهي المراد هنا. والمعنى: والنساء اللاتي يفعلن فاحشة الزنى من زوجاتكم ـ أيها المسلمون ـ أو من إناثكم سواء أكنَّ ثَيِّبات أم أبكارًا ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنكُمْ﴾ أي اطلبوا أن يشهد عليهن أربعة منكم. والاتهام بالزنا أشدّ أنواع الإجرام الذي تُرمى به المرأة والرجل، وكثيرات من النساء كنَّ ضحية لشائعات كاذبة ترتّب عليها خراب البيوت، لذا تُشدِّد الآية في إثبات جريمة الزنا فقررت أن يكون إثباته بشهادة أربعة من الرجال العدول وأن تكون الشهادة بالمُعاينة والرؤية الواضحة لا بالسماع، ولذا قال بعد ذلك: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي إذا ذكروا أنهم عاينوا وشهدوا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ والإمساك في البيوت لا يقتصر معناه على الحبس والتضييق المجرد، بل إنّ معناه أيضًا الحفظ والصيانة والرعاية، كما يتضمن معنى الإرشاد والتوجيه. وفي حبسهن في البيوت محافظة عليهن ودَفْعٌ للفساد والشر، وقد كان الحبس في البيوت في صدر الإسلام فلمّا كثر الجناة اتخذوا لهم سجنًا ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي حتى يُنهي الموت حياتهن ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أو يجعل الله لهنَّ طريقًا آخر لعقوبتهن على اقتراف جريمة الزنا، وبعدها يفتح الله لهنَّ طريقًا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبة ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيانِها مِنكُمْ﴾ أي والرجل والمرأة اللذان يرتكبان فاحشة الزنا ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالتقريع والتوبيخ والزَّجْر الشديد ليندما على ما فعلا وليرتدع سواهما بهما والأذى يكون لهما باللسان بأن يقال لهما: بئس ما فعلتما! أما خفتم من الله؟ أما استحييتم منه؟ كما يكون الأذى باليد.

وإنما خص الإسـلام النسـاء بعقوبة الحبس دون الرجال لأن الرجل هو العائـل لأُسـرته فلو حبس حتى يموت لكان في ذلك ضياع واسـع لأسـرته لأن الرجل مطلوب منه الكدح والعمل لنفقته ونفقة من يعوله.

وقـد بقيـت عقوبـة الزنا علـى النحو السـابق: الإيـذاء للرجال والنسـاء والحبس للنساء خاصة حتى الموت حتى يجعل الله لهن سبيلًا الذي وعد به وهذا ما جاء في سـورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢]، كما جاء عن النبي ﷺ قوله: «خُذُوا عني، خُذُوا عني، قد جعل الله لهـن سـبيلًا: البِكْرُ بالبِكْـرِ جَلْد مائة وتغريب عام، والثَّيِّبُ بالثيب جلد مائة والرجم»[١].

وقـد نُسـخ جَلـد الثيِّـب بمـا فعله النبيّ ﷺ فقـد رجـم ماعز بـن مالك الأسلمي ورجم الغامديّة وكانا ثَيِّبَيْن[٢] ولم يجلدهما.

كمـا أن التَّغريـب يكون للرجل ولا تُغَرَّب المرأة في رأي المالكية لأنها إذا غُرِّبت ربما يكون ذلك سببًا لوقوعها فيما أُخرجت بسببه وهو الفاحشة.

وهنـاك تفسـير آخـر لما مضى من الآيـات وهو ما ذهب إليه أبو مسـلم الأصفهانـي[٣] بمـا نقلـه عن مجاهـد[٤] حيث يقـول: والمراد بقولـه تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ هم من يتعاطون المِثْليَّة الجِنْسـيَّة (السحاق)، والمرأة التي تستمتع بالمرأة الأُخرى عقوبتها التعزيز، وهي عقوبة يقدّرها القاضي بما يردع الجانية ويزجرها عما هي فيه ويصلحها، وقد اتفق

(١) أخرجه مسلم وأصحاب السُنن.
(٢) الثيّب: من ليس ببكر ويطلق على الرجل والمرأة اللذين سبق لهما الزواج والمجامعة بينهما.
(٣) أبو مسلم الأصفهاني: كان عالمًا بالتفسير.
(٤) مجاهد: وهو مفسر للقرآن من أهل مكة قيل عنه إنه شيخ القراء والمفسرين أخذ التفسير عن ابن عباس وهو من التابعين الذين جاءوا بعد أصحاب النبي ﷺ.

الفقهاء على أنه لا حدّ[١] في السحاق. والمراد بقوله تعالى ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ واللَّـذان: تثنية الذي، وهم الذين يتعاطـون اللواط، وقد ذهـب جمهور الفقهاء إلـى أنّ عقوبة اللائط عقوبـة الزاني فيرجم المحصن (أي المتزوج) ويجلد غيره ويغرّب لأنه زنًا.

وبعـد أن بيَّـن القُرآن عقوبة الزاني والزانيـة عقّب على ذلك بقوله: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ فإن ندم الزانيان ورجعا عمّا فعلا من الفاحشة وأصلحا نفسيهما وأصلحـا أعمالهمـا فهذا دليـل على توبتهمـا الصادقـة ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ والإعراض ليس المراد منه التعيير والتشهير بل المراد بأن لا يُذكرا بجريمتهما بل يعاملان معاملة الأَطْهار والأبْرار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ وتوّاب: من صيغ المبالغة أي أن الله عظيم التوبة على عباده واسع الرحمة بهم.

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

شرح المفردات

بِجَهَالَةٍ: يرتكبون المعصية جهلًا بما تؤدي إليه من عقوبة.

أَعْتَدْنا: هيَّأنا وأعْدَدْنا.

(١) الحدّ في اصطلاح الشرع عقوبة مقدّرة وجبت على الجاني.

أحكام التوبة

وبعد أن ذكر القرآن فيما سبق أن التائبين عن فعل الفواحش يَقبل الله توبتهم بَيَّن في الآيتين التاليتين حقيقة التوبة وكيفية التعاطي معها لتكون مقبولة عند الله، يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي إنما قبول التوبة ثابت ومتحقق على الله تفضلًا منه، والتوبة في الشرع[1]: ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزم على ترك معاودته. وتاب الله عليه معناه: عاد الله عليه بالمغفرة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ والسُّوء هنا يعمّ الكفر والمعاصي، والجهالة: يطلق معناها على السفاهة التي هي خفة الإنسان في تصرفاته، وفعله الأشياء على غير وجهها، وتأتي الجهالة بمعنى الجهل الذي هو الخلوّ من العلم، أو علم الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وقد يقترف الإنسان المعصية في حال غفوة ضميره وضعفه النفسي وذلك من غير إدراك للعواقب.

وقد قال سبحانه إخبارًا عن يوسف عليه السلام عندما حاولت النسوة استمالته إليهن ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

والسبب في إطلاق اسم الجاهل على العاصي لربه هو أنه لو كان على عِلْمٍ بالثواب والعقاب من الله لَما أقدم على المعصية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ثم يتوبون في صحتهم قبل مرضهم وقبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يتوبون في وقت قريب من وقت عمل السوء بحيث لا يسترسلون في المعاصي ويستمرون عليها، وهؤلاء ممن قال الله فيهم:

(١) الشرع: أي ما شرعه الله.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وفي الحديث الشريف عن النبيّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبة العبد ما لم يُغرغِرْ»[1] (أي ما لم تتردد الروح في الحلقوم).

ثم تُبيّن الآية مصير الذين يتوبون قبل حضور الموت:

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أُولئك الموصوفون بأنهم يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب قبل أن تظهر أسباب الموت وأماراته عليهم، هؤلاء يقبل الله توبتهم تفضُّلًا منه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولا يزال عليمًا بخلقه يحيط علمه بكل شيء، فيعلم الصادق في توبته من الكاذب، عظيم الحكمة في تدبير كل الأمور، ومن حكمته أنه فتح باب التوبة للعصاة لتغيير سلوكهم من الشر إلى الخير.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي لا تكون التوبة صحيحة ولا مقبولة للذين يعملون السيئات ويستمرون عليها حتى الموت. وتأمَّل كيف جاءت السيئات هنا بصيغة الجمع إشعارًا بأن الله لا يقبل توبة مَن كان شأنُهم أن يكرروا الذنوب ويُنوّعوها. وشتَّان بين من يقترف الذنب مرة دون إصرارٍ عليه، ومن يكون صدور السيئات ملكة عنده وعادة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وحضور الموت هو تحقق وقوعه واليأس من الحياة ﴿قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ أي أن توبة هؤلاء لا يقبلها الله لأنها جاءت وقت اليأس من الحياة، لأن التوبة المقبولة هي التي تكون وقت الأمل في الحياة مع الرغبة الصادقة في إصلاح النفس والعمل الصالح.

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

ويضرب القُرآن مثلًا من هذا القبيل توبة فرعون، وهو الكافر بالله، الظالم لشعبه حين أعلن توبته عند غرقه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ولكن الله رفض توبته حينئذٍ بقوله: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ أي ولا يقبل الله توبة الكفار إذا ماتوا على كفرهم ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عذابًا أَليمًا﴾ أي أُولئِكَ أعددنا وهيأنا لهم عذابًا مؤلمًا موجعًا يوم القيامة. والملاحَظ أن الله فرّق بين العصاة في التسمية، فسمّى أحد الصنفين بالكفار، ووصف الصنف الآخر بأنهم أهل السيئات، وقد منع الله المغفرة على من مات على كفره حيث قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وأرجأ سبحانه العُصاة من أهل التوحيد إلى مشيئته حيث قال بعد تتمة الآية السابقة: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فإذا كانت المعصية دون الإشراك بالله فإنها قابلة للمغفرة بمشيئة الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ
كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن
يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ
فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩
وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ
قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا
مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ
وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾

شرح المفردات

ولا تَعْضُلُوهُنَّ: تمنعوهن من الزواج.

لِتَذْهَبوا ببعض ما آتيتموهن: ليفتدين ببعض مهورهن.

قِنطارًا: المراد به المال الكثير.

أفضى: أفضى الرجل إلى امرأته باشرها وجامعها.

ميثاقًا غليظًا: عَهْدًا شديدًا.

المحافظة على حقوق المرأة

وبعد الكلام عن الميراث وحقوق الورثة انتقل القرآن إلى إصلاح ما كان عليه العرب قبل الإسلام من ظلم واستبداد بحق المرأة حيث جعلوا المرأة كالمتاع الموروث ليس لها رأي، ولا حرية بالتصرف بمالها، وليس لها الحق باختيار الزوج، فقد كان من عادة العرب في الجاهلية أنه إذا مات الرجل كان ورثته أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوّجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها.

وكان الرجل في الجاهلية إذا ماتَ وكانت له زوجة جاء ابنه من غيرها أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال: ورثتُ امرأتَهُ كما ورثتُ مالَهُ، فصار أحق بها من سائر الناس ومن نفسها فإن شاء تزوجها بغير مهر إلا المهر الذي أعطاه لها الميت، وإن شاء زوّجها من إنسانٍ وأخذ مهرها ولم يعطها منه شيئًا.

أمام هذا الظلم بحق المرأة نزل قوله تعالى:

﴿**يَا أَيُّها ٱلَّذينَ آمَنوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا ٱلنِّساءَ كَرْهًا**﴾ أي لا يحلُّ لكم أيها المؤمنون أن تَرِثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم كما تُورث الأموال والعقارات وهن كارهات لذلك أو مُكرهات عليه ﴿**وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾ العضل: المنع والحبس والتضييق. والخطاب هنا للأزواج فقد كان الرجل منهم إذا كره زوجته وأراد مفارقتها نبذها وأساء

عشرتها وضيّق عليها حتى تَفْتَدِيَ نفسها ويفوز زوجها بشيء من المهر أو غير ذلك مما أعطاه لها. ونحن نشاهد في عصرنا الحاضر آثارًا من هذه الصفات المنكَرة، فنرى البعض إذا كره زوجته ضيَّق عليها وأساء عشرتها لتفتديَ نفسها منه بإبرائه من مؤخَّر مهرها، ومنهم من يطلب المال الكثير مقابل طلاقها وهذا ظلم لا يرضاه الله ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ استثنت الآية من ذلك صدور فاحشة مبيِّنة أي واضحة وأباحت بهذا الاستثناء أن يضيِّق الرجل على امرأته حتى تفتديَ نفسها بمال ليفارقها كأن تتنازل عن مهرها المؤخَّر مثلًا، والفاحشة المبيِّنة فَسَّرها العلماء بالزنا والنشوز، ونشوز المرأة لزوجها بُغضها له والترفع عن طاعته ويشمل ذلك البذاءة والفحش في القول والعمل، فإذا آذت المرأة زوجها إيذاء شديدًا فقد أتت بفاحشة مبيِّنة، وإذا أساءت إلى أُمِّهِ إساءةً بليغة بدون مبرر فقد أتت بفاحشة مبيِّنة، وكذلك إذا سرقت من ماله أو بذَّرته تبذيرًا بدون مسوِّغ فقد أساءت عشرته.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ والمعاشرة هي المخالطة والمصاحبة وأن تكون بالمعروف، وهي ما أمر به الإسلام وارتضاه العقل من الأفعال الحميدة والأقوال الحسنة ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ثم يُبيِّن الله سبحانه للرجال أنه في حال كراهيتهم لنسائهم لسبب من الأسباب لا يصحّ لهم أن يهدموا حياتهم الزوجية فلربما يكون في هذه الكراهية الخير الكثير الذي لا يعلمونه.

يقول الإمام محمد أبو زهرة تعليقًا على هذا النصّ القرآني وما يتوجب على الزوج تجاه زوجته التي يكرهها:

أولها: أن ينظر الزوج إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها لا من ناحية واحدة منها وهي البغض والحب، فينظر إلى مصلحة أولاده وإلى نظام بيته، وإلى محاسنها بدل أن ينظر إلى مساويها.

وثانيها: أن يفكر الزوج في من يعقبها: أهي خير منها أم لا؟

وثالثها: أن ينظر في شأن العلاقة بعين العقل والمصلحة المشتركة لا بعين الهوى المسيطر الجامح.

ورابعها: وهو أعظمها أن ينظر إلى المسألة بالقلب الديني وأن يتذكر في وقت الكراهية العشرة الحلوة السابقة[1].

وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر»[2] والفَرَكُ: البغض الكلّي الذي تُنسى فيه كل المحاسن.

وهذا يدلُّ على سموّ الإسلام في إنصاف المرأة من الظلم الذي كانت تتعرض له قبل الإسلام، ومن الأمثلة على ذلك أن الرجل في الجاهلية كان إذا رغب في التزوج بامرأة أُخرى رمى زوجته بالفاحشة حتى يُلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها من المهر ليصرفه في تزوُّج المرأة التي يريدها، فقال الله تعالى مستنكرًا ذلك:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ[3] مَكَانَ زَوْجٍ﴾ أي إذا أردتم أيها الأزواج تزوُّج امرأة أُخرى ترغبون بها لتحلّ محلّ الزوجة التي تريدون فراقها ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا﴾ وقد كنتم أعطيتم من تريدون فراقها مالًا كثيرًا عن طريق المهر، والقنطار أقصى ما يُتصور من مهور[4] ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي فلا تستردّوا من هذا المهر الذي أعطيتموه للزوجة التي تريدون فراقها شيئًا ولو قليلًا ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ هنا توبيخ واستنكار

(١) عن كتاب (زهرة التفاسير).
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) الزوج: يطلق في لغة العرب على الذكر والأنثى والزوج في الآية هنا مراد به الزوجة.
(٤) قنطارًا: قيل هو مائة أوقية من ذهب أو فضة، والمراد كمية كبيرة من المال.

للأزواج الذين يستردّون من زوجاتهم المهر أو بعضًا منه عندما يكون الفراق منهم لهوى في نفوسهم، وقد وصف الله هذا الأخذ بالبهتان وهو الكذب غير المعقول الذي يتحير فيه العقل ويدهش لفظاعته لأنه اعتداء على الزوجة البريئة، وأنه ذنب واضح معلن عن وضوحه حيث يتهم الرجل زوجته بالفاحشة لاسترداد ما دفعه إليها من المهر ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ الاستفهام للتعجب، أي كيف تأخذون من زوجاتكم اللاتي ظلمتموهن بفراقكم إياهن شيئًا مما أعطيتموهن من المهر ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ وأفضى: مأخوذة من الفضاء وهو المكان الواسع أي أنكم دخلتم مع زوجاتكم أوسع مداخلة، وحصلت الألفة التامة بينكم فكيف يليق بكم أن تستردّوا مما أعطيتموهن بطيب نفس؟

وقد فُسّر الإفضاء أيضًا بمعنى الجماع، يقال: أفضى الرجل إلى امرأته: باشرها وجامعها، ولكنّ القرآن عبّر عنه بكناية لطيفة كعادته بأن يعبّر عن العلاقات الجنسية بألفاظ لا تمجّها الأذن. وقال بعض المفسرين بأن الإفضاء هو الخلوة بين الرجل والمرأة[1].

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ والميثاق: عَقْدٌ مؤكّد بيمينٍ وعهدٍ. أي أن زوجاتكم أيها الرجال أخذن منكم عهدًا شديدًا على الوفاء لهن من حُسْن الصحبة وكريم المعاملة والمحافظة على حقوقهن من حسن المعاشرة في حال دوام الزوجية، أو المفارقة بإحسان عند استحكام النفرة الزوجية، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

(١) وبناءً على اختلاف المفسرين في معنى الإفضاء، فقد ذهب الأئمة الأحناف والحنابلة إلى أن كامل المهر يتقرر بالخلوة، وذهب الأئمة الشافعية والمالكية إلى أنه يتقرر بالجماع لا بالخلوة، كما قرر المالكية أن المهر يجب أيضًا بإقامة الزوجة سنة في بيت الزوج بعد الزفاف بلا وطء.

هذا الميثاق الغليظ بين الزوجين هو من الفطرة الإلهية التي أودعها الله فيهما والمعبّر عنها بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

هذه الفطرة الإلٰهية القائمة على الوُدّ والرحمة بين الزوجين هي أقوى ما تعتمد عليه المرأة حين تترك أبويها وإخوتها وسائر أهلها، وترضى بالعيش مع رجل غريب عنها تشاركه الحياة حُلْوها ومرّها، وتَسْكُن إليه ويسكن إليها. هذا الميثاق الغليظ يحتّم عليك أيها الزوج في حال تعثّرت العشرة بينك وبين زوجتك، ورأيت أن تستبدلها بزوجةٍ أُخرى، إن كنت أعطيتها قنطارًا من الذهب مهرًا لها فلا يحلّ لك أن تأخذ منه شيئًا.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

شرح المفردات

تَنْكِحوا: يطلق النكاح على عقد الزواج وعلى الجماع.

سَلَفَ: أي مضى.

مَقْتًا: مبغوضًا عند ذوي الطباع السليمة.

ساء سبيلًا: بئس من يسلك تلك الطريق.

ربائِبكم: جمع ربيبة وهي بنت امرأة الرجل من غيره.

حُجُورِكم: كَنَفكم ورعايتكم.

حلائِل: جمع حليلة وهي الزوجة.

أصلابكم: ذريتكم.

تحريم الزواج من امرأة الأب

من عظمة الإسلام الإصلاح الذي حققه في العلاقة الجنسية بين الزوجين، وقد سَما القرآن بهذه العلاقة إلى أعلى مستوى من الطهارة، على حين كانت العلاقة الجنسية عند العرب في الجاهلية قد خالطها الكثير من القبائح والمنكرات، وفي طليعة تلك القبائح زواج الابن بامرأة أبيه من غير أُمه بعد وفاة أبيه أو طلاقها منه.

وقد كان في العرب قبائل اعتادت أن يخلف الابن على امرأة أبيه فيتزوجها وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة على التراضي، فجاء الإسلام بتحريم هذا الزواج أشدّ التحريم، وخصَّ الله تحريمه بآية خاصة، ولم يُدرجه ضمن المحرّمات في الآيتين التاليتين اهتمامًا بشأن تحريمه، ومبالغة في الزجر عنه.

وقد روي أنه لمّا تُوُفِّي أبو قيس وكان من صالحي الأنصار جاء ابنه قيس، فخطب امرأة أبيه فقالت: إني أُعِدُّكَ وَلَدًا، ولكني آتي رسول الله

أستأمره، فأتته فأخبرته، فقال: ارجعي، لعل الله أن ينزل فيك شيئًا، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِنَ النِّساءِ﴾ أي لا تتزوجوا من تزوجهنّ آباؤكم من النساء غير أُمهاتكم بعد فراقهم لهن بموت أو طلاق ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج في الجاهلية قبل نزول تحريمه في هذه الآية فإنكم لا تؤاخذون به، ولكن تصير زوجة أبيه حرامًا عليه من وقت نزول هذه الآية ويجب عليه أن يفارقها ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي أن زواج الأبناء من زوجات الآباء هو أمْرٌ مستقبَح غاية القبح، وإنه أمر بغيض يبغضه الله ويبغضه أهل المروآت فلا يقبلونه ولا يرضونه، ومن الدلالة على قبحه أن العرب كانوا يسمون الولد الذي ينشأ من هذا الزواج باسم المقتيّ أي البغيض ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي أن هذا الزواج أسوأ طريق يسلكه الولد وأقبح طريق عند الله.

والحكمة من تحريم زواج الابن من امرأة أبيه هي منع عين الولد من التطلع إلى زوجة أبيه عن رغبة جنسية، فلربما أعجبته، فأقلّ أنواع التفكير الذي يراود نفسه أن يقول بينه وبين نفسه: بعدما يموت أبي أتزوجها، وربما يفرح بموت أبيه، فيريد الله أن يقطع على الولد أمل الزواج بزوجة أبيه ولو بالخيال والتمني، وأن ينظر إلى زوجة أبيه غير أُمه نظرته إلى أُمه.

كما أن الزواج من امرأة الأب يتنافى مع ما للآباء من وقار وما يجب لهم من الوفاء، لأن امرأة الأب لا تحتشم أمام ابن زوجها، فلو كانت تحلّ للزواج به بعد موت زوجها أو طلاقها منه لتطلعت النفس إليها، وبالمقابل فقد ترغب زوجة الأب في الابن فتفارق الأب أو تغاضبه ليطلّقها طمعًا في الزواج من ابنه، لذا سدَّ الإسلام جميع الذرائع التي تنشأ عن ذلك لأجل الوفاء للأب.

والنكاح يطلق على عقد الزواج وعلى وطء الزوجة. وعقد الزواج ذاته أحيانًا يكون سببًا للتحريم، فإذا عقد الأب أو الجد الزواج على امرأة حُرّمت هذه المرأة على الأبناء والأحفاد ولو لم يدخل بها الأب أو الجد (أي لم يجامعها) وفي هذا يقول ابن عباس: كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل فهي عليك حرام[1].

وأحيانًا لا يكون عقد الزواج سببًا للتحريم كما لو عُقد الزواج على الأم فإنّ ابنتها لا تُحرَّم عليه إلاّ إذا دخل بالأم، ومن هنا قال الفقهاء: العقد على البنات يُحرِّم الأُمهات، والدخول بالأُمهات يحرّم البنات.

ويرى المالكية والشافعية والحنابلة أنّ المسّ والمباشرة في غير الفرج والتقبيل ولو بشهوة لا يحرّم أصول مَن مسّها ولا فروعَها، زوجةً كانت أم أجنبية.

ويرى الحنفية أنّ من زنى بامرأة أو مسّها بشهوة حُرّمت عليه أُمُّها وابنتُها، ومَن مسّته امرأةٌ بشهوة حُرِّمَت عليه أُمُّها وابنتُها.

ما يحرَّم على الرجل الزواج من النساء

وبعد أن ذكر القرآن تحريم زواج الأبناء ممن تزوج منهن الآباء تأتي الآية التالية وفيها تحريم زواج المسلم ممن تربطه بالنساء صلة القرابة القريبة والنسب، قال الله تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي حرَّمَ اللهُ عليكم نكاح أُمهاتكم اللاتي ولدنكم، ويشمل الجدّات، أمّ الأم وإن علت وأمّ الأب وإن علت

(١) الموسوعة الفقهية الصادرة عن وزارة الأوقاف في الكويت.

﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وحرَّم اللهُ عليكم نكاح البنات اللاتي من ذرّياتكم وبنات أولادكم سواء أكان البنات من أولادكم الذكور أم الإناث وإن نزلوا أي بنات الأولاد الذكور والبنات ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ وحرَّم الله عليكم نكاح أخواتكم سواء كن شقيقات لكم من أبٍ وأُمٍّ أو أخواتٍ لأبٍ أو لأُمٍّ ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ وحرَّم اللهُ عليكم نكاح عماتكم، والعمة تشمل أُخت الأب أو الجدّ وإن علت، كما حرَّم الله عليكم نكاح خالاتكم، والخالة تشمل أخت الأُمّ وأُخت الجدّة وإن علت ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وكذلك حرَّم عليكم نكاح بنات إخوانكم وبنات أخواتكم ويدخل فيهن أولادهن، سواء كنّ إخوانكم وأخواتكم شقيقات لكم من أب وأُم، أو من أب فقط، أو من أُم فقط.

ثم ينتقل القرآن إلى بيان المحرَّمات نكاحهن من الرضاع:

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أي وحرَّم اللهُ عليكم نكاح أُمهاتكم اللاتي أرضعنكم وقد سمّى الله المرضعات (أمهات) جريًا على لغة العرب، وما هنّ بأُمهات حقيقة ولكنهن ينزلن منزلة الأُمهات، لأن الأطفال قد رضعوا منهن وتغذَّوا بألبانهن. فالرضاعة تمنح المرضعة وصف الأُمومة فتسمَّى بذلك أُمًّا للرضيع، ويصير زوجها الذي كان السبب في درّ لبنها أبًا لذلك الرضيع.

﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ وإذا رضع طفل من امرأة صارت بناتها أخوات له من الرضاعة ويحرَّم عليه الزواج بهن سواء البنت التي رضعت معه أو البنت التي رضعت قبله أو بعده.

وسنفصّل فيما يلي من يحرَّم على الرضيع التزوّج بهن عندما يبلغ سن الرجولة:

يحرَّم على الرضيع التزوج ممن أرضعته لأنها أمّه من الرضاعة. وكذلك يحرَّم عليه بناتها لأنهن أخواته من الرضاعة. ويحرَّم عليه أُمّ التي أرضعته لأنها أصبحت كجدّته. ويحرَّم عليه أُخت التي أرضعته لأنها أصبحت بمنزلة خالته.

ويحرَّم عليه أخت زوج أُمه التي أرضعته لأنها أصبحت بمنزلة عمته. ويحرَّم عليه بنات أولاد المرضعة لأنهن أصبحن بمنزلة بنات إخوته أو بنات إخوانه، وإجمالًا يقول النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»[1].

وأما بنات عمات الرضيع وأعمامه رضاعًا، وبنات خالاته وأخواله رضاعًا فلا يحرمن عليه من التزوج بهن.

ما يحرَّم على المرضعة

يحرَّم على المرضعة أبناء رضيعها، وأبناء أبنائه وإن سفلوا، ولا يحرّم عليها أُصوله: كأبيه وجدّه، ولا حواشيه كإخوته وأعمامه وأخواله فيجوز لهؤلاء أن يتزوجوا المرضعة أو بناتها أو أخواتها.

ويحرَّم على صاحب اللبن ـ أي زوج المرضعة ـ الزواج ممن أرضعتها زوجته لأنها ابنته من الرضاع، كما تحرَّم على أبنائه الذين من غير المرضعة لأنهم إخوتها من الرضاعة، وتحرم الرضيعة على آباء زوج المرضعة لأنهم أجدادها من قِبَل الأب من الرضاعة، وعلى إخوته لأنهم أعمامها من الرضاعة.

(١) متفق عليه.

الرَّضاعة المحرِّمة

والرضاعة المحرِّمة عند الإمام مالك وأبي حنيفة وكثير من الصحابة هي أن قليل الرضاع وكثيره يُحرِّم وإن كان مصّة واحدة.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن ما دون خمس رضعات متفرقات لا يؤثِّر في التحريم.

ولا بدّ أن تكون الرضاعة في الصغر وذلك يكون في السنتين الأوليين من حياة المولود.

فقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الرضاع المؤثِّر في التحريم هو حولان[1] بعد ولادته فلا يحرّم بعد الحولين.

والشريعة الإسلامية انفردت من بين الشرائع القائمة بجعل الرضاع سببًا من أسباب التحريم وذلك لأن المُرضع التي تُرضع الولد إنما تغذيه بجزء من جسمها فتدخل أجزاؤها في تكوينه ويصبح جزءًا منها، وإن الطب يثبت ذلك فإن لبنها خلاصة من دمها يُنبت لحم الطفل ويُقَوِّي عظمه، وإذا كان الطفل جزءًا منها فهي كالأُم من النسب مُحَرَّمة إلى الأبد وبعض من يتصل بها محرَّمات عليه. والرضاعة من غير الأم كانت شائعة في زمن نزول القرآن، أمّا في عصرنا الحاضر فقد استعيض عنه باللبن المحضَّر طبّيًّا من غير لبن الأُمهات عند تعذُّر الأُمّ إرضاعَ وليدِها أو عند وفاتها، وهذا اللبن لا ينشر الحرمة كما ينشره لبن المرضعة. ويتابع القرآن ذكر المحرّمات من الزواج بهن من النساء: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وكذلك حرَّمَ اللهُ عليكم نكاح أمهات زوجاتكم سواء أكنّ أُمهات مباشرات أم جدّات، لأنّ كلمة الأُم تشمل الجدّات ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ﴾ والربائب: جمع

(١) حولان: مثنى حَوْل، وهو السنة القمرية.

ربيبة، والربيبة هي بنت الزوجة من غير زوجها التي تعيش معه، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترمّلت أو طُلّقت بعد أن ولدت بنتًا، فزوج الأُم الجديد سيُدخل هذه الربيبة في كنفه ورعايته وتربيته، **﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾** أي يحرم عليكم نكاح الربيبة إذا نكحتم والدتها وهي حلال لكم إذا لم يحصل منكم نكاح لأمّها وهو المعبَّر عنه بالدخول بأُمها **﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾** فإن لم يدخل الزوج بالأُم فلا تحرم عليه بنتها، بل له أن يتزوجها بعد طلاق أمّها. أما إذا عقد شخص الزواج على البنت فإن أُمها تحرم عليه بمجرد العقد حرمة أبدية وإن لم يدخل بالبنت.

والحكمة في تحريم من سبق هي أنه لو أُبيح للرجل أن يُطلّق الأُم المدخول بها ويتزوج ابنتها أو يُطلّق البنت ويتزوج أُمّها لأدّى ذلك إلى تقطيع الأرحام وإشعال دواعي الغيرة وإثارة العداوة والبغضاء بين الأُمّ والبنت. أمّا في حال التزوج بالبنت بعد الافتراق عن الأُمّ غير المدخول بها، فالأُم لها من الحنان والعطف ما يجعلها تغفر لابنتها تَزَوُّجَها ممن كانت قد عقدت الزواج عليه، لكنّ البنت لا تغفر لأُمها تزوُّجَها ممن كانت قد عقدت الزواج عليه.

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ والحلائل: جمع حليلة وهي الزوجة، أي وحرَّمَ اللهُ عليكم زوجات أبنائكم تحريمًا أبديًّا سواء حصل الدخول ـ أي النكاح ـ أم لم يحصل، ويشمل أيضًا زوجات ابن ابنه وابن بنته، وفي التصريح **﴿مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾** أي من ذريتكم وظهوركم لإخراج زوجات الأبناء بالتبني من التحريم، فإنّ امرأة المتبني ليست حرامًا على من تبنّاه **﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾** أي وحرَّمَ اللهُ عليكم أن تجمعوا بين أُختين في النكاح، كأن تتزوجوا امرأة ثم تضمّوا إليها أُختها بطريق الزواج، كذلك نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمّتها أو العمة على ابنة أخيها أو المرأة

على خالتها، أو الخالة على بنت أختها[1]، والحكمة من تحريم ذلك هو ما يحصل من الجمع بينهما من البغضاء وقطع الأرحام **﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾** أي ما فعلتموه من ذلك فيما مضى فلا تؤاخذون به ولكن بعد النهي عنه يجب التفريق بين الزوجة وأُختها والزوجة وعمّتها أو خالتها إن حصل ذلك **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** إن الله كان ولا يزال عظيم الغفران لذنوب من تاب من عباده، وواسع الرحمة بهم فلا يؤاخذهم إلا بعد عصيانهم له.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

شرح المفردات

والمُحصنات من النساء: أي وحرمت عليكم ذوات الأزواج من النساء ما دمن في عصمة أزواجهن.

كتاب الله عليكم: أي كتب الله عليكم تحريم ما ذكر من النساء.

ما وراء ذلكم: غير ذلك.

مُحصنين: متعففين عن الزنا.

(١) كما جاء في صحيح الترمذي.

غَيرَ مسافحين: غير زانين، والسفاح هو الزنا.

فما استمعتم به: الاستمتاع بالشيء الانتفاع به.

فآتوهن أُجورهن: فأعطوهن مهورهن.

ولا جُناح عليكم: لا إثم ولا حرج عليكم.

ما يحل وما يحرم من الزواج بالنساء

ويتابع القرآن الكريم مبيّنًا الزواج الحلال والحرام من النساء، قال الله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ هذه الجملة من الآية معطوفة على المُحَرَّمات من النساء والمعنى: وحرم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، أي أن زوجة الغير والمعتدّة منه بطلاق أو وفاة لا يجوز عقد الزواج بها قبل انقضاء عدّتها ومفارقة زوجها لها.

والمحصنات: جمع محصنة وهي المرأة التي صانت نفسها عن الفواحش ولذلك تُطلق على العفيفة، وأحيانًا تطلق على المرأة الحُرَّة التي هي خلاف الأَمَة، وتارة على المرأة المسلمة وتارة تطلق على المرأة المتزوجة لأن الأزواج أحصنوهن عن الفاحشة وهي المراد بالآية هنا ﴿**إِلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ ومُلْكُ اليمين يُطلق على الرقيق من عبْدٍ أو أمة، أي ويستثنى من المحرمات ما ملكتم من إماء بسبب السَّبْي عند محاربتكم الكفار فهن حلال لكم نكاحهن بعد البراءة والتأكد من عدم حملهن من أزواجهن الكافرين، ويرى بعض الفقهاء أن نكاح الأمة لا يحلّ إذا استُرقّت مع زوجها ﴿**كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ**﴾ هذا النصّ جاء بعد بيان المحرمات الذي ورد سابقًا، وكتاب يكون مصدر كتب بمعنى: فرض، أي أن تحريم ما ذكر من النساء هو شيء قد فرضه الله عليكم، وقد يكون المراد بالكتاب: القرآن، والمعنى: الْزموا كتابَ اللهِ الذي هو حجة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الذي يُبيِّن لكم الحلال من الحرام.

﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ**﴾ وراء: بمعنى غير، أي وبعد أن حرّم الله عليكم نكاح هؤلاء اللواتي ورد ذكرهن سابقًا، أَحلَّ لكم نكاح سواهن من النساء ﴿**أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ**﴾ من أجل أن تطلبوا الزواج من النساء اللاتي جعلهن الله حلالًا لكم مِن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم كمهور حال كونكم تريدون بذلك العفة وتحصين أنفسكم من الزنا.

﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ أي فما انتفعتم به وتلذّذتم من النساء بالزواج فأعطوهن أُجورهن وهو المهر الذي فرضه الله عليكم ﴿**ولا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ لا حرج ولا إثم ﴿**فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ أي لا إثم فيما حصل به الرضا بين الأزواج والزوجات من إسقاط شيء من المهر أو الإبراء منه عن طيب نفس من الزوجة أو الزيادة عليه كرمًا منكم أيها الأزواج بعد اتفاقكم على المهر الذي فرضتموه على أنفسكم عند عقد الزواج.

﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ فهو سبحانه عليم بما ينفع عباده ويصلح حالهم، حكيم فيما يُشرِّعه لهم من الأحكام التي فيها خيرهم وسعادتهم.

تحريم المتعة

استدلّ فقهاء الشيعة بقوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ**﴾ على إباحة زواج المتعة، وزواج المتعة هو قول الرجل للمرأة: أُعطيكِ كذا على أن أتمتّع بكِ يومًا أو شهرًا أو سنةً أو نحو ذلك، ونكاح المتعة كان مباحًا في أول الإسلام أمدًا قصيرًا ثم حُرِّم.

ولقد أباح النبيّ ﷺ المتعة في صدر الإسلام للضرورة القصوى حينما كان المسلمون الأوائل يضربون في الأرض لنشر دعوة الإسلام فيوغِلون

في أرجائها بعيدًا عن ديارهم وأهاليهم وكانوا حديثي عهدٍ بالجاهلية، وكان لا بُدّ من صقل نفوس أُولئك المسلمين وتهذيبها تدريجيًا حتى يُقلعوا تمامًا عن الفواحش على نحو ما جرى في تحريم الخمر على مراحل. وقد أذن النبيّ ﷺ بالمتعة خلال الغزو حينما كان المحاربون بعيدين عن الأهل والوطن ولشدة شبقهم للنساء، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصي! فنهانا عن ذلك ثم رخّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب[1] إلى أجل[2].

والمتعة كانت رُخصة في أول الإسلام لمن اضطر إليها كرخصة أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر، ثم أحكم الله دين الإسلام ونهى عنها.

والمتعة هي نكاح إلى أجل لا ميراث فيها وفراق المتمتعة يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق.

وقد ذهب جمهور الفقهاء: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة على الصحيح من المذهب إلى حُرمة نكاح المُتعة وبطلان عقده مستدلّين بأدلة منها حديث الربيع بن سبرة الجهني أن أباه حدَّثه أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني قد كُنت أذنت لكم في الاستمتاع مِنَ النساء، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئًا»[3].

وروي عن عليّ ؓ: أنّ رسول الله ﷺ نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحُمر الأهلية زمن خيبر[4].

(١) بالثوب: أي يستمتع بها مقابل ثوب يقدّمه لها.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه مسلم.
(٤) متفق عليه.

وقال الإمام الشافعي: لا أعلم شيئًا حُرّم ثم أبيح ثم حُرّم إلاّ المتعة.

وإباحة المتعة وتحريمها كانا مرتين، فقد كانت حلالًا قبل خيبر ثم حُرِّمت يوم خيبر ثم أُبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس ثم حُرِّمت بعد ثلاثة أيام تحريمًا مؤبّدًا.

والله تعالى أباح في القرآن الزوجة وملْك اليمين ـ أي الرقيقة ـ وحرّم ما دون ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

والمتمتعة أي المستمتَع بها على النحو الذي سبق، بعد هذا النصّ القرآني ليست زوجة ولا ملك يمين فتكون حرامًا بنصّ القرآن.

وعقد الزوجية يترتب عليه صحة الطلاق والإرث والعدّة ووجوب النفقة وهذه كلها في نكاح المتعة مُنتَفية. روى أبو هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «حَرَّمَ ـ أو هَدَمَ ـ المُتعة: النكاح والطلاق والعدّة والميراث»[1] بمعنى أنّ المتعة ترتفع من غير طلاق ولا يجري فيها التوارث بينهما بمعنى أن المتعة لم تكن المرأة فيها زوجة للرجل.

هذا وإنّ النكاح ما شُرع لاقتضاء الشهوة بل شُرع لأغراض ومقاصد يُتوسل إليها كما جاء في القرآن ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، ففي الزواج تسكن الأرواح وتطمئن النفوس في جوٍّ من الود والرحمة، والمتعة تُفضي إلى قضاء الشهوة ولكنها لا تحقق هذه الأُمور كتحقق السكن بين الزوجين، والنسل وتكوين الأُسرة.

(١) أخرجه ابن حِبّان في صحيحه والبيهقي.

ومن الدلائل على عدم إباحة المتعة قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، ولو كانت المتعة جائزة لم يأمر الله تعالى بالاستعفاف لمن لم يجد قدرة على نفقات النكاح.

وليس غرضي في هذه الصفحات القليلة أن أناقش ما ذهب إليه الشيعة في إباحة المتعة فهذا موضوع يطول ليس هنا مكانه، ولكن هناك من أئمة الشيعة من دعا إلى التعفف بشأن المتعة، وهو ما ذهب إليه الدكتور موسى الموسوي[1] حيث يقول في كتابه: (الشيعة والتصحيح)[2] ما يلي: وأسأل الفقهاء الذين يُفتون بجواز المتعة واستحباب العمل بها: هل يرضون شيئًا كهذا لبناتهم وأخواتهم وقريباتهم؟ ويتابع قوله: لقد أراد العالِم الكبير السيد محسن الأمين العاملي أن يدافع عن كلامٍ قريب لِما ذهبتُ إليه بقوله: «إذا كانت المتعة أمرًا مباحًا فلا يلزم أن يفعلها كل أحد، فكم من مباح تُرِكَ تنزّهًا وترفّعًا»[3].

والمتعة انتقاص من كرامة المرأة كما يقول الدكتور موسى الموسوي بعد أن يستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وبنو آدم في الآية الكريمة لفظ يشمل الرجل والمرأة على السواء... فأين يكون موقع المرأة وكرامتها والاحتفاظ بأخلاقها من قانون المتعة؟ إنَّ موقعها من هذا القانون هو الذل والهوان وشأنها كالسلعة التي يستطيع الرجل أن يكدسها واحدة فوق الأخرى وبلا عدّ ولا حدّ... وهل يليق بها أن تقضي أوقاتها بين أحضان الرجال واحدًا بعد الآخر باسم شريعة محمد ﷺ؟

(١) هو حفيد الإمام الأكبر السيد أبو الحسن الموسوي الأصبهاني. حصل على شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة طهران عام ١٩٥٥م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السربون عام ١٩٥٩م، وعمل أستاذًا للاقتصاد في جامعة طهران ١٩٦٠م ـ ١٩٦٢م.

(٢) الشيعة والتصحيح ص ١٥٥.

(٣) الشيعة بين الحقيقة والأوهام ص ٣٥٧.

ويتابع قوله: لقد أراد بعض فقهائنا ـ سامحهم الله ـ أن يصوروا المتعة وكأنها فَضْلٌ مِنَ اللهِ حيث شَرَعَ قانونًا شرعيًّا يمنع الرجل من الوقوع في البغاء، ولكن غاب عن بالهم أن الإسلام ليس دين الرجال فحسب بل أُنزل للناس كافةً بمن فيهم النساء، وأنّ القوانين الإلهية والشرائع السماوية لم تُنَزَّلْ لإرضاء شهوات الناس وإشباع غرائزهم تحت غطاء الشرعيّة والقانون[1].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ
أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ
مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ
بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
(٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾

(١) عن كتاب (الشيعة والتصحيح) ص ١٥١.

شرح المفردات

طَوْلًا: غنى وسعة وقدرة على أداء المهر ونفقات الزواج.

المُحْصنات: جمع محصنة والمراد بها هنا المرأة الحرة خلاف الرقيقة.

ملكت أَيْمانكم: ما تملكون من الرقيق.

فتياتكم المؤمنات: الفتيات، جمع فتاة والمراد بها هنا الأمة.

وآتوهن أُجورهن: وأدّوا إليهن مهورهن.

مُحْصنات: عفيفات.

غير مُسافِحات: غير زانيات.

ولا متخذات أخدان: ولا متخذات صواحب يزنون بهن سرًّا.

أُحْصِنَّ: تزوَّجن.

لمن خَشي العَنَتَ: لمن خاف الإثم والزنى بسبب غلبة الشهوة.

ويهديكم سنن الذين من قبلكم: ويرشدكم إلى طرائق مَن تقدّمكم مِنَ الأنبياء لتسلكوها.

يتوب عليكم: يعود بالمغفرة عليكم ويقبل توبتكم.

أن تميلوا مَيْلًا عظيمًا: تعدلوا عن الحق بارتكاب ما حُرِّم عليكم من المعاصي.

الزواج من الإماء عند الضرورة

كان الرقّ شائعًا في زمن نزول القرآن، وفي ذلك الوقت كان بعض المسلمين يرغب في الزواج من المرأة الحرة، ولكن ما كانوا عليه من الفقر جعلهم يحجمون عن الزواج بها لما يتطلب ذلك من المهر وما يستوجب من نفقات كثيرة وهذا ما كان يعرّضهم للزنا لعدم استطاعتهم تلبية حاجاتهم الجنسية بالحلال، لذا يسّر الإسلام لهؤلاء باب الزواج من الإماء لقلة تكاليف الزواج بهن، يقول الله تعالى: **﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** الطَّوْلُ: أي الغنى والسعة في المال، وهو كناية عما ينفق على المرأة الحرة من المهر والنفقات الزوجية، والمحصنات:

جمع محصنة وهي هنا بمعنى الحرة خلاف الأمَة **﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** ومُلْكُ اليمين: هو ما يَمْلِكُهُ الإنسان من الرقيق سواء كان ذكرًا أو أُنثى، والمراد بقوله تعالى: **﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** أي من إمائكم المؤمنات. ولم يطلق القرآن على الأمة اسم (العبدة) وإنما عبّر عنها باسم الفتاة احترامًا لها وإعزازًا لإنسانيتها، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «لا يَقُولَنَّ، أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقل: فتاي وفتاتي»[1] ومعنى الآية: ومن لم يجد منكم أيها المؤمنون سعة من المال تمكّنه من الزواج بالمرأة الحرة فليتزوج أمةً من الإماء المؤمنات **﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾** فالله سبحانه يعلم حقيقة إيمانكم وأنتم جميعًا تضمّكم إنسانية واحدة وكلكم عبيد لله فلا يظلم بعضكم بعضًا **﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾** فتَزَوَّجوهُنَّ بإذنِ أوليائهن وأسيادهن ورضاهم **﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾** وأدُّوا لهنَّ المهر بما هو متعارف لأمثالهن مما يستحسنه العقل ولا ينكره **﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾** أي تزوجوهن إذا كن عفيفات غير زانيات **﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾** ولا متخذات صواحب يرتكبن الزنا معهم سرًّا.

لقد أمر الله المؤمنين أن يختاروا من الإماء في حال الرغبة في زواجهن من تتحلى بصفة العفَّة، إذ الرق وفقدان الحرية يكون معهما الذل والهوان والطاعة العمياء لأسيادهن، وحيث يكون الذل والهوان تكون الرذيلة أقرب لهن، لذا كان من عدالة الإسلام أن جعل العقوبة لهن في حال اقترافهن الزنا أخفّ من العقوبة على المرأة الحرة كما يبين القرآن فيما يلي:

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ والإحصان هنا بمعنى الزواج، أي فإذا تزوجت الإماء **﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾** أي فإن اقترفن فاحشة الزنا **﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾** والمحصنات هنا المراد بهن النساء الحرائر، والعذاب

(١) أخرجه البخاري وأحمد.

هـو العقوبة التي قدّرها الله على الزناة. والمعنى: وفي حال اقتراف الإماء للزنا فعقوبتهن نصف العقوبة المقدرة على الزوجة الحرة. وقد نصّ الفقهاء على أنّ الأَمَة تُقام عليها العقوبة إذا زنت سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجة[1].

أين هذا السموّ في التشريع السماوي مما كان جاريًا في القانون الروماني حيث كان العبد إذا زنى بالمرأة الحرة قُتل، وإذا زنى الرجل الشريف حُكم عليه بغرامة مالية!

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ ذلك: اسم الإشارة هنا يرجع إلى نكاح الإماء ويكون المعنى: إن الله سبحانه أباح الزواج من الإماء للأشخاص الذين يخافون الوقوع في الزنا باعتبار أنّ نكاح الأمة غير مرغوب فيه، ولذا نصحت الآية بعدها بأنَّ تَرْكَ زواج الإماء أفضل كما قال الله تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وصبركم بالامتناع عن الزواج بالإماء هو خير لكم لأن الولد الذي يولد من الأمة يكون رقيقًا يضاف إلى ذلك أنها مطالبة بخدمة سيدها بجانب واجباتها نحو زوجها، وإنّ في الصبر بالامتناع عن الزنا تهذيبًا للنفس وتهيئة ملكة التقوى فيها بترك اتباع هواها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ والله سبحانه الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم، وغفور: من أبنية المبالغة، أي كثير الغفران لعباده، رحيم بهم لا يعاجلهم بالعقوبة على آثامهم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي يريد الله أن يبيّن لكم أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم وآخرتكم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ويرشدكم إلى الطريقة المثلى التي كانت عليها المجتمعات الفاضلة قبلكم وما جاء به النبيّون من الهدى لتقتدوا بهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ويرجع بكم من معصيته التي كنتم عليها إلى طاعته التي أمركم بها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله سبحانه

(١) في حال زنت الأمة وكانت غير متزوجة تعاقب بخمسين جلدة، أما إذا زنت وهي متزوجة فلا تعاقب بالرجم كما تعاقب المرأة المتزوجة الحرة لأن الرجم لا يتنصف وإنما تعاقب بالجلد.

عليم بمصالح عباده في أمر دينهم ودنياهم حكيم يضع الأمور في مواضعها فيقبل التوبة عن عباده إذا أخلصوا النية وأقلعوا عن الشر.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ والله سبحانه يريد أن يتوب عليكم فيفتح لكم باب التوبة لتُقْبِلوا عليها فمن تاب من ذنوبه غفر الله له وتجاوز عن سيئاته ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ ويريد الذين يتَّبِعُون شهوات أنفسهم من أهل الباطل والفواحش ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أن تميلوا ميلًا كبيرًا عن الحق والاستقامة فتكونوا مثلهم بارتكاب المنكرات.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ فيما يشرّعه لكم من الأحكام التي فيها يُسْرٌ لكم ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أي ضعيفًا أمام رغباته وشهواته وضعيفًا في أمر النساء أمام إغرائهن.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾

شرح المفردات

بالباطل: أي بكل ما حرّمه الله كالربا والقمار والسرقة.

ولا تقتلوا أنفسكم: أي لا يقتل بعضكم بعضًا لأنكم أهل دين واحد فأنتم كنفس واحدة.

عدوانًا: التعدي على الغير مع القصد أو تجاوز الحلال إلى الحرام.

نصليه نارًا: ندخله جهنم ونحرقه بها.

تجتنبوا: الاجتناب هو الابتعاد عن الشيء وتركه جانبًا.

كبائر ما تنهون عنه: كبائر الذنوب التي تعظم عقوبتها.

نكفِّر عنكم سيئاتكم: نمحوها ولا نعاقب عليها، والمراد بالسيئات صغائر الذنوب.

وندخلكم مُدْخلًا كريمًا: وندخلكم مكانًا حسنًا مرضيًّا وهو الجنة.

تحريم أكل أموال الناس بالباطل

وبعد أن بيَّن الله فيما سبق ما يحلّ زواجه من النساء وما يحرم بيَّن في الآية التالية ما يحرم الحصول عليه من الأموال، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ﴾ خاطب الله المؤمنين بصفة الإيمان ترغيبًا وحثًّا لهم على الاستجابة لما يأمرهم به، وبالأخصّ إذا كان الله هو المنادي لهم، أمرهم الله بأن لا يستولوا على أموال الغير بالباطل كالرِّبا والقِمار والسرقة والرَّشْوة والخيانة والتزوير والغشّ إلى غير ذلك من الأساليب التي لا يبيحها شرع الله. والتعبير بقوله تعالى **﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ﴾** بدلًا من قوله: «لا يأكل بعضكم مال بعض» إشعارًا لهم بأنّ مال الفرد هو في نفس الوقت مال الأُمَّة فيجب المحافظة عليه بما يعود نفعه على الأمّة. وعبّر الله عن أخذ أموال الغير بالأكل لأن المقصود الأول من جمع المال هو الأكل.

﴿إلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ ولكن يستثنى من ذلك أخذ الأموال من الغير عن طريق التجارة الناشئة عن التراضي فيما بينكم. وكلمة **﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾** توجز كل النظريات والقوانين التي وضعت في أساليب التجارة التي ينشأ عنها تبادل المنافع وتيسير السلع التجارية، والتراضي في

التجارة أساس العقود عامة وأساس المبادلات المالية خاصة، فلا بيع ولا شراء ما لم يتحقق فيه الرضا.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا فإنَّ قَتْلَ واحدٍ منكم للآخر هو قتل لأنفسكم، وقتلُ نفسٍ بغير حق كقتل الناس جميعًا. أو بمعنى: لا يقتل أحدكم نفسه ـ بأن ينتحر ـ فإنَّ ذلك إثم عظيم. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ تَرَدّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ في نارِ جَهَنَّمَ خالِدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا ومَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدةٍ، فَحَديدته في يده يجأ ـ أي يطعن ـ بها في بطنه في نار جهنم خالِدًا مُخَلَّدًا فيها أبَدًا»[1] **﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾** بما شرعه لكم من الأحكام التي فيها الخير لكم.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلكَ﴾ إشارة إلى المحرَّمات في هذه السورة ومنها أكل مال المسلم أو قتله **﴿عُدْوانًا وَظُلْمًا﴾** والعدوان والظلم بمعنى واحد، وقيل العدوان مجاوزة الحد وما أمر الله به، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه **﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾** فسوف يدخله الله نار جهنم ليقاسي حرّها **﴿وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾** وكان ذلك العذاب على من يتعدى حدود الله ويعصيه سهلًا يسيرًا على الله.

كبائر الذنوب

وبعد أن ذكر الله جملة من المحرَّمات في هذه السورة بيَّن ثواب الذين يَجْتَنبوها بقوله سبحانه:

﴿إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ واجتناب الشيء هو المباعدة عنه وتركه جانبًا، والكبائر: هي ما عظم قبحه من الذنوب وعظم العقاب عليها والمعنى: إن تبتعدوا عن الذنوب الكبيرة التي نهاكم الله عن اقترافها

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ والمراد بالسيئات هنا صغائر الذنوب بدليل مقابلتها بالكبائر وهي ما قلّ فيها الإثم، والمعنى: إذا اجتنبتم كبائر الذنوب نمحو عنكم صغارها ولا نعاقبكم عليها ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي وبالإضافة إلى ذلك فإنّا ندخلكم في الآخرة مُدْخلًا حسنًا كريمًا: هو الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

ولكن ما هي كبائر الذنوب التي أمر الله باجتنابها؟ قيل في تعريفها جملة أقوال نُجملها فيما يلي:

كلُّ ما نهى الله عنه في القرآن أو نَصَّ على تحريمه فهو كبيرة، ويندرج تحته ما نهى الله عنه من أول سورة النساء إلى الآية الثلاثين منها.

وكلُّ شيء عُصِيَ اللهُ به فهو كبيرة.

وكلُّ ما أوعد الله عليه بالعذاب يوم القيامة فهو كبيرة.

وكلُّ ذنبٍ ختمه الله بغضبٍ منه أو لعنةٍ أو عذابٍ بالنار فهو كبيرة.

وكلُّ عمل يقام عليه الحدّ ـ أي العقوبة ـ أو يوصف فاعله بالفسق فهو كبيرة.

وقد ذكرت السنّة النبويّة بعض الأمثلة عن كبائر الذنوب نذكر بعضها، فقد روي عن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات[1]»، قيل: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْر، وقتل النفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنى، والتولّي يوم الزحف[2]، وقذف المحصنات[3] الغافلات المؤمنات»[4].

---

(١) الموبقات: المهلكات.

(٢) التولي يوم الزحف: الفرار من وجه العدوّ عند الالتحام به باستثناء خطة حربية.

(٣) قذف المحصنات: اتهام المؤمنات العفيفات بالزنا زورًا وبهتانًا وإشاعة التهمة بهن.

(٤) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: ذكر لنا رسول الله ﷺ الكبائر فقال: الشرك بالله وعقوق الوالدَيْن[1] وقتل النفس، وقال: ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور، أو قال: شهادة الزور[2].

وروي عن النبي ﷺ قوله: «إنّ من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسبّ الرجل أبا الرجل وأمّه، فيسبّ أباه وأُمّه»[3] والمراد بذلك من يتسبَّب بسبِّ والِدَيْهِ.

هذا بعض ما ذكره النبيّ ﷺ من كبائر الذنوب وهناك ذنوب أُخرى من كبائر الإثم جاء ذكرها في القرآن والسنّة نذكر بعضها فيما يلي:

الزنا وأشده إثمًا الزنا بزوجة الجار ـ اللواط ـ أذى الجار ـ اليمين الغموس[4] ـ القمار ـ شرب الخمر ـ السرقة ـ أخذ مال الغير غصبًا ـ قطع الطرق ـ الكذب على الله وعلى رسوله محمد ﷺ ـ سبّ أصحاب النبي ﷺ أو إحدى زوجاته ـ عدم التناهي عن المنكر ـ الغيبة ـ النميمة ـ الظلم ـ الحلف بالله كذبًا ـ التكبُّر على عباد الله ـ كتمان الشهادة بلا عُذْر ـ تكفير المسلم[5] ـ نقض العهد ـ البغي ـ الطعن بالمسلمين ـ الخيانة ـ الكذب ـ الإضرار بالوصية ـ الغش ـ إيذاء المؤمنين ـ أخذ الرشوة ـ اليأس من رحمة الله ـ إنْقاص الكيل والميزان ـ نسيان الله ـ النفاق ـ عبادة الله رياء ـ قطع الرحم (أي هجر الأقارب).

---

(١) عقوق الوالدين: نكران جميلهما وعدم البرّ بهما.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) اليمين الغموس: أن يحلف بالله على شيء وهو بحلفه كاذب.

(٥) تكفير المسلم: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه» (متفق عليه).

ويقول رسول الله ﷺ: «من رمى مؤمنًا بكفر فهو كقتله» (أخرجه البخاري).

ويقول الإمام الأوزاعي: «لئن نُشِرتُ بالمناشير فلا أقول بتكفير أحد من أهل الشهادتين».

هـذه بعـض كبائر الذنـوب نقتصر علـى ذكرها خوفًا مـن التطويل وهي لـم يحرّمها الله ورسـوله إلا لأنها تؤدي إلـى الإضرار بفاعلها وتُلحق الأذى بالمجتمع.

فالذنـوب منهـا الكبائر والصغائر، فالكبائر هي كما أشـرنا إلى بعضها، وصغائـر الذنـوب هي كالنظرة والقُبلة المحرّمة وغيرهـا مما لم يأت الوعيد على فعلها حيث يرتكبها الشـخص اسـتهانة بها من غير إصرار عليها، وهي التي يمحوها العمل الصالح كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

كمـا أن الله سـبحانه فتح لعباده باب التوبة من الذنـوب صغيرها وكبيرها ووعدهم بغفرانها في حال توبتهم منها ثم إتباعهم التوبة بالعمل الصالح، قال الله تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾
وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

شرح المفردات

تتمنوا: من التمني، وهو التعلُّق والرغبة بحصول أمر في المستقبل.

نصيب: حظّ.

مما اكتسبوا: مما عملوا.

موالي: ورثة.

عقدت أَيمانُكُم: حالفتموهم وعاهدتموهم.

شهيدًا: مطلعًا.

النهي عن تمني ما في أيدي الغير

وبعـد أن نهى الله المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل أمرهم الله في الآية التالية أن يرضوا بما قسم الله لهم من الأرزاق ولا يتمنوا ما أُوتي الغير من الغنى والثراء وغير ذلك قال الله تعالى:

﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ نهى الله المؤمنين عن تمني ما فضّـل الله غيرهم به من جاه ومال وصحة وذرية ومتاع، وفاتهم أن ذلك التفضيل هو قسمة من الله صادرة عن حكمةٍ وعلم منه بأحوال العباد، فعلى كل إنسان أن يرضى بما قَسَمَ الله له على حد قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا...﴾ [الزخرف: ٣٢].

والتمني المنهـي عنـه هو الـذي يجرّ إلى التحاسـد والتباغـض ويجعل النفس فـي قلقٍ دائم واضطراب بسـبب تطلعهـا إلى ما عند الغيـر مما هي محرومة منه، هذا مع العلم أن التمني مقرون عادة بالكسـل ولا يتمنى أحد ما عند الغير إلا عن قصور في همّته وضعف في إيمانه.

﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ولِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ أي للرجال

نصيب من ثواب الله أو عقابه مما اكتسبوا من أعمال عملوها من خيرٍ أو شرٍّ، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال. أو بمعنى: لكل فريق من الرجال والنساء نصيب مما اكتسب في هذه الحياة من مال ومقتنيات مما خصّه الله به من مواهب وقدرة وذلك بما سعى إليه من جد واجتهاد، فعلى كل إنسان أن يكافح في هذه الحياة، ولا يضيّع وقته في التمني الذي لا يُجديه نفعًا مع رجائه بفضل الله وتوفيقه كما جاء في الشطر الثاني من الآية ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ادعوا الله أن يُنْعِمَ عليكم من فضله وخيره ممّا لا يصل إليه كسبكم إما لجهلكم أو لعجزكم، وقد روي عن النبيّ ﷺ قوله: «سَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ فإنه يُحِبُّ أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»[1].

﴿إِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله هو العالم بما يُصلح عباده فيما قَسَمَ لهم من خير فلا تتمنوا غير الذي أعطاكم ولكن عليكم طاعته والتسليم لأمره والرضا بقضائه ثم أمر الله بإعطاء الورثة حقهم من الميراث بقوله:

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ موالي: ورثة. والمعنى: ولكل منكم أيها الناس جعلنا ميراثًا مما تركه الوالدان والأقربون لكم من المال، كلٌّ منكم يرث نصيبه من الميراث بما قدّره الله له ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ والمعاقدة: المحالفة والمعاهدة، والأيمان: جمع يمين وهو القَسَم، وسمي القسَم باليمين وذلك لأنَّ العرب في الجاهلية كانوا إذا تحالفوا وأخذوا العهد على بعضهم بالنصرة والمؤاخاة أخذ كلٌّ منهم بيد صاحبه وأقسموا على هذا العهد، ويقول الرجل لمن عاهده: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسِلْمي سِلْمك، ترثني وأرثك... فيكون لكل واحد من الحليفين السدس في مال الآخر بعد وفاته ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي أعطوهم حظهم من الميراث، وكان هذا الحكم ثابتًا

(1) أخرجه الترمذي.

في الجاهلية وابتداء الإسلام، ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ...﴾ [الأنفال: ٧٥]. أي أن الأقارب أحق بالميراث ممن تحالفتم معهم. ولمّا نسخ الله الميراث لمن تحالفوا معهم جعل الله لهم نصيبًا في الوصية، على أن لا تزيد الوصية عن ثلث ما يتركون من مال بعد وفاتهم ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدًا﴾ أي إن الله عليم بكل شيء من الأشياء، شهيد عليها، مُطّلع على أفعالكم فيعلم منكم الوفاء بالعهد أو عدمه.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

شرح المفردات

قَوّامون على النساء: قوّام، مبالغة من القيام على الأمر بمعنى حفظه ورعايته، أي يقومون على نسائهم قيام الولاة المصلحين على الرعية.

قانتات: مطيعات لله ولأزواجهن.

حافظات للغيب: يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب حفظه في النفس والمال.

نُشُوزَهُنَّ: عصيانهنَّ لكم وترفعهنَّ عن طاعتكم.

واهْجروهن في المضاجع: هو أن يوليها الزوج ظهره في الفراش ولا يكلمها ولا يضاجعها.

فلا تبغوا عليهن: فلا تظلموهن.

شقاق بينهما: اختلافًا بين الزوجين.

تأديب الزوجة المترفعة على زوجها

ثم تنتقل الآيات إلى بيان العلاقة بين الزوج والزوجة وما يترتب على كل واحد منهما من واجبات نحو الآخر مع بيان الخطوات التي يجب أن يسلكها الزوج في حال عصيان زوجته له والترفع عليه، قال الله تعالى:

﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ قوّامون: جمع قوّام، وهي صيغة مبالغة من القيام على الشيء وحفظه، أي أن الرجال يقومون على شؤون النساء بالحفظ والرعاية والنفقة والكسوة والمسكن **﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقوا مِنْ أمْوالِهِم﴾** فحق القوامة مستمَدٌّ من التفوّق الطبيعي في صفات الرجل، ومستمَدّ كذلك من نهوض الرجل بأعباء المعيشة وتكاليف الحياة البيتيّة، فهو أقدر من المرأة على كفاح الحياة ولو كانت مثله في القدرة العقلية والجسدية لأنها تنصرف عن هذا الكفاح قسرًا في فترة الحمل والرضاعة، وهو الكفيل بتدبير معاشها وتوفير الوقت لها في المنزل لتربية الأولاد، وعلى هذا فالتفضيل هو تفضيل جنس على جنس لا تفضيل آحاد، فمن النساء من هن أقوى وأميز من الرجال عقلًا ومعرفة.

ثم شرع الله في تفصيل أحوال النساء فقسَّمهن إلى قسمين: صالحات وغير صالحات فقال في شأن القسم الأول **﴿فَالصَّالِحاتُ قَانِتاتٌ﴾** فالصالحات: هن المحسنات العاملات بالخير ومن صفاتهن أنهن قانتات: أي مطيعات لله ولأزواجهن في غير معصية **﴿حَافِظاتٌ لِلْغَيْبِ﴾** أي

يحفظن الأمور المغيّبة فلا يفشين ما يكون بينهن وبين أزواجهن من أسرار الحياة الزوجية ويحفظن أموالهم ومتاع بيوتهم ويحفظن فروجهن فلا يَخُنَّ أزواجهن **﴿بِمَا حَفِظَ اللهُ﴾** بحفظ الله إياهن ومعونته وتسديده، أو بمعنى: بما لهن من حقوق على أزْواجهن من مَهْرٍ وحُسن معاشرة.

أمّا القسم الثاني فقال سبحانه في شأنهن: **﴿واللاتي تخافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾** ونشوز الزوجة هو عصيانها لزوجها والترفع عليه وإظهار كراهيتها له، وأصل النشوز في اللغة هو ما ارتفع من الأرض. والمعنى: واللاتي تخافون عصيانهن وتعاليهن عليكم ـ أيها الأزواج ـ بما أوجب الله عليهن من طاعتكم. والتعبير القرآني **﴿تَخافُونَ﴾** فيه إشارة إلى أن علاج النشوز يكون لمجرد الخوف من وقوعه ولا ننتظر حتى يقع ويستفحل بل نعالجه عند وقوع بوادره وظهور أماراته حتى لا يصل الخلاف إلى أقصى درجاته وذلك بأن تهجر الزوجة زوجها وتخرج من منزل الزوجية.

ثم قدّم القرآن علاجًا للمرأة الناشزة يقوم على ثلاث مراحل: **﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ في المَضاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾**.

فالمرحلة الأولى **﴿فَعِظُوهُنَّ﴾** والوعظ هو النصح المبني على التذكير بالخير فيما يرقّ له القلب والتخويف من عواقب الخلاف والعصيان. فالزوج يبادر زوجته في هذه المرحلة فينصحها نصحًا رقيقًا يستعمل فيها لباقته ويثير فيها أحاسيس الحب المتبادلة بينهما، ويُذكِّرها بذكرياتهما الجميلة، ويثني بلطف على أخلاقها وأخلاق أُسرتها ويُحذِّرها شماتة الأعداء دون أن يظهر منه مظهر الضعف أو التذلل، ولا مظهر التهديد أو الوعيد، وقد يتكرر هذا الوعظ ويتنوع بما يراه الزوج مُؤَثِّرًا في زوجته، مع الصبر على ما يظهر منها من عنفوان.

وإذا لم يفلح الوعظ مع الزوجة وظلت مستمرة في غيها تأتي المرحلة الثانية **﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ﴾** والهجر مراتب: أدناها يكون الهجر في

موضع النوم بأن يدير لها ظهره ولا يباشرها جنسيًّا ولا يُكَلِّمها، من غير مجافاة ولا مخاصمة ولكن لا يهجر بيته، ولكل حالة نوعها مع الزوجة الناشزة.

والحكمة من الهجر في المضاجع أنها عقوبة نفسية تمسّ المرأة في الصميم، فإنّ أكبر ما تعتزّ به المرأة أنوثتها، وأن ترى زوجها هائمًا بها، شديد الميل إليها فإن وجدت منه ما يدلّ على الانصراف عنها وعدم التأثر بأنوثتها، أحسّت بأنها بدأت تدخل في منطقة الخطر على مستقبلها وأنّ عليها ألا تسترسل في عصيانها، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران في المضاجع ليظهر هذا الموقف السلبي من الرجل في أقصى مداه وهنا يتبيّن وضعها فإن كانت مُحِبَّة للزوج فذلك يشقّ عليها وإن كانت مبغضة فيظهر النشوز منها.

ولكن ينبغي أن يُعلم أن أُسلوب الهجران الزوجي لا يمكن أن يستمرّ طويلًا، فهو إمّا أن يؤدّي إلى الغاية المنشودة منه سريعًا، وإمّا أن يظهر أنه غير مفيد، وهنا تأتي الخطوة الثالثة التي ذكرها القرآن ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ والضرب هو الخطوة الأخيرة التي يلجأ إليها الزوج لإصلاح زوجته، فالمرأة التي لا تؤثر فيها الموعظة ولا الهجر في المضجع هي امرأة غير طبيعية تحتاج إلى تأديب يُرجعها إلى طبيعتها.

وليس معنى إباحة الضرب إذا لم ينفع الوعظ والهجر في المضجع إباحته في كل حالة ومع كل امرأة، فجمهور العلماء قيّدوه بالسلامة من الأضرار لوصيّة رسول الله ﷺ أن يكون الضرب «غير مُبَرِّح» أي غير مؤذٍ، وأن يتجنب الوجه. فقد سأل رجل النبيّ ﷺ: ما حق المرأة على الزوج؟ قال: أن يطعمها إذا طعم، وأن يكسوها إذا اكتسى ولا يضرب الوجه ولا يقبِّحْ[1] ولا يهجر إلا في البيت»[2].

(١) يقبح: لا ينسب شيئًا من أفعالها وأقوالها إلى القبح.
(٢) أخرجه ابن ماجه.

والضرب قيّده العلماء بمن لا يعدّون الضرب في عُرفهم إهانة وأن يراعى فيه المألوف، والناس متفاوتون في ذلك فأهل البدو لا يعدّون ضرب المرأة اعتداء ولا تعدّه النساء عندهم امتهانًا لكرامتهن.

هذا وإنّ الضرب قد ألف الناس أن يؤدّبوا به أولادهم فهل من الحكمة أن تترك المرأة تنساق إلى أهوائها وشهواتها وتُفسد أبناءها وبناتها بتصرفاتها الرعناء وتهدم بيتها أو أن يحاول زوجها إيقافها عند حدّها بلطمة خفيفة تعيد إليها رشدها بعد أن ضاقت كل السبل في إصلاحها، والضرب على علّاته أخفّ وقعًا على المرأة من الطلاق الذي يُبعدها عن بيت الزوجية وأولادها.

كما أنّ هناك بعض النساء من مرضى النفوس وهن قلة يتأدبن بالضرب ولا يتأدبن بغيره، فمنهن من لا تُحسّ قوة الرجل عليها إلا إذا قهرها بقوة جسمه، وهذا الصنف موجود ويحتاج إلى هذا النوع من التأديب.

ورسول الله ﷺ الذي هو قدوة المسلمين تقول عنه عائشة رضي الله عنها: «ما ضَرَبَ رسول الله ﷺ خادمًا له ولا امرأة...»[1] كما أن رسول الله ﷺ قال: «خياركم، خياركم لنسائهم»[2].

كما أن رسول الله ﷺ عاب على الذين يضربون نساءهم لأوهى سبب بقوله: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره، أما يستحي؟»[3].

وبعد أن بيّنت الآيات العلاج للمرأة الناشزة حذّرت الزوج من الاستمرار في إيذائها إذا استجابت له وأطاعته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ البغي: هو الظلم، والمعنى: فإن

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) أخرجه ابن ماجه.
(٣) أخرجه البخاري.

أطاعت الزوجات أزواجهن فلا تظلموهن بأي نوع من الظلم وعاشروهن بالمعروف.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هنا إشارة إلى قوة الله القاهرة فوق عباده، وأنه إذا استعلى الزوج على زوجته وعاملها معاملة منكرة فعليه أن يتذكر بأنّ الله العليّ الكبير هو فوقه، وهو محاسِبه على ما قدّمت يداه بعذاب أليم يوم القيامة.

ثم يبيّن القرآن السبيل إلى الإصلاح بين الزوجين إذا استفحل الخلاف بينهما وأصبحت الحياة الزوجية بينهما على حافة الطلاق، قال تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ والمراد بالخوف هنا العلم، والخطاب لوُلاة الأمر والقُضاة أو صُلَحاء العائلة، والمراد بالشقاق: العداوة والخلاف بين الزوجين وسُمّي شِقاقًا لأن كلاً من الزوج والزوجة قصد شقًّا أي ناحية غير ناحية صاحبه ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي فأرسلوا إليهما حكَمًا من أهل الزوج وحكَمًا من أهل الزوجة لينظرا فيما بينهما من نزاع وشقاق. وقد حمل بعض العلماء ذلك على الاستحباب وقالوا: إذا تعذّر وجود حكَمين من الأقارب جاز للقاضي أن يبعث بحكَمين من الأجانب غير أنهم شددوا على الأقارب لأنهم أعرف بأحوال الزوجين وأشدّ طلبًا للإصلاح من غيرهم ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ أي إن يرد الحكَمان الإصلاح بنيّة سليمة يوفّقهما الله لإصلاح ما بين الزوجين من نفور وعداوة ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هنا وعيد للزوجين وللحكَمين في حال سلوكهما غير طريق الحق، فهو سبحانه عالم بما أراد الحكَمان، خبير بنيّاتهما.

وهكذا نرى القرآن لم يذكر الطلاق كوسيلة لفضّ النزاع والخلاف بين الزوجين حرصًا منه على بقاء الحياة الزوجية، لأن الطلاق فيه خراب البيوت وتشريد الأُسرة والجناية على الأولاد.

وقد اختلف العلماء فيما يتولاه الحكَمان، أيَتولّيان الجمع أو التفريق بين الزوجين بدون إذنهما، أم ليس لهما تنفيذ أمر يتعلق بالزوجين إلا بعد استئذانهما؟ يرى بعض الأئمة أنّ للحكَمين أن يُلْزِما الزوجين بما يريانه بدون إذنهما لأن الله سمّاهما حكَمين، والحكَم هو الذي يحسم الخلاف بما تقتضيه المصلحة سواء رضي المحكوم عليه أم لم يرض، وإلى هذا الرأي اتجه ابن عباس ومالك والأوزاعي وغيرهم، ويرى الشافعية والحنابلة أنه ليس للحكَمين أن يُفرِّقا بين الزوجين إلا برضاهما لأنهما وكيلان للزوجين، ولأن الآية الكريمة قد بيّنت أنّ عملهما هو الإصلاح فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمّتهما لأن الطلاق من حق الزوج وحده ولا يتولاه غيره إلا بالنيابة عنه.

وقال الحنفية: يرفع الحكَمان ما يريدانه إلى القاضي وهو الذي يطلّق طلاقًا بائنًا بناءً على تقريرهما.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

شرح المفردات

وبِذي القُربى: صاحب القرابة من قِبَلِ الأب أو الأمّ ويعبَّر عنهم بالأرحام.

واليتامى: جمع يتيم وهو الصغير الذي مات أبوه ويستمرّ يُتمه إلى البلوغ.

والمساكين: جمع مسكين وهو الفقير الذي يقلّ كسبه عن إيفاء حاجته.

الجار ذي القربى: وهو الذي قَرب جواره منك أو مَن له مع الجوار قُرْب اتصال بنَسب.

الجار الجُنُب: وهو الذي بَعُد جواره عنك أو الجار الذي لا قرابة بينك وبينه.

والصاحب بالجَنْبِ: وهو الرفيق الذي يُصاحبكم في معاهد العلم أو الصناعة أو السفر. وقيل: هي الزوجة.

وابن السَّبيل: هو المسافر الذي انقطع عن ماله فتؤويه وتطعمه حتى يرحل عنك.

مختالًا: هو المتكبر المتعالي على غيره.

فخورًا: هو الذي يزعم لنفسه الفضل على ما سواه ويفخر على عباد الله بما أعطاه الله من نعمته.

دعوة إلى عبادة الله والتكافل الاجتماعي

وبعد أن مرَّ معنا حرص الإسلام على سلامة الأُسرة وتقديم العلاج لكل ما يصيبها من خلاف تأتي الآيات التالية وفيها الدعوة إلى عبادة الله وإقامة التكافل الاجتماعي حرصًا على سلامة المجتمع من كل سوء، قال تعالى:

﴿وَٱعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وعبادة الله هي الخضوع لله تعالى والتذلل له بالطاعة والإخلاص له سبحانه في كل ما يعمل لأجله.

ومن مظاهر عبادة الله: الشكر له على نِعَمه، جاء في القرآن: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، كما أنَّ من مظاهر عبادته

سبحانه التوجّه بالدُّعاء إليه وحده جاء في القرآن: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] ويقول النبيّ ﷺ: «الدعاء مُخّ العبادة»[1].

وعبادة الله تشمل ما شرعه الإسلام من الصلاة، والصيام والحج والصدقات والتي أطلق عليها الفقهاء اسم العبادات، وذروة العبادات هي الصلاة بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال فيها كل معاني الخضوع والثناء على الله.

أمّا قوله تعالى: **﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** فالشرك بالله ليس مقتصرًا على اتخاذ الأصنام والأوثان آلهة من دون الله ولكنّ هناك ألوانًا من الشرك، منها إيثار الشهوات على طاعة الله، جاء في القرآن: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ومن الشرك إيثار حكم الإنسان على حكم الله وتشريعه في التحليل والتحريم.

والشرك بالله كان مصدر شر على البشرية في تاريخها الطويل فهو الذي كبّل عُقول الناس بالخرافات والأساطير وحال دون رقيّهم، وجلب لهم الخصام والنزاع والاقتتال فيما بينهم.

ثم يقرن الله الدعوة إلى عبادته بالإحسان إلى فئةٍ من الناس هم أحقّ بالعطف والرعاية. والإحسان هو مرتبة فوق العَدْل، فإذا تعاملت مع الناس فأخذت منهم حقك وأعطيتهم حقوقهم فقد جريت على سُنَّةِ العَدْل، ولكن إذا تجاوزت هذه المنزلة إلى ما هو فوقها بأن تعطي أكثر مما عليك وتأخذ أقلّ مما لك فإنك تجري على سُنَّةِ الإحْسان، فالإحسان زائد على العَدْل.

---

(١) أخرجه الترمذي.

وأول الناس الذين خصَّهم الله بالإحسان ﴿وبالوالِدَيْن إحْسانًا﴾: والإحسان إلى الوالِدَيْن يكون بالصحبة الكريمة وسَدّ حاجتهما والقول الحسَن، وعدم التململ من حياتهما إن بلغا الكِبَرَ وصارت حياتهما عبئًا على أولادهما.

ثم يلي ذلك الإحسان إلى ﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أي الذين جمعت بينك وبينهم رابطة القرابة والنَّسب من جهة الأب أو الأُم كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، وما تناسل من هؤلاء جميعًا.

ومن الذين خصَّهم الله بالإحسان: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ والإحسان إلى اليتيم يكون بإيوائه والعطف عليه بما يقوم مقام عطف أبيه وسدّ حاجاته، ويسوّي بينه وبين أولاده. وكذلك الإحسان إلى المساكين وهم الفقراء الذين ليس عندهم من المال ما يكفيهم أو لا يجدون عملًا يعملونه أو لا طاقة لهم على عمل لِمَرَضٍ مزمن أو شيخوخة.

ويلي ذلك مَن خصّه الله بالإحسان إلى ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي الجار الذي يتصل بك بصلة الرحم والقرابة، أو الجار القريب المَسْكَن منك ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هو الجار الأجنبيّ الذي لا قرابة بينك وبينه أو الجار البعيد المَسْكَن منك مسلمًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًّا. وقيل: مَن ساكن رجلًا في محلّة أو مدينة فهو جاره.

وحقوق الجار كثيرة منها: أن يبدأه بالسلام ويعوده في المرض، ويُعزّيه في المصيبة ويُهنّئه في الفرح ويَصْفَح عن زلّاته ولا يتطلع إلى عوراته ويستر ما انكشف له منها ويغضّ بصره عن زوجته وبناته ويهتمّ بالإهداء إليه وزيارته وصنع المعروف معه، وإعانته فيما يحتاج إليه من المعونة، وعدم التطاول عليه بالبنيان، وعدم إيذائه بالدخان والمياه الوسخة والأصوات المرتفعة.

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبيّ ﷺ في حق الجار وحُسْنِ معاملته منها:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُورِّثُه»[١].

كما أن رسول الله ﷺ جعل إكرام الجار من علامات الإيمان فقال:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فَلْيُكرِم جاره»[٢].

ويقول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه[٣]»[٤].

كما دعا القرآن إلى الإحسان إلى ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ وهو الرفيق في السفر أو في معاهد العلم أو في التجارة والصناعة وهو الذي يصحبك في ذلك ويكون في جنبك وجوارك. وقيل: هي الزوجة التي تصاحبك. ويتبع ذلك ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله ويكون الإحسان إليه بمساعدته للوصول إلى بلده. وأخيرًا ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وهم الأرقّاء من العبيد والإماء، وقد أوصى القرآن بالإحسان إليهم في وقتٍ كان الرقيق عند أكثر شعوب العالم يُسَخَّر بالأعمال الشاقة بلا رأفة ولا رحمة.

هذا وقد أوْصى رسول الله ﷺ بالأرقّاء بقوله: «هم إخوانكم وخَوَلُكم[٥] جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل،

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري ومسلم.
(٣) بوائقة: جمع بائقة وهي الداهية والشر، والمراد بذلك ألوان الأذى.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) خولكم: الخول هم العبيد والخدم ونحوهم.

وليُلبِسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم»[(١)] ويلحَق بذلك الخدَم.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتالًا فَخُورًا**﴾ نفى الله محبّته ورضاه عن المختال وهو المتكبر، وعن الفخور: وهو الذي يفتخر على الناس ويعدّد مناقبه تكبُّرًا وتطاولًا على مَن دونه، والمختال الفخور يأنف ويترفع عن أقاربه الفقراء وعن جيرانه الضعفاء، وعن المساكين فلا يُحْسِن إليهم ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ»[(٢)] وبطر الحق: ردُّه استخفافًا وترفّعًا، وغَمْطُ الناسِ: احتقارُهم وازْدِراؤهم. فالمتكبر يتخيّل لنفسه من الصفات ما ليس فيه فيستعلي على الناس ولا يقوم بحق النعمة التي أنعمها الله عليه.

ثم يبيّن الله صفات هؤلاء المتكبرين:

﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ**﴾ أي هؤلاء يَبْخَلُونَ بأموالهم فلا ينفقونها في وجوه البرِّ والخير، ولا يكتفون بهذا بل يأمرون غيرهم بالبخل أيضًا، وهذا من مظاهر قسوة قلوبهم وبطرهم بالنعمة التي أنعمها الله عليهم.

﴿**وَيَكْتُمونَ مَا آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ كما أنهم يخفون ما أنعم الله عليهم من فضله حتى لا يطمع الناس في بِرِّهم وإحسانهم. وقيل: المراد بالآية هنا الكلام عن اليهود الذين بخلوا بالعلم الذي آتاهم الله في كتبهم بمجيء نبيٍّ من العرب تنطبق صفاته على النبيّ محمد ﷺ فلم يبيّنوه للناس، لأن هذا النبيّ ﷺ لم يأتِ من اليهود ومن سُلالة أنبيائهم يعقوب وإسحق، بل جاء من سلالة إسماعيل فكتموا ذلك على الناس وأمروا الذين وصل علمهم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه مسلم والترمذي.

بذلك إلى كتمان أمر نبوّته ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِلْكافِرِينَ عَذابًا مُهينًا**﴾ أي وأعدّ الله وهيّأ للكافرين عذابًا يُهينهم ويُذِلُّهم في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾
وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ
اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ
وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ
شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ
تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

شرح المفردات

يُنفقون أموالهم رئاء الناس: أي قاصدين بإنفاقهم الرياء والسُّمعة لا وجه الله تعالى.

قرينًا: صاحبًا.

تُسَوَّى بهم الأرض: بأن يكونوا ترابًا مثلها.

من صفات الكافرين والمنافقين

ويتابع القرآن فيبيّن صفات الكافرين والمنافقين، يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ**﴾ أي هؤلاء يُنفِقُونَ أموالهم حبًّا

بالظهور ومراءاة للناس وطلبًا للثناء منهم، ولا ينفقون أموالهم على المحتاجين ابتغاء وجه الله وهؤلاء ليس لهم من ثواب عند الله على ما أنفقوا. يقول النبيّ ﷺ: «يقول صاحب المال يوم القيامة لربه: ما تركت من شيء تُحب أن يُنفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله تعالى: كذبت إنما أردت أن يُقال جواد فقد قيل»[١] ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي لا يصدّقون بوحدانية الله ولا يصدّقون بوقوع اليوم الآخر - يوم القيامة - وما فيه من ثواب وعقاب، فلو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لقصدوا في إنفاقهم وجه الله ومرضاته وحده.

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ والشيطان هو ما يوسوس للإنسان ويغريه باقتراف المعاصي، والقرين: هو الصاحب الملازم للإنسان والمعنى: أنّ مقارنة الشيطان ومخالطته هي التي دفعت هؤلاء إلى البخل والمراءاة في الإنفاق وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له صاحبًا ملازمًا له، فبئس هذا الصاحب لأنه يُضِلُّه ويقوده إلى الهلاك.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ الاستفهام هنا للتعجب والإنكار، والمعنى: وأيُّ شيء على هؤلاء المشركين والمنافقين وأيُّ ضرر يصيبهم لو أنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ابتغاء مرضاته؟ إنهم لو فعلوا ذلك لكان لهم ثواب يوم القيامة ﴿وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ فالله يخبر الناس بأنه مطّلع على أعمالهم وسيحاسبهم على ما فعلوه في دنياهم، وهنا تهديد ووعيد للذين يُعرِضون عن منهج الله وهديه.

ثم يبيِّن القرآن عدالة الله في خلقه:

(١) أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المثقال: هو المقدار الذي له ثقل، والمعنى: إن الله لا يبخس الناس حقهم من الأجر ولا يظلمهم قليلًا ولا كثيرًا ولو كان وزن ذرة بل يجازيهم على السيِّئة ويثيبهم على الحسنة ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ أي وإنّ من مقتضيات رحمته أن لا يجزي على السيئة إلا بمثلها وأن يضاعف ثواب الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ويعط الله من عنده لمن رجحت حسناته على سيئاته عطاءً جزيلًا وهو الجنة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي فكيف يكون حال المشركين والمنافقين يوم القيامة إذ يؤتى بنبيٍّ كل أُمة يشهد على قومه بما ارتكبوه من سيئات. فما من أُمَّةٍ إلّا ولها نبيٌّ يشهد عليها، فأعمال كل أُمَّةٍ تُعرَض على نبيها فمن شهد لهم نبيهم بأنهم استجابوا لدعوته فهم النَّاجون. وشهادة النبيّ على قومه جعلها الله حجة عليهم ليكون ذلك على المسيء أبلغ والتبكيت له أعظم وحسرته أشدّ ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي جئنا بك يا محمد شهيدًا على هؤلاء الأنبياء بأنهم بلّغوا رسالة الله ولم يقصّروا في نصح قومهم، وقد يكون المعنى: بأنّ محمدًا يكون شهيدًا على قومه بأنه بلّغهم ما أمره الله بتبليغه، فشهادة النبيّ محمد ﷺ تشمل شهادته على قومه وشهادته على الأنبياء السابقين.

وكان النبيّ ﷺ يَسْتَعْظِمُ أمر هذه الشهادة فقد جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قلتُ: يا رسول الله أَقْرأُ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم فإني أُحب ان أسمعه من غيري، فقرأتُ سورة النساء حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فقال: أَمْسِك، وفي رواية «حَسْبُكَ الآنَ» فإذا عيناه

تَذْرفان»[١] وكأنّ النبيّ ﷺ لفرط إيمانه بالله وتخوّفه من يوم الحساب استعظم تلك الشهادة التي وُضعت في عنقه فسالت عبرات عينيه.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ﴾ في ذلك اليوم ـ أي يوم القيامة ـ يتمنى الذين كفروا لو يُسَوِّي الله بهم الأرض، أي يجعلهم والأرض سواء، أو بمعنى أن تواريهم الأرض وتبتلعهم **﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾** وحالهم إذ ذاك أنهم لا يستطيعون أن يخفوا عن الله شيئًا مما فعلوا في دنياهم ولا يستطيعون كتمانه حيث تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يقترفون من آثام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾

شرح المفردات

عابري سبيل: عابرين المسجد من جانبٍ إلى جانب.
الغائط: المكان المنخفض من الأرض وكانوا يقصدونه لقضاء الحاجة.
لامستم النساء: اتصلتم بهن جنسيًا، أو لمستم بشرتهن.
صعيدًا: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن.
طيبًا: طاهرًا من النجاسة.

(١) متفق عليه.

حقوق الصلاة وكيفية التيمم

ثـم ينتقـل القرآن إلى الكلام عن الصلاة وآدابها وما يجب في حقها من أُمور، ومن روعة التشـريع الإسلامي في القرآن أنه أمر المؤمن بأداء الصلاة وهو على أحسن حالة من الوعي والراحة النفسية، لذا حرّم الإسلام الصلاة على السكران بقوله: **﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُم سُكارَى﴾** والسـبب فـي ذلك هو أنّ المطلوب من المصلي الإقبال على الله بقلبه وأن يخلو ذهنه وشعوره من كل ما يشوّش عليه من نوم واحتقان وجوع وكل ما يشـغل البـال، ولهذا يقول النبيّ ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهـو يصلّي فليرقد حتـى يذهـب عنه النـوم، فإنّ أحدكـم إذا صلّـى وهو ناعس لا يـدري لعله يستغفر فيسب نفسه»[١].

ويقول: «إذا حضر العشاء وأُقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء»[٢].

ثـم بيَّن القـرآن الحكمة من منع الصلاة في حالة السـكر بقوله: **﴿حَتَّى تَعْلَمُـوا مَا تَقُولُـونَ﴾** لأن الصلاة فيها مناجاة للخالق وتقديسـه والثناء عليه وطلب الهداية منه مع الخشـوع والشـعور بجلاله. كما أن في الصلاة تلاوة سـورة الفاتحـة وآيـات مـن القـرآن والتدبر بمعانيهـا، وأيّ صـلاةٍ تحصـل للسكران؟ وأيّ عبادة منه تكون لخالقه وهو في تلك الحالة المزرية؟

وقد رُوي في أسباب نزول الآية أنّ عبد الرحمن بن عوف صنع طعامًا وشـرابًا فدعا نفرًا من أصحاب النبيّ ﷺ فصلّى بهم المغرب وهو سـكران فقرأ «قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، وأنا عابد مـا عبدتـم لكم دينكم ولي ديـن» فأنزل الله **﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِيـنَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارَىٰ...﴾**.

(١) أخرجه البخاري.
(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي.

وبعد هذا النهي عن أن يقرب المسلمون الصلاة وهم سكارى، حرص المسلمون على أن يكون السكر في غير أوقات الصلاة، وبما أن أوقات الصلاة متقاربة كان ذلك داعيًا لهم لامتناعهم عن شرب الخمر أثناء النهار ومزاولتهم شرب الخمر بعد صلاة العشاء وهذا تحريم للخمرة على سبيل التدرج، ثم حرَّم الله الخمرة بعد ذلك تحريمًا قاطعًا كما جاء في سورة المائدة.

﴿وَلاَ جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ والجُنُب هو من جامع امرأته ولم يغتسل أو حصلت له الجنابة بسبب الاحتلام أو الحيض أو النفاس، ومعنى عابر سبيل هو الذي يمرّ بالمسجد لحاجة ولا يمكنه الوصول إلى حاجته إلا إذا مرّ به.

وقد كانت بيوت بعض الصحابة تجاور المسجد ولا ينفذون إلى الطريق إلاّ منه والمراد بقوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي مُنع الجُنب من المكوث في المسجد باستثناء عابر سبيل، فعليه الاغتسال حتى تزول الجنابة.

وقال أحمد وإسحاق في الجُنُب: إذا توضَّأ لا بأس في أن يجلس في المسجد، ولكن الوضوء لا يرفع حدث الجنابة ولا يصح له الصلاة حينئذٍ.

والاغتسال تعميم الجسد كله بالماء مع تدليكه وهو طهارة حسية وتنشيط للبدن بعد أن أصابه الجهد والشعور باللذة أثناء مزاولته للجنس وما يعقب ذلك من فتور، ويُمْنع الجُنُب من قراءة القرآن غالبًا إلا الآيات اليسيرة للتعوذ.

ثم يبيّن القرآن كيفية الطهارة عند انعدام الماء أو الضرر من استعماله:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مرضى: جمع مريض، والمريض هنا هو الذي يضرّه استعمال الماء أو يزيده ضررًا فإن الله يُرَخِّص لهذا المريض أن يتيمم بدل أن يتوضأ أو يغتسل. ومثل حال المرض ما إذا كان الماء باردًا بردًا شديدًا ولا يوجد لدى المتوضئ ما يدفئ به الماء ليتقي ضرره فإنه يسوغ له التيمم، وقد أقرّ النبيّ ﷺ ذلك فقد رويَ عن عَمرو بن العاص أنه قال: «احْتلمتُ في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فَأَشْفَقْتُ إنِ اغتسلتُ أن أَهْلَكَ فتيمّمتُ ثم صلّيتُ بأصحابي الصبحَ، فذكروا ذلك للنبيّ ﷺ فقال النبيّ: «يا عَمْرو، صلّيت بأصحابك وأنت جُنُب» فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك النبيّ ﷺ ولم يقل شيئًا»[١] بمعنى أنه أباح ذلك.

كما يباح التيمم إذا كان استعمال الماء يؤدي إلى الضرر فقد رُوي عن جابر قال: «خرجنا في سَفَرٍ فأصاب رجلًا منا حجر فشجَّه في رأسه. ثم احتلم فسأل أصحابَه فقال: هل تجدون لي رُخْصَةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رُخْصَةً وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فماتَ! فلمّا قدِمنا على النبيّ ﷺ أُخبر بذلك فقال: قَتَلُوهُ، قتلهم الله، ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإن شفاء العيّ[٢] السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده»[٣].

﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ والسفر عادة يَقِلُّ فيه الماء فإذا لم يجد المسلم، أو كان ما معه من الماء لا يكفي إلا للشرب فيباح له التيمم.

(١) أخرجه أبو داود.
(٢) العي: الجهل وعدم الاهتداء لوجه.
(٣) أخرجه أبو داود.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الْغَائِطِ﴾ والغائط: هو المنخفض من الأرض، وكانوا يتبرّزون هناك ويقضون حاجتهم ليغيبوا عن أعين الناس، وهذا التعبير من الكنايات اللطيفة التي اختص بها القرآن.

﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ كناية عن الدخول بهن ـ أي الجماع ـ حيث يجب الغسل. وقد جوّز الإمام الشافعي الجمع بين الحقيقة والمجاز فلم يمنع أن يراد باللمس معناه الحقيقي وهو مس بشرة الجسم ـ أي سطح الجلد ـ ومعناه المجازي وهو الدخول بالمرأة، لذا ينقض الوضوء عنده لمس امرأة ليست ذات رَحِمٍ مَحْرَمٍ كالعمّة والخالة مثلًا، ما دامت قد بلغت البلوغ الطبيعي.

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التيمم: معناه القصد، والصعيد: وجه الأرض كان عليه تراب أو لم يكن[1]، ومعنى طيبًا: أي طاهرًا. والمعنى: وإذا انعدم وجود الماء فاقصدوا وجه الأرض الطاهرة للتيمم به.

وكيفية التيمم بيّنته الآية: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي أن الواجب في التيمم هو مسح الوجه كله ومسح اليدين ظهرًا وباطنًا إلى المِرفقين، وأن التيمم يحصل من ضربتين على صعيد الأرض إحداهما للوجه والأخرى لليدين. هذا ما ذهب إليه أكثر العلماء. وينقض التيمم ما ينقض الوضوء كما ينقضه وجود الماء والقدرة على استعماله بدون ضرر.

والتيمم هو تقرير لزوم الطهارة وتقرير حرمة الصلاة والأمر فيه تعبدي، وهو المحافظة على عادة الوضوء، وإشعار للمؤمنين بأنهم متطهرين، وهو رمز لخلوص القلب وصفاء النفس بالاتجاه إلى الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ عفوًا عن ذنوب عباده ساترًا لخطاياهم.

---

(١) قال الشافعي: لا يقع الصعيد إلّا على تراب ذي غبار، واشترط الشافعي أن يعلق التراب باليد ويتيمم به، وقالت طائفة من الأئمة: التيمم يكون بوجه الأرض ترابًا كان أو رملًا أو حجارة أو معدنًا، وهذا ما ذهب إليه الإمام مالك والإمام أبو حنيفة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ
وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ
عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ
وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

شرح المفردات

أُوتوا نصيبًا من الكتاب: أُعطوا حظًّا أو جزءًا من التوارة.

يشترون الضلالة: تركوا الهدى وتمسكوا بالضلالة.

السبيل: الطريق القويم.

هادوا: أي اليهود.

راعِنا: ظاهرها بمعنى المراعاة وكان اليهود يقصدون بها الذمّ نسبة إلى الرعونة.

ليًّا بألسنتهم: صرفًا للكلام عن ظاهره ونهجه.

وانظُرنَا: انتظرنا وأمهلنا حتى نسمع قولك فنفهم.

ضلال اليهود

وبعد أن أرشد الله عباده المؤمنين إلى كثيرٍ من الأحكام الشرعية وحذّر من يخالفها بالعقاب الشديد جاءت الآيات التالية وفيها التعجب من حال اليهود

الذين غيّروا أحكام دينهم وحرّفوا التوراة وأرادوا إضلال المسلمين عن دينهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ﴾ أَلَمْ تر: أي أَلَمْ ينته علمك إلى هؤلاء اليهود، والمراد العلم اليقيني لأنه يشبه الرؤية. وهذه العبارة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تُذْكَرُ للتعجب أي أنّ حال اليهود بلغ من الضلال بحيث يُتعجب منه. والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أحْبار اليهود، والنصيب: هو الحَظّ، والمراد بالكتاب: التوراة.

فاليهود أُوتوا مقدارًا من التوراة ولم يؤتوا التوراة كلها لأن الأحداث التي توالت عليهم من غارات التتار ومظالم الرومان أَدّت إلى ضياع بعض أجزائها وانقطاع سندها عن التوراة التي أنزلها الله على موسى، ولذا فهم قد وصل إليهم بعض التوراة وهذا البعض لم يعملوا به، بل حرّفوه وبدّلوه وفسّروه حسب أهوائهم.

﴿يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ﴾ وهؤلاء اليهود يختارون الضلالة على الهدى ويتركون ما أوتوه من الهداية ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ وهم لم يكتفوا بما جنوه على أنفسهم من اختيارهم الضلالة بل أرادوا أن تضلوا أنتم أيها المسلمون السبيل، والسبيل: هو الطريق المستقيم الذي هو سبيل الحق.

واختيار اليهود للضلالة هو جحودهم ما يعرفون من العلم بنبوّة محمد ﷺ وكون رسالته حقًّا وصِدْقًا إلى تكذيبه وإنكار نبوته ومحاربته.

كما أنّ اختيارهم للضلالة هو بذل أموالهم في سبيل إضلال أهل الإيمان، وما زال هذا اللون من الضلال سبيلًا من سُبُل اليهود في العالم. ففي أمريكا وأُوروبا يجمعون الأموال بالملايين من أفراد الشعوب وحكوماتهم وتوضع تحت تصرُّف الدولة العبرية كي تحارب الإسلام وتقضي على شعوبه، وهذه الأموال التي جمعوها تُحوَّلُ إلى جهود مادية وإلى كتب تؤلَّف وإلى إذاعات تذاع وإلى صحف تَدُسُّ الطعن والأكاذيب في سبيل التنفير من الإسلام.

ويتابع القرآن مخاطبة المؤمنين بقوله: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ﴾ والله أعلم بأعدائكم منكم ـ أيها المؤمنون ـ فأحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم لأنهم يريدون لكم الخذلان والضلال ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا﴾ أي يتولى أموركم وينفعكم بما شاء ﴿وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا﴾ أي يدفع عنكم مكرهم وشرّهم فاكْتَفوا بولايته ونُصرته ولا تُبالوا بهم، وفي ذلك وعد للمؤمنين بالنصر عليهم ووعيد لأعدائهم بالخذلان والذل. والملفت للنظر أنه سبحانه لم يقل وكفى بالله وليًّا ونصيرًا بل كرر لفظ (كفى) للتأكيد والمبالغة وليكون التكرار أشدّ تأثيرًا في القلب لإلقاء الطمأنينة في قلوب المؤمنين.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ هادوا: هم اليهود، أي فريق من اليهود يحرّفون أحكام التوراة، والتحريف: الإمالة والإزالة، أي يميلون كلام التوراة عن مواضعها ويجعلون مكانه غيره أو يتأولونه على غير تأويله ﴿وَيَقُولُونَ﴾ للنبي: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك وعصينا أمرك، كما كانوا يخاطبون النبيّ ﷺ بقولهم: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهذه الجملة تحتمل معنى الشر ومعنى الخير، موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير للنبيّ ﷺ مع أنهم لا يريدون له إلّا الشرّ. ففي معنى الخير: اسمع مِنّا غير مُسْمَع كلامًا تكرهه. وفي معنى الشرّ: هو دعاء على النبيّ ﷺ بأن يُصاب بالصمم فلا يسمع خيرًا قط وهو ما كان يقصده اليهود من قولهم هذا. كما كان اليهود يقولون للنبيّ أيضًا ﴿وَرَاعِنَا﴾ وهي كلمة ذات معنيين: تحتمل معنى الخير: أي راعِنَا سمعك وأصغِ إلينا حتى نفهمك وتفهم عنا. كما تحتمل معنى الشر وهي رميٌ للنبيّ بالرعونة والحمق، لذا كان اليهود يُظهرون للنبي التوقير والاحترام ويضمرون له الإهانة والاستهزاء. وكانت غايتهم من ذلك: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ أي صرفًا للكلام عن ظاهره ونهجه إلى المكروه من معناه للطعن في الإسلام.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي لو أنهم عندما سمعوا شيئًا من أوامر الله ونواهيه قالوا: سمعنا وأطعنا ﴿وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا﴾ وأسمع إجابتنا دعوة الحق وانظر إلينا نظرة إقبال وعطف ورعاية ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ لكان خيرًا لهم عند الله - مما قالوه سالفًا - ولكان أعدل وأصوب.

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي ولكنهم لم يفعلوا ما ينبغي من الحق والصواب لأنّ الله طردهم من رحمته بسبب كفرهم وعصيانهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ولكنّ الله بعدله وحكمته لا ينفي عنهم الإيمان نفيًا مطلقًا بل يقرر أن منهم من يؤمن ولكن عددهم قليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم
مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ
كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن
يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

شرح المفردات

نَطمس: الطمس هو استئصال أثر الشيء والإزالة.

أدبارها: جمع الدُّبُر، وهو الظهر والقفا.

أصحاب السبت: هم اليهود المتمردون على أوامر الله بالصيد يوم السبت بعد أن نهاهم الله عن الصيد فيه.

افترى: اختلق وارتكب.

يُزَكُّون أنفسهم: التزكية هي مدح الإنسان نفسه بالصلاح.

فتيلًا: الخيط الذي يُبطِّن نواة التمر والمراد: لا يُظلمون أدنى ظلم.

مبينًا: ظاهرًا واضحًا.

إنذارٌ لليهود وإثم الشرك بالله

وبعد أن ندَّد اللهُ بسلوك اليهود وبيَّن ضلالهم ومحاولتهم إضلال المؤمنين دعاهم في الآيات التالية إلى الإيمان بنبوّة محمد ﷺ وما أُنزل عليه من القرآن منذرًا إياهم بأشدّ العذاب في حال استمرار محاربته، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ آمِنُوا بَمَا نَزَّلنا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُم﴾ ناداهم الله بوصف كونهم أهل كتاب إلٰهيّ وهو التوراة ليحملهم على ترك ما هم عليه من إنكار نُبُوَّة محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن، فإنّ كونهم أهل كتاب إلٰهيّ يقتضي مسارعتهم إلى التصديق بنبوّة محمد وبالقرآن الذي أُنزل عليه بناءً على ما فيه من الدلائل والبراهين على أنه وحي إلٰهيّ، فهو مصدِّق لما معهم من التوراة وموافق لها في أُصول الدين وسيرة الأنبياء والآداب ومصحِّحٌ لما طرأ عليها من الإضافات الغريبة التي أُلصقت بها والتي تنافي هدى الله. ثم ينذرهم الله بسوء العاقبة في حال رَفْضِهم دعوة الإسلام.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِها﴾ هذا النص القرآني ذهب المفسرون فيه جملة تأويلات:

منها: من قبل أن نمحو وجوهكم فنذهب بالأنف والفم والعين فتصير وجوهكم على هيئة مؤخر الرأس.

ومنها: من قبل أن نُضِلّكم إضلالًا لا تهتدون بعده.

ومنها: من قبل أن نمحو آثاركم في الحجاز ونردّكم على أدباركم إلى البلاد التي جئتم منها ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ اللعن: الطرد من رحمة الله وإنزال العذاب. وأصحاب السبت هم قوم من اليهود حرّم الله عليهم الصيد في يوم السبت لينصرفوا للعبادة وكانت قريتهم تطلّ على البحر فاختبرهم الله بأن جعل الحيتان تأتي يوم السبت ظاهرةً على الشاطئ وهو اليوم الذي ينقطعون فيه عن العمل للعبادة ولا تأتيهم في اليوم الذي يعملون فيه وكان ذلك اختبارًا لهم، فتحايلوا على استحلال ما حرّمه الله بحِيَل يحصلون بها على الصيد في هذا اليوم وعصوا ربهم، فلعنهم الله ومسخهم قردة ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ وقد ثبت وتقرر أن أمر الله فيما يخبر به مقدّر وواقع لا محالة وقد تحقق ما أنذر الله به اليهود المعاصرين للنبيّ محمد ﷺ الذين ناوأوه وحاربوه فقتل المسلمون الكثير منهم وأجلوا الباقين عن جزيرة العرب تاركين أموالهم وممتلكاتهم في أيدي المسلمين.

ثم يبيّن القرآن مبلغ الإثم الذي يلحق من يقول إن لله شريكًا:

﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ إنّ الله لا يغفر ذنوب من مات مشركًا بالله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ويغفر ما سوى ذلك من سائر الذنوب لمن يشاء من عباده أن يغفر له. وفي الآية دليل على أنّ من اقترف كبيرة من كبائر الإثم إذا مات من غير توبة فإنه في خطر المشيئة الإلٰهية إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة بفضله وكرمه وإن شاء الله عذّبه بالنار على قدْر معصيته ثم أدخله الجنة برحمته وإحسانه ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ ومن يجعل مع الله شريكًا ﴿فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي بهذا الشرك يكون قد افترى، والمفتري هو الكاذب، لأنه عندما يعتقد بأن لله شريكًا يكون قد اختلق كذبًا وارتكب إثمًا كبيرًا لا يُغفر له إن مات عليه، والشرك قسمان: أحدهما شرك

في الألُوهية وهو اتخاذ شريك مع الله وله سلطة وتدبير في الكون وهذا ما نفاه الله عنه بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٢، ٣].

والثاني: شرك في الربوبية، وهو جعل سلطة التشريع وتبيان أحكام الحلال والحرام، للأحْبار والرهبان الذين غيّروا وبدّلوا في كتاب الله، زاعمين أنهم لا يتكلمون إلا عن الله وإن كان كتاب الله يخالف قولهم وهو ما أشار الله إليه بقوله:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وقد فسّر النبيّ ﷺ اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا بطاعتهم لهم واتباعهم في أحكام الحلال والحرام.

كما أن إطلاق لفظ الألُوهية على المسيح عليه السلام هو شرك بالله وكفر به جاء في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ...﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك بالله هو وليد الجهل والوهم فهو يجلب من المساوئ للمجتمع الإنساني ما لا تجلبه عقيدة أخرى، ونراه بجانب مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان خاضعة لقبول كل الأوهام والخرافات والأساطير، وكثيرًا ما خالط الشرك شرائع الله بسبب ما روّجه المبتدعون من خرافات، فشوّهوا بذلك سُموّ الدين ومهّدوا السبيل للطعن فيه من قِبَلِ الملحدين.

يقول صاحب تفسير المنار الشيخ رشيد رضا: أمّا الحكمة في عدم مغفرة الشرك فهي أنّ الدين إنما شُرِعَ لتزكية نفوس الناس وتطهير أرواحهم وترقية عقولهم، والشرك بالله هو منتهى ما تهبط إليه عقول البشر وأفكارهم ونفوسهم، ومنه تتولد جميع الرذائل والخسائس التي تفسد البشر... لأنه عبارة عن رفعهم لأفراد منهم أو لبعض المخلوقات التي هي دونهم أو مثلهم إلى مرتبة يقدّسونها ويخضعون لها ويذلّون، بدافع الشعور بأنها ذات سلطة عُلْيا فوق سنن الكون وأسبابه... وهذا ما سبّب استبداد رؤساء الدين والدنيا بالأقوام والأُمم واستعبادهم إياهم... وناهيك بما كان لذلك من الأخلاق السافلة والرذائل الفاشية من الذل والمهانة والدناءة والتملك والكذب والنفاق وغير ذلك...

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ والتزكية هنا عبارة عن مدح الإنسان نفسه بالصلاح والدين، وقد نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. وقالوا ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]. وتزكية اليهود والنصارى هي أنهم يصفون أنفسهم بالطهارة والصلاح وأنهم يسلكون سبيل الهداية والتقوى. والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتعجب من أحوالهم حيث بالغوا في مدح أنفسهم مع أن الكثير منهم كاذبون لا يستحقون هذا المدح.

﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي أن الله سبحانه هو الذي يعلم من يستحقّ التزكية والمدح من عباده ممن لا يستحقّهما، فليدَعِ الناسُ تزكية أنفسهم ويُفوِّضوا أمر ذلك إلى الله فإن تزكيتهم لأنفسهم ليست سوى دعاوى فاسدة تنبع من محبة النفس وطلب العلوّ والترفع عن الناس والتفاخر على من سواهم.

فتزكية الله لإنسان ما، هي التي يُعتدّ بها لأنه سبحانه هو العالم بما ينطوي عليه قلب الإنسان من خير أو شرّ وما يصدر عنه مِنْ أفعالٍ حسنة أو سيئة لذا جاء في القرآن: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا ينقص من ثواب أحَدٍ شيئًا وإن قلَّ ولو كان بقدر الفتيل: وهو الخيط الذي يكون في شق نواة التمر ويُضرب به المَثَلُ في القلة.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ أي انظر كيف يُكذبون على الله بتزكيتهم أنفسهم ويزعمون أن لهم امتيازًا على غيرهم من الناس ﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ أي كفاهم بهذا الادعاء أن يكون إثْمًا ظاهرًا واضحًا، فالله لا يخص شعبًا بامتياز خاص، بل إن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

شرح المفردات

الجبت: هو كل ما عُبد من دون الله واستعمل في الساحر والصنم والشيطان.

الطاغوت: هو الشيطان وكل صارف عن طريق الخير.

نقيرًا: النقير هو النقطة التي تكون على ظهر النواة.

صَدَّ عنه: أعرض عنه.

كفر اليهود وضلالهم

قبل أن نشرع في تفسير هذه الآيات التي نزلت في اليهود نُمهِّد لذلك بذكر أسباب نزولها، ومفادها أن يهود بني النضير لمّا أجْلاهم رسول الله عن يثرب عزم نفرٌ من أشرافهم منهم سلاَّم بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحُيَيّ بن أخطب أن يُؤَلِّبوا ويحرّضوا الأحْزاب على حرب المسلمين، فخرجوا حتى قدِموا على قبيلة قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممّن اتبعه، قالوا ذلك وهم يعلمون أنهم كاذبون، وإنما حملهم على ذلك حسدُهم للنبيّ محمد وأصحابِه.

هنا نزلت الآيات تعيب على اليهود تفضيلهم المشركين عبَدة الأصنام على دين محمد الذي جاء بوحدانية الله ومحاسن الأعمال، يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾ أي ألَم تنظر أيها النبيّ وتَعْجب من حال هؤلاء اليهود؟ الذين أُعطوا حظًّا من الكتاب وهو التوراة، فإن نيلهم أقلّ قدر من علم التوراة ينافي تفضيلهم عبدة الأوثان على النبيّ محمد المرسل من عند الله ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ والجِبْتُ يقال لكل ما عُبِدَ من دون الله وسُمِّيَ الساحر والكاهن والصنم جِبْتًا ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ ويؤمنون بالطاغوت وهو الشيطان وكل صارف عن طريق الخير وعن كل معبود من دون الله.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي ويقول هؤلاء اليهود للذين كفروا وهم مشركو مكة إنهم أقوم طريقًا وأحسن دينًا من الذين آمنوا من أتباع محمد، والعجب من شأن اليهود وهم أهل كتاب أن يدفعهم الهوى والتعصب إلى أن يجعلوا كفار قريش وهم عبدة الأصنام أهدى طريقًا من الذين يعبدون الله وحده ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي هؤلاء اليهود الذين فضّلوا دين المشركين على دين محمد طردهم الله وأبعدهم عن رحمته ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ ومن يطرده الله من رحمته فلن تجد له ناصرًا ينصره من عقوبة الله إن حلّت به، ولن تجد له من يدفع عنه ما نزل به من عذاب الله وسخطه.

هذا الموقف المخزي الذي وقفه اليهود من صاحب الدعوة الإسلامية سيّدنا محمد ﷺ استنكره المؤرخ اليهودي إسرائيل ولفنسون حيث قال:

«... والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء إنما تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بني قريش الوثنيين حيث فضَّل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية... فكان من الواجب ألّا يتورط اليهود في مثل هذا الخطأ الفاحش وألّا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأنّ عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم لأنّ بني إسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم... هذا فضلًا عن أنهم بالْتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة...»[1].

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٤٢.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ هنا استفهام إنكاري حُكمه حكم النفي أي ليس لهم نصيب من الملك حتى يكون لهم الحق في الإعطاء والمنع والحكم بين الناس ﴿فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لو أُعطوا نصيبًا من الملك على سبيل الفرض فإنهم لشدّة حرصهم وبخلهم لا يعطون الناس أيَّ قدر من حقوقهم ولو كان ضئيلًا جدًّا، وقد وصف الله هذا القدر من الضآلة بالنقير: وهو النقطة التي تكون على ظهر النواة ويُضرب بها المَثَلُ في القلة والحقارة.

ثم بيّن الله أنَّ سرّ تماديهم في الضلال يرجع إلى الحسد:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ والحسد هو الألم الشديد لِما يصيب الناس من خير وتمني زواله، وأنّ من يحسد الناس فإنه يُعادي الله على نعمه التي خصها لخلقه، والمراد بالناس في الآية النبيّ ﷺ وأصحابه حسدهم اليهود لِمَا خصهم الله من فضله حيث جعل منهم نبيًّا وأنزل عليه القرآن بينما هم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم وحدهم من خصّهم الله بالنبوّة دون غيرهم من الناس ﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إبْراهيمَ الكِتابَ والحِكْمَةَ وَآتَيْناهُم مُلْكًا عَظِيمًا﴾ أي وإذا كنتم ـ أيها اليهود ـ تحسدون الناس لما توهَّمْتم أنّ النبوة خاصة بكم فقد أخطأتم في ذلك، ففضل الله واسع، فقد أعطى الله إبراهيم عليه السلام وذريّته الكتاب والحكمة والنبوّة وأعطاهم الله مع ذلك ملكًا عظيمًا واسعًا على أيدي أنبيائه يوسف وسليمان وداود وغيرهم، فلا غرابة بعد ذلك أن يعطي محمدًا وهو من أولاد إبراهيم مثلما أُعطي الأنبياء من قبل ﴿فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ هذا الشطر من الآية فيه بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام. أي من أهل الكتاب من آمن بإبراهيم واتبع شريعته ومنهم من كفر به وأعرض عنه ـ وقيل:

الضمير بلفظ ﴿بِهِ﴾ هو النبي محمد ﷺ فمنهم من آمن به وما أُنزل عليه من القرآن كعبد الله بن سلام وغيره، ومنهم من أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بمن لا يؤمن بإبراهيم أو بمحمد أن تكون جهنم بسعيرها ولهيبها مصيرًا لهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧)﴾

شرح المفردات

نُصليهم نارًا: نُذيقهم حرّها ونَشويهم بها.

نضجت جلودهم: احترقت وتلاشت.

ظلًّا ظليلًا: ظلًّا كثيفًا دائمًا لا شمس فيه.

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة

وبعد أن عدَّد اللهُ جرائم أهل الكتاب وهدَّدهم بالعقاب عليها، أتبع ذلك ببيان جزاء الكافرين عمومًا يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَروا بِآيَاتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نارًا﴾ والآيات: جمع آية قد

يُراد بها كل جملة من القرآن أو يراد بها الأدلة على وحدانية الله، والمعنى: إن الذين جحدوا آيات القرآن أو الآيات والأدلّة الدالّة على وحدانية الله وأنه المستحقّ وحده للعبادة سوف نُدخلهم يوم القيامة جهنم ليقاسوا حرّها وتحرقهم بنارها **﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾** كلّما احترقت جلودهم وتلاشت **﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾** بدّلهم الله جلودًا غير التي احترقت وتلاشت **﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾** ليستمرّ عذابُهم وآلامهم الشديدة إلى ما لا نهاية **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** إن الله كان ولم يزل هو القويّ الغالب الحكيم في أفعالهِ يضع الأمورَ في مواضعها فلا يعذِّب محسنًا ولا يثيب كافرًا.

يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل تعليقًا على هذه الآية:

هذه الآية تقول: «إن النار كلما أكلت جلودهم بدّلهم الله جلودًا غيرها، والسبب في ذلك أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألمًا شديدًا بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألمًا كثيرًا.

فالله تعالى يقول لنا: إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نُجدِّده كي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان»[1].

وإني أتوجّه بإخلاص إلى الذين يدّعون بأن القرآن هو من تأليف محمد ﷺ أن يقفوا وقفة قصيرة، وقفة تأمل خالية من التعصب ويتساءلوا:

(١) عن كتاب «الإسلام والطب الحديث».

هل ما ذكره القرآن من أنواع العذاب الذي يقاسيه الذين كفروا في الآخرة، هل هو من تأليف محمد ﷺ أم هو وحي إلٰهي؟ وهل وصل محمد ﷺ بعلمه ومواهبه إلى مرتبة في الطب يدرك بها مواضع الإحساس والألم في الجسم؟ لا، ليس القرآن من تأليف محمد بل هو وحيٌ إلٰهيّ من عند الله وهو معجزة خصَّ الله بها نبيّه محمدًا ﷺ، وفيها الدلائل على وجود الله ووحدانيته وعلى صدق نبوّة محمد ﷺ وأنه مرسل من عند الله لهداية البشر.

وفي مقابل عذاب الكافرين يذكر القرآن ثواب المؤمنين بقوله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي والذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وبرسوله محمد ﷺ وما أُنزل عليه من القرآن، وعملوا الأعمال الصالحة التي فيها الخير لهم وللناس جميعًا **﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** سيدخلهم الله يوم القيامة بساتين فيها كل أنواع النعيم تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾** مقيمين فيها أبدًا لا يموتون ولا يُخرجون منها ولا ينغّصهم شيء من زوال هذا النعيم كما هو نعيم الدنيا الذي لا يدوم **﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾** أي في الجنّة للرجال أزواج وللنساء أزواج، فالرجال ينعمون بزوجات طاهرات من الأدناس المادية فلا حيض ولا نفاس ولا تعتريهم أمراض، وطاهرات من الأدناس المعنوية فلا أخلاق ذميمة ولا نكد يصدر منهن **﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾** قد يُراد به الظلّ الحسّيّ، أي لا يعتريهم ألم الحرّ والبرد، وقد يأتي الظل بما ذكره الراغب الأصبهاني: ويعبّر بالظل عن العِزَّة والمتعة وعن الرفاهة، أي أنّ الله يُدخلهم الجنة في عزٍّ ومتعة ورحمة ورعاية كريمة منه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم
بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ
وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن
كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

شرح المفردات

الأمانات: جمع أمانه، وهي ما يؤتمن الشخص عليه سواء ما يتعلق بحق الله أو الناس.

نِعِمَّا يعظكم به: أي نِعْمَ الشيء يعظكم الله به.

وأُولي الأمر منكم: أصحاب الحلّ والعَقْد في شؤون الناس والدولة من الرؤساء والعلماء.

تنازعتم: اختلفتم.

فَرُدُّوهُ إلى الله والرسول: أي ارجعوا في الحكم به إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

تأويلًا: مآلًا وعاقبة.

أداء الأمانه والحكم بالعدل

وبعد أن ذكر الله ثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعدَّ لهم من نعيم في الآخرة أتْبع ذلك بذكر بعض تلك الأعمال الصالحة التي أكد على أن يأتي الناس بها قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِها**﴾ هذه الآية من أُمهات الأحكام التي تضمنت جميع أمور الدين والشرع، والخطاب فيها للرسول محمد ﷺ وللمؤمنين في جميع العصور. وجاءت صيغة الدعوة إلى تأدية الأمانات بكلمة ﴿**يَأْمُرُكُمْ**﴾ للتأكيد على أدائها بأكمل وجه. كما جاءت ﴿**الأمانَاتِ**﴾ بصيغة الجمع لتشمل كل ما يؤتمن الإنسان عليه من ودائع وعلم وأسرار وغير ذلك مما يقع في دائرة الائتمان، والمراد بأداء الأمانات إلى أهلها إرجاعها إلى أصحابها من غير بَخْسٍ ولا نقص ولا مماطلة.

والأمانة منها ما يتعلق بحق الله، ومنها ما يتعلق بحق الناس، ومنها ما يتعلق بحق نفس الإنسان، فالأمانة التي تتعلق بحق الله يحصل أداؤها في فعل ما أمر الله به في جميع التكاليف التي كلفنا الله بها وبالأخص في العبادات التي هي أَجَلّ الأعمال الملقاة على عاتق المؤمنين.

والأمانة مع الناس يكون أداؤها بردِّ الودائع، وترك التطفيف في الكيل والوزن وعدم الغش وأن لا يفشي عيوب الناس، كما يدخل فيها عدل الرؤساء مع رعيتهم، وقيام كل فرد بحق الوظيفة المسندة إليه على أتم وجه.

وأمانة الإنسان التي تتعلق بحق نفسه عليه هي بأن لا يختار لنفسه إلا ما هو أنْفع وأصْلح له في دينه ودنياه، وأن لا يستعمل حواسّه وأعضاءه إلاّ في مرضاة الله، فمثلًا: الأمانة في حق اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة والنميمة والفحش في الكلام والطعن في الناس، والأمانة في حق العين أن لا يستعملها في النظر إلى الحرام، والأمانة في حق السمع أن لا يستعمله في الملاهي وما نهى الله عنه من سماع الفحش والأكاذيب وغيرها، وكذا القول في جميع الأعضاء.

وقد عظَّم الله أمر الأمانة في مواضع كثيرة من القرآن فقال سبحانه:
﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ

مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأثنى الله على المؤمنين الذين يقومون بأداء الأمانة فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

كما نهى الله المؤمنين عن التفريط في حق أداء الأمانة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

أما ما جاء في الأحاديث الشريفة فقد رُوِيَ عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سَلِمَ المُسْلِمون من لِسانِه ويدِهِ والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(١).

كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلَفَ وإذا أُتُمِنَ خانَ»(٢). كما رُوي عن النبيّ ﷺ قوله: «لا إيمانَ لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»(٣).

وبعد أن أمر الله بتأدية الأمانات إلى أهلها عقّب على ذلك بقوله: ﴿وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ﴾ وقد جمع الله بين الأمانة والعدل لما بينهما من ارتباط وثيق حيث إنَّ كُلًّا منهما غايته إيصال الحقوق إلى أهلها.

والعَدْلُ معناه في أصل اللغة المثيل، واستُعمل في الحكم بين الناس فيما يختلفون فيه بحيث يكون هذا الحكم مساويًا للذنب المرتكَب، فإذا ارتكب شخص جُرمًا كان الحكم النازل به مساويًا للجُرم الذي ارتكبه بما يردعه، كما يشمل العدل أن يُسوِّيَ الحاكم بين المُتَقَاضِيَيْنِ في النظرة والموقف فلا يتأثّر بالمظاهر ولا بِغِنَى هذا أو وجاهة ذاك.

ولقد دعا الله إلى الحكم بالعدل في كثير من آيات القرآن فقال

(١) أخرجه الترمذي والنسائي.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ...﴾ [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ونهى الله عن اتباع الهوى في الحكم بين الناس فقال سبحانه مخاطبًا النبيّ داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [ص: ٢٦]، كما أمر الله أن يكون العدل حتى مع الأعداء، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ(١) قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. والمعنى: ولا تحملنكم كراهتكم لقوم وعداوتكم لهم على ترك العدل معهم، بل يأمركم الله أن تعدلوا لأن العدل أقرب إلى تقوى الله.

ومن الملاحظ في الآية أنّ الله قدّم الأمر بأداء الأمانات على الأمر بالعدل لأن العَدْلَ في الأحكام يُحتاج إليه عند الخيانة في الأمانات التي تتعلق بحقوق الناس ﴿إِنَّ اللهَ نِعِمَّا(٢) يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نِعْمَ الشيء الذي يعظكم به الله: وهو تأدية الأمانات والحكم بين الناس بالعدل، والوعظ: هو التذكير بالخير والتحذير من الشر بأسلوب يرقّ له القلب وقد يكون فيه زجر وتخويف ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ إن الله كان سميعًا لأقوالكم في الأحكام وفي غيرها ﴿بَصِيرًا﴾ بكل أحوالكم وتصرفاتكم وسيجازيكم على كل ما تفعلونه بالخير خيرًا، وبالشر شرًّا.

طاعة الله ورسوله وأُولي الأمر

وبعد أن أمر الله سبحانه المؤمنين بتأدية الأمانات إلى أهلها والحكم

(١) شَنَآن: البغض والكراهية.
(٢) نِعِمَّا: أصله (نِعْمَ ما) رُكِّبَت (نعم) مع (ما) بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة الكلمة الواحدة وأدغمت الميمان وحُرِّكت العين الساكنة بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين.

بين الناس بالعدل، أمرهم بعد ذلك بطاعته وطاعة رسوله محمد ﷺ وولاة أُمورهم قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾** أمر الله في هذه الآية بطاعته وهي تتحقق بالعمل بما ورد في القرآن لأنه هو الذي يحوي أوامر الله ونواهيه وهو المصدر الأول من مصادر التشريع في الإسلام، لا يُعدل عنه متى وُجد نص للحكم فيه.

ثم أمر الله بطاعة رسوله محمد لأنه هو الذي يبيّن للناس أحكام الشرع الإسلامي ومقاصده التي وردت مجملةً في القرآن فيفصّلها ويزيد عليها بما أوحاه الله إليه مما طرأ من وقائع وأحْداث أفتى بها الرسول وبيّن فيها الحلال والحرام، وهذا ما هو معروف بالسُنَّة النبوية، فالسُنَّة المنقولة نقلًا ثابتًا عن الرسول ﷺ هي المصدر الثاني الذي يؤخذ منه أحكام الشرع بعد القرآن.

ثم أشار الله سبحانه إلى مصدر ثالث من التشريع أَلْزم اتِّباعه وطاعته عندما لا يوجد نصّ في القرآن والسُنَّة وهذا المصدر المشار إليه هو **﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾** الذين يجب طاعتهم وهم العلماء والفقهاء الذين يفتون في الأحكام الشرعية ويعلّمون الناس دينهم.

فهؤلاء إذا اتفقوا على أمرٍ واحد أو حُكْمٍ ما، وجب أن يُطاعوا بشرط أن يكونوا مسلمين، وأن لا يُخالفوا أمر الله ولا سُنَّة رسوله محمد وأن يكون ما اتفقوا عليه ليس فيه معصية للخالق، لقول الرسول محمد ﷺ: «والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ أو كَرِه ما لم يُؤمر بمعصية، فإنْ أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1].

(١) متفق عليه.

واتفاق أولي الأمر على حكم ما يسمى بـ(الإجماع) وهو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي يصار إليه عندما لا يوجد نص في القرآن والسُنَّة، وهؤلاء يتألف منهم شبه (مَجْلس أعلى للأُمَّة) يسهر على مصالحها ويُوَجِّه سياستها في السلم والحرب.

وعند التنازع والاختلاف بين أُولي الأمر شرع الله طريقًا لحسم النزاع وهو قوله: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾** والتنازع هنا لا يعني المحاربة، وإنما المراد من التنازع هو الاختلاف، أي فإن اختلفتم في شيءٍ من أُمور دينكم أو دنياكم فردُّوا ذلك الحكم المختلَف فيه إلى كتاب الله وهو القرآن وإلى سُنَّة رسوله محمد ﷺ بالرجوع إلى ما ورد عن الرسول محمد ﷺ من قول أو عمل يتعلق بذلك الأمر المختلَف فيه **﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** إن كنتم تصدّقون بالله ربكم وتصدّقون بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب فردُّوا ما تتنازعون فيه إلى قواعد الدين المبيَّنة بالقرآن والسُنَّة. وفي قوله تعالى: **﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** دليل على أنّ من لم يتحاكم عند النزاع والاختلاف إلى الكتاب والسُنَّة ولا يرجع إليهما في ذلك لا يكون مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر **﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾** أي ذلك التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله عند التنازع والاختلاف خير لكم وأصلح من التمادي في الخصومة وأحسن عاقبة ومآلًا.

وعند الخلاف في الأمور التي لم يأتِ فيها نص يُكلَّف أُولو الأمر طائفة من أهل الفقه البحث في الأُمور المختلَف فيها، فتضعها على بساط البحث وتقارن بينها وبين ما ورد في القرآن والسُنَّة لتضع الأحكام على ضوئها وهذا ما يسمّى عند الفقهاء بـ(القياس) الذي جعلوه المصدر الرابع من مصادر التشريع الإسلامي.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ
أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا
بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى
ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١)
فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ
جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا (٦٣)﴾

شرح المفردات

يزعمون: الزعم هو القول حقًّا كان أو كذبًا. ثم كثر استعماله في الكذب.

الطاغوت: هو كل معبود من دون الله أو هو الشيطان أو هو شخص يكون رأسًا في الضلال.

يصدُّون: يُعرضون.

وَعِظْهُم: أي أنصحهم بطاعة الله وأرْشِدهم إليها مع تخويفهم من عقاب الله.

قولًا بليغًا: كلامًا مؤثرًا في نفوسهم.

ضلال المنافقين

من أشدّ ما أبْتُلِي به الإسلام في بدء ظهوره وجود جماعة من المنافقين كانوا يُظهرون الإسـلام ويُبطنون الكُفر ويَكيدون للإسـلام ما اسـتطاعوا إلى ذلك سبيلًا.

ومن مسـاوئ المنافقين التي ذكرها القرآن واسـتنكرها منهم أنهم كانوا في خصوماتهم يؤثـرون التحاكم إلى زعماء اليهود على أن يتحاكموا إلى رسول الله ﷺ.

وقـد رُوِيَ أنّ رجلًا من المنافقين كان بينه وبين يهوديّ خصومة، فقال اليهـودي: انطلِـقْ بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتي كعب بن الأشـرف، وكعب هذا دان باليهودية وكان سيّدًا في قومه كثير العداء للنبيّ ﷺ وأصحابه وهـو الذي سـمّاه الله تعالـى الطاغوت. فأبـى اليهـوديّ إلا أن يتحاكما إلى رسول الله ﷺ، فأذعن المنافق وأتى معه إلى رسـول الله فاحتكما إليه فقضى لليهودي. يقول الله تعالى:

﴿أَلَـمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُـمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ألَم ينته إلى عِلْمك يا محمد خبر هؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهـم آمنـوا بما أنـزل الله عليك من القرآن، وما أنزل على الرسـل من قبلك من الكتب السـماوية، والاسـتفهام سِيقَ للتعجّب والإنكار من حال أولئك المنافقين بسبب إعراضهم عن التحاكم إلى رسول الله ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ والمراد بالطاغوت هنا ما سـوى شـريعة الإسـلام من أحكام ظالمة بعيدة عن الحق، أو المراد بالطاغوت: كعب بن الأشـرف اليهودي الذي رغب المنافقون في التحاكم إليه وكان مفرطًا في الطغيان وعداوة الرسول محمد ﷺ، وقد أمرهم

الله أن يكفروا به وبالأحكام التي تصدر عنه ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ واختيارهم الاحتكام إلى طاغية من طغاتهم كان بوسوسة من الشيطان الذي يريد أن يُضِلَّهم عن الحق والهدى.

وقد وصف الله هذا الضلال بقوله ﴿بَعِيدًا﴾ وهو عبارة عن عِظَم الضلال وتمكّنه فيهم حتى يصعب الرجوع عنه. هذا النص من القرآن يُشْعِرُ بأنه لا يتفق مع الإيمان الصادق أن يتحاكم المؤمن إلى غير ما يقرره القرآن والسُّنَّة، وإنّ كل تحاكُم إلى غير شريعة الله وما تُقرِّره من أحْكام هو تحاكم إلى طغيان يوصل إلى الضلال والبعد عن هدى الله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في القرآن وإلى الرسول محمد ليحكم بينكم به ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ رأيت يا محمد المنافقين يُعرضون عنك إعراضًا شديدًا.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فكيف تكون حالهم وكيف يصنعون إذا نزلت بهم المصائب بسبب ما فعلوه من المعاصي من تركهم حكم الله واتّباعهم حكم الطاغوت الذي يؤدي إلى التنازع فيما بينهم، أو بسبب افتضاحهم وانكشاف أمرهم أمام المؤمنين ثم معاملتهم بالإذلال والطرد من حضرة النبيّ محمد ﷺ، فلا يستصحبهم في الغزوات ولا يشاركهم في المغانم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ ثم جاءوا إليك يا محمد معتذرين عما صدر منهم، حالفين بالله كذبًا وزورًا بأنهم ما قصدوا بهذا الصدود الإعراض عنك والتحاكم إلى غيرك، وإنما قصدوا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم حتى لا تتسع فيهم شقة الخلاف.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلُوبِهِمْ﴾ أُولئك المنافقون يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق والميل إلى الكفر والكيد للمؤمنين ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

أي فلا تلتفت إليهم ـ يا محمد ـ ولا تُقبِل عليهم حتى يشعروا باستنكارك لِما صدر منهم وأنك غير راضٍ عنهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ والوعظ هو التذكير بفعل الخير وترك الشر والتخويف من عقاب الآخرة ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ والقول البليغ هو الكلام الذي قَلَّ لفظه وكثر معناه مع حسن العبارة والمراد به هنا القول الذي يشتمل على الإنْذار والوعيد الشديد والترهيب المخيف مما يؤثر فيهم ويردعهم عن غَيِّهم ويعود بهم إلى رشدهم.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ
إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا
يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا
عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا
قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ
صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠) ﴾

شرح المفردات

توّابًا: من صيغ المبالغة، أي أن الله كثير قبول التوبة من التائبين النادمين على المعصية.

فلا وربِّك: اللام لتأكيد القسم أي (فوربك).

شَجَرَ بينهم: اختلط عليهم من الأمور وتنازعوا فيها.

حَرَجًا: ضيقًا.

كتبنا عليهم: قدَّرنا.

أشدّ تثبيتًا: أشدّ استقرارًا لهم ورسوخًا لإيمانهم.

رفيقًا: مرافقًا ومؤنسًا.

من علامات الإيمان طاعة الله ورسوله ﷺ

ويُتابع القرآن فيبيِّن أن الرسول الذي يرسله الله إلى قوم يجب أن يُطاع من هؤلاء القوم وأن لا يخالفوا ما يأمرهم به لأنه مُبَلِّغٌ عن الله، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي أن الله لم يرسل رسولًا إلى قوم لهدايتهم إلا كان من شأنه أن يُطاع من هؤلاء القوم، وهذه الطاعة هي بإذن الله لأن الله هو الذي أمر بطاعته، وطاعة رسول الله هي من طاعة الله لأن رسول الله يبلّغ قومه ما أمره الله بتبليغه **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾** أي ولو أنّ أُولئك الذين تحاكموا إلى زعماء اليهود جاءوا إليك يا محمد تائبين سائلين الله أن يصفح لهم عن ذنبهم وهو عدم تحاكمهم إليك **﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾** وسأل الله رسوله محمدًا أن يغفر لهم **﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾** لوجدوا الله كثير القبول لتوبة التائبين كما أنه سبحانه يتفضل عليهم بالرحمة والمغفرة. هنا يُقال: ما الفائدة من ضم استغفار الرسول محمد إلى استغفارهم؟ الجواب: هو أنّ تحاكمهم إلى زعماء اليهود هو إساءة إلى رسول الله ﷺ، ومن كان ذنبه

كذلك وجب عليه الاعتذار لرسول الله عن ذلك، فمجيئهم إلى رسول الله وطلبهم منه أن يستغفر لهم هو اعتراف بذنبهم، كما أن شفاعة رسول الله بطلبه من الله أن يغفر لهم هي أدعى لغفران ذنوبهم، **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾** أقسم الله بذاته العليّة وقد أضاف الربوبية إلى النبيّ محمد فقال **﴿وَرَبِّكَ﴾** تكريمًا لذات النبيّ وإعلاءً لشأنه، وجواب القسم **﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾** أي لا يؤمنون بالله الواحد الأحد حتى يجعلوك يا محمد حَكَمًا **﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾** أي فيما وقع بينهم من خلاف ونزاع. والمُشاجرة: هي النزاع **﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾** أي ثم لا يجدوا في قرارة أنفسهم ضيقًا أو شكًّا فيما قضيت بينهم بما يتنازعون فيه **﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** وينقادوا لأحكامك ويُذعِنوا لها. وقد أكد الله قوله: **﴿وَيُسَلِّمُوا﴾** بالمصدر فقال **﴿تَسْلِيمًا﴾** للإشارة إلى وجوب الانقياد إلى نبيّه محمد والإذعان المطلق له من غير أن يثيروا أيّ شبهة، أو يشعروا بضيق حول ما يحكم به.

«ومما يجب التنبيه له أنَّ التحاكم إلى النبي محمد ﷺ بعد وفاته يكون بالتحاكم إلى القرآن وسنّة النبي ﷺ، وعلى هذا فيجب أن يَعْلَمَ كل من يُسمي نفسه مسلمًا أنّ الله يُقرر أنه لا يؤمن مَن لا يتحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ثم لم يجد ضيقًا في حكم الشرع بل يرضى به وينقاد له انقيادًا ظاهرًا وباطنًا»[١].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ ولو أن الله فرض على هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزِل إليك يا محمد من القرآن المحتكمين إلى الطاغوت، لو أن الله فرض عليهم مثل ما فرض على بني إسرائيل بأن يقتلوا أنفسهم تكفيرًا لذنوبهم من عبادتهم للعجل،

(١) عن كتاب «زهرة التفاسير» للإمام محمد أبو زهرة.

أو فرض الله عليهم الهجرة من أوطانهم للمحافظة على دينهم ﴿**مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ**﴾ أي لشقّ عليهم ذلك وما نفّذه إلاّ نفر قليل منهم ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ ولو أنهم فعلوا ما وعظهم به رسول الله ونصحهم بإتيانه وانقادوا لما حكم به لكان ذلك خيرًا لهم وأنفع في دنياهم وآخرتهم ﴿**وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا**﴾ وكان ذلك أدعى لهم إلى الثبات على الحق والصواب وأبعد لهم عن الضلال وأشدّ تثبيتًا لعزائمهم.

﴿**وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أي ولو نفّذوا ما أمرتهم به يا محمد واستجابوا لك لأعطاهم الله من عنده ثوابًا عظيمًا وفضلًا ليس له حدود وهو الجنة ﴿**وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ ولأرشدهم الله إلى طريق مستقيم يؤدي بهم إلى صالح الأعمال ويقرّبهم إلى الله.

﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ**﴾[1] ومن يطع الله بالانقياد لِما أمر به ونهى عنه ويطع رسوله محمدًا فيما جاء به من عند ربه ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ**﴾ أي هم معهم في دارٍ واحدة ونعيمٍ واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة، وهؤلاء الذين أنعم الله عليهم يكونون ﴿**مِنَ النَّبِيِّينَ**﴾ وهم الذين خَصَّهُم الله بوحيه وجعلهم هداة للبشر وقاسوا في سبيل الدعوة إلى الله أشدَّ الأهوال ﴿**وَالصِّدِّيقِينَ**﴾ وهم في مرتبة تلي النبيين، والصِّدّيقون: جمع صِدِّيق وهو المبالغ في الصدق فهو الصادق الذي لا يكذب وهو الذي صدَّق الأنبياء واتَّبع هداهم بكل إصرار ويقين. وإنّ الصدق في القول والعمل إذا صار عادة في الإنسان طهرت نفسه واستقام فكره وعمله ﴿**وَالشُّهَدَاءِ**﴾ وهم المجاهدون الذين يُقتلون في سبيل

(١) هذه الآية قيل إنها نزلت في رجل من الأنصار جاء إلى النبيّ ﷺ وهو محزون، فقال له النبيّ: ما لي أراك محزونًا، فقال: يا رسول الله غدًا تُرفع مع الأنبياء فلا نصل إليك، فنزلت هذه الآية: ﴿**ومن يطع الله والرسول..**﴾ ... إلخ.

الله لإعلاء كلمة الحق قاصدين وجه الله بقتالهم، وقيل: هم الذين يشهدون بصحة دين الله بالحجة والبيان.

﴿**وَالصَّالِحِينَ**﴾ وهم من صلحت نفوسهم وأعمالهم فهم الصالحون في الباطن والظاهر فأدّوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ﴿**وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا**﴾ والرفيق هو الصاحب الذي يلازمك في عمل أو سفر. وإن لفظ ﴿**حَسُنَ**﴾ معناه: ما أحسن وأطيب رفقة هؤلاء الرفقاء في الجنة.

﴿**ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ**﴾ أخبر الله تعالى أنهم لم ينالوا درجة القرب منه بطاعتهم له، بل نالوها بفضله تعالى وكرمه ﴿**وَكَفَىٰ بِاللهِ عَلِيمًا**﴾ أي يكفي عِلْم الله بطاعة المطيع ومعصية العاصي فإنه لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيجزي المحسن منهم بالإحسان، والمسيء منهم بالعقاب، ويعفو عمَّن شاء من أهل التوحيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ
جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ
قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ
أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ
مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞
فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ
فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟
أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾

شرح المفردات

خُذوا حِذْركم: تيقَّظوا واحترزوا من مكائد عدوّكم.

فانفروا: اخرجوا للجهاد.

ثُباتٍ: جماعة في أثر جماعة. أو مجتمعين حسب ما تقضي أساليب القتال.

لَيُبَطِّئَنَّ: أي يتباطأ ويتثاقل.

يشرون: يبيعون.

والولدان: جمع وليد وهو الصبيّ.

وليًّا: معينًا.

كيد: الكيد هو الاحتيال في إلْحاق الضرر بالخصم.

القتال لرفع الظلم عن العباد

وبعد أن بيّن القرآن للمؤمنين صفات المنافقين وأمرهم بطاعة الله ورسوله، أمرهم في الآيات التالية بالحذر من الكافرين حتى لا يباغتوهم في عقر دارهم ويُمْعِنوا فيهم قتلًا لأنفسهم وتدميرًا لممتلكاتهم، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ خاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان ليثير في نفوسهم دواعي الاستجابة لِما يأمرهم به وهو أن يتيقظوا

من عدوّهم ويكونوا منه على حَذَرٍ حتى لا يُباغتهم بالهجوم عليهم ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ يقال: نفر القوم ينفرون نفرًا إذا نهضوا لقتال عدوّهم وخرجوا للحرب، ومعنى ثُبات: جماعات متفرقة.

والمعنى: اخرجوا أيها المؤمنون لقتال عدوّكم جماعةً بعد جماعة إذا اقتضت الحرب ذلك وظهرت من عدوّكم بوادر العدوان عليكم ﴿أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ أو أخرجوا لقتال عدوّكم جماعة واحدة، والمراد بذلك تعبئة كل الجيش لملاقاة العدوّ إذا لزم الأمر واستشعر منه الخطر، يساند الجيش كل أفراد الأمّة كُلًّا حسب قدرته واختصاصه ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ وإنّ من بينكم يا معشر المسلمين لمن يتباطأ ويتخلّف عن الخروج للجهاد أو لَيُبطِّئَنَّ سواه. والمتباطئون هم المنافقون وضعاف الإيمان.

والتعبير بقوله تعالى ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ تعبير في أسمى درجات البلاغة والروعة لأنه يصوّر الحركة النفسية للمنافقين وضعاف الإيمان وهم يشدّون أنفسهم شدًّا ويُقدّمون رِجلًا ويُؤَخِّرون أُخرى عند دعوتهم للجهاد في سبيل الله.

والتعبير عن الإبطاء عُرِضَ بصورة بلاغيّة دقيقة التصوير، فلو قال القرآن «وإن منكم ليبطئن» بحذف لفظ (لمن) لتغيّرت الصورة وتغيّر وقعها في الحس لأنّ التعبير يصبح أسرع ومن ثمّ لا يكون بذات الدرجة في تصوير حالة الإبطاء، ولكن بصياغته بتلك الصورة التي جاءت في القرآن:

﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ بزيادة ﴿لَمَن﴾ لا تملك إلا أن تخفف من سرعة نطقك ويتجسد في ذهنك معنى الإبطاء لفظًا ومعنى ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أي فإن نزلت بكم هزيمة ـ معشرَ المسلمين ـ ولحقت بكم خسارة في الأرواح ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي قال كل فرد من المنافقين أو من ضعاف الإيمان: قد أنعم الله عليَّ حيث لم أكن حاضرًا معهم في المعركة وإلا لكان أصابني مثل الذي أصاب المسلمين من

قتل وجرح وصرتُ شهيدًا من شهدائهم، فإنعام الله عليه في نظره هو النجاة من القتل والجراح ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾ أي وإن تفضل الله عليكم - أيها المؤمنون - بالنصر وأنعم عليكم بالغنيمة استولت الحسرة والغم على المنافقين وندموا على عدم الخروج مع المؤمنين للقتال ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ هذه الجملة بعد (لَيَقُولَنَّ) هي جملة معترضة، بمعنى: كان حالهم كحال من لم يكن بينكم وبينهم مودة، وهذا ظاهر فقد كانوا يضمرون الحقد والحسد للمؤمنين. ثم يأتي وصف تحسّر المنافقين حيث يقول كل واحد منهم: ﴿يا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُم فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي ليتني كنت مع المسلمين في ساحة القتال فأغنم مغانم كثيرة وأموالًا وفيرة. فالصلة والمودّة التي كان المنافقون يُظهرونها للمؤمنين تقتضي أن يكونوا معهم في السرّاء والضرّاء، ولكنّ نفاقهم كشف سريرة نفوسهم وخبث سلوكهم تجاه المؤمنين.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ﴾ كلمة يَشْرون: من الأضداد تحمل معنى البيع والشراء، وهي هنا بمعنى البيع. والمعنى: فليقاتل في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الدنيا وشهواتها ويطلبون ثمنًا لها الآخرة وما فيها من جنّات ونعيم دائم ورضوان من الله، وسبيل الله الذي يجب أن يقاتل فيه المسلم هو سبيل الحق وإعلاء دينه ورفع الظلم عن العباد.

فالمسلم كما يقول سيّد قطب: لا يقاتل لمجد شخصيّ، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أُمّة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله في الأرض ولتمكين منهجه في تصريف الحياة[1] ومنهج الله هو إقرار العدالة بين البشر ورفع الظلم والطغيان عنهم.

﴿وَمَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ومن يتقدّم للقتال في سبيل الله الذي هو سبيل الحق طالبًا رضى الله

(١) عن كتاب «في ظلال القرآن».

سبحانه، فإن قُتِلَ واسْتُشْهِدَ في سبيله أو غلب وانتصر على أعداء الله فسوف يُعطيه الله ثوابًا عظيمًا. والملفت للنظر أنّ الله اقتصر على بيان حالتين بالنسبة للمقاتل في سبيل الله وهما حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدوّ للإشعار بأنّ المجاهد الصادق لا يبغي من جهاده إلا هاتين الحالتين، ومتى وطّن المجاهد نفسه على ذلك ثبت في قتاله للعدوّ؛ ثم إنّ القرآن قدّم الاستشهاد في الآية على التغلب على العدوّ بقوله: ﴿فَيُقْتَلْ﴾ للإيذان بأنّ المجاهد المخلص حرصُه على الموت في سبيل الله أشدُّ من حرصه على النصر.

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ والوِلْدانِ﴾ والاستفهام في الآية هنا لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد ولا سيّما أنّ الباعث له أمران: أحدهما القتال في سبيل الله والدفاع عن دينه، والثاني: تخليص المستضعفين من المسلمين المستذلّين بمكة الذين يسومهم الكفّار أنواع العذاب والاضطهاد ولا يستطيعون مقاومة المعتدين. وهؤلاء الضعفاء كانوا يلجأون إلى الله بالدعاء:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجنا مِنْ هٰذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها﴾ لقد تضرعوا إلى الله بأن يُخرجهم من هذه القرية وهي مكة التي يظلمهم أهلها، والملاحَظ أنّ الله وصف أهل مكة بأنهم ظالمون ولم توصف مكة بالظلم كما وصف غيرها من القرى مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] وعدم وصف مكة بالظلم هو تشريف لها وتكريم.

وتابع هؤلاء المستضعفون دعاءهم ﴿وَاجْعَل لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ أي وهيئ لنا يا ربنا من عندك وليًّا يتولى أمرنا ويحمينا من اضطهاد الظالمين لنا ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ وهيئ لنا من عندك من ينصرنا عليهم. وقد استجاب الله دعاءهم حيث يسّر لبعضهم الخروج إلى المدينة المنوّرة، والذين بقوا في مكة نصرهم الله يوم فتحها على يد رسول الله فكان خَيْرَ وَلِيّ، وخير ناصر لهؤلاء الضعفاء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي الذين صدّقوا بوحدانية الله وبرسوله محمد الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾** أي والذين كفروا يقاتلون من أجل طاعة الشيطان الذي يأمرهم بكل بغي وطغيان وشرّ **﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾** فقاتلوا أيها المؤمنون أنصار الشيطان وأعوانه **﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾** إنّ مكره ومكر من اتّبعه من الكفار كان ضعيفًا واهيًا، والمراد بكيد الشيطان وسوسته لأتباعه بالاعتداء على المؤمنين وفتنتهم عن دينهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ
أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا
إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ۗ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ
وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ
فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ
حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ
رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

شرح المفردات

كُفُّوا أيديكم: أي امتنعوا عن قتال الكفار.

يخشون الناس: يخشون قتال كفار مكة.

لولا أخَّرتنا إلى أجَلٍ قريب: لولا أخّرتنا إلى أن تنقضيَ آجالُنا دون قتال، والأجل هو غاية الوقت في حلول الموت.

متاعُ الدنيا: ما يستمتع به الإنسان في الدنيا.

فتيلًا: الخيط الموجود في شق النواة، يضرب به المثل في القلّة.

بروج مشيّدة: حصون مرتفعة منيعة مُحكمة.

يفقهون: يفهمون فهمًا دقيقًا.

شهيدًا: شاهدًا على صدق رسالتك.

عدم الرهبة من الموت عند قتال المعتدين

وبعد أن دعا القرآن المؤمنين إلى القتال في سبيل الله والدفاع عن النساء والولدان الذين يسومهم كفار مكة أنواع العذاب والاضطهاد، بيَّن القرآن في الآيات التالية أن المسلمين ليسوا سواء في تحمّل أخطار القتال وشدائده، بل منهم من يُحجم عنه خوفًا من الموت ورغبة في التمتع بملاذّ الحياة وشهواتها.

فقد رُويَ أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحابًا له أتوا النبيّ ﷺ بمكة فقالوا: يا نبيّ الله، كُنّا في عزّةٍ ونحن مشركون فلمّا آمنّا صرنا أذِلّة، ـ يريدون أنْ يأمرهم بقتال المشركين ـ قال النبيّ: إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلمّا هاجر النبيّ إلى المدينة المنوّرة أمره الله بالقتال، فامتنع هؤلاء الذين طلبوا الإذْن بالقتال عن مقاتلة المشركين وشاركهم في ذلك المنافقون فنزلت الآية التالية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ أي ألَم تنظر يا محمد فَتَعْجَب إلى الذين رغبوا في القتال قبل أن يجيء الإذْن به فقيل لهم: لَمْ يأت بعد وقت القتال فكفّوا أيديكم عنه، وذلك في الفترة التي كانوا فيها بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة المنورة **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** لقد أمرهم رسول الله بما أوحى الله إليه بأن يمتنعوا عن القتال مؤقتًا وليتجهوا في هذا الوقت إلى تقوية أرواحهم ونفوسهم بإقامة الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما أنّ فيها تخليصَ أنفسهم من أدران المآثم والاتجاه إلى الله وحده في العبادة مما يقوّي نفوسهم ويُثَبِّت قلوبهم على الإخلاص له **﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** وأَعطوا الزكاة لمستحقّيها من الفقراء بما يحتاجون إليه للعيش الكريم، وبذلك تقوى الروابط الاجتماعية بين أفراد الأُمّة وتنتفي أسباب البغضاء والحسد بين الأغنياء والفقراء مما تتقوّى بِهِ الجَبْهَة الداخلية التي هي عنصر هامّ في مجابهة الأعداء.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ فلما فُرض عليهم القتال الذي كانوا قد سألوا أنْ يُفرض عليهم وذلك بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة **﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾** لقد عبّر الله عن الأعداء بقوله **﴿النَّاسَ﴾** وهو أبلغ توبيخ لهم، إذ الذين يخشونهم هم أناس مثلهم، والتعبير القرآني بأنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ يُعبّر عن ضعف إيمانهم، إذ المؤمن لا يليق به أن يخاف الناس كما يخاف الله **﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾** أي لِمَ فرضت يا رب علينا الجهاد؟ قالوا ذلك ركونًا منهم إلى الدنيا وجزعًا من القتال وهم ينسون أنّ العزة والكرامة لا تحصلان إلا بالقتال للدفاع عن النفس وتعزيز دين الله **﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾** أي هَلاَّ أَخَّرْتنا يا رب إلى أن نموت في منازلنا وفُرشنا عند انتهاء آجالنا فلا نُقتَل في ساحة القتال **﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾** قل يا محمد لهؤلاء الذين يخشون القتال رغبة

بالاستمتاع بالحياة الدنيا بأنّ نعيم الدنيا قليل زائل **﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾** ونعيم الآخرة خير من الدنيا لأنّ نعيمها باقٍ دائم لا يزول وهي للذين اتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه **﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾** ولا تنقصوا شيئًا في الدار الآخرة من جزاء على أعمالكم ولو كان هذا الشيء ضئيلًا لا تأبهون له في دنياكم. ومعنى الفتيل: الخيط الدقيق الذي يكون في شق نواة التمر، ويُضرب به المَثَلُ في القِلَّة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي في أيّ مكان تكونون سواء كان في ساحة القتال أو بين أهليكم ينزل بكم الموت، وفي التعبير بكلمة **﴿يُدْرِكْكُمُ﴾** إشارة إلى أن الموت كأنه يطلب الإنسان ويتبعه ولا مفر له منه عند انتهاء أجله **﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾** والبروج: جمع بُرْج وهو الحصن المنيع ويُطلق على القصر العالي، والمعنى: إن كنتم تريدون بانصرافكم عن الجهاد أن تؤخروا حلول الموت بكم أو تطيلوا الحياة فقد أخطأتم، فإنه حيثما كنتم يدركُكُم الموت ولو كنتم في أقوى الحصون وأمنعها أو كنتم في القصور العالية.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي إن يصبِ المنافقين نعمة كسعة في الرزق وكثرةٍ في الأموال وصحة في الأبدان يقولوا: هذا الذي أصابنا هو من عند الله، قالوا ذلك لا عن إيمانٍ بالله واعترافٍ بفضله بل قالوه تهوينًا لشأن النبيّ ﷺ وإشارةٍ إلى أنه لا يأتيهم بخير **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾** أي وإن تصبهم قلة في الرزق وشدّة في العيش يقولوا لرسول الله ﷺ: ما أصابنا من سوء إنما حصل بسوء تدبيرك وشؤمك علينا **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** قل لهم يا محمد: إنّ كل ما يصيبكم من نعمة أو سوء هو بقضاء الله وقدره **﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾** تعييرٌ لهم بالجهل وتَعَجُّبٌ من سوء فهمهم، أي فما شأن هؤلاء

القوم حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك ولا يفهمون أن كلاً من الخير والشر هو من عند الله.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ أي ما أصابك يا محمد من خصب ورخاء وصحة وسلامة فبفضل الله عليك وإحسانه إليك ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ وما أصابك من جَدْبٍ وشِدَّة وهزيمة فبذنبٍ أتيته فعوقبت عليه، والخطاب موجّه للنبيّ محمد ﷺ ولكنّ المراد أُمّته.

يقول الإمام محمد الطاهر ابن عاشور:

«أما السيئة فإنها وإن كانت تأتي بتأثير الله تعالى، ولكن إصابة معظمها: الإنسان، يأتي من جهله، أو تفريطه، أو سوء نظره في العواقب، أو تغليب هواه على رشده. وهنالك سيئات الإنسان من غير تَسَبُّبِهِ مثل ما أصاب الأُمم من خسف وأوبئة وذلك نادر بالنسبة لأكثر السيئات... جزاء على سوء فِعْلٍ»[1].

وقد تنزل البليّة بالمؤمن ابتلاءً واختبارًا من الله كما جاء في القرآن ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

كما قد تنزل المصائب بالمؤمن تكفيرًا عن خطاياه، كما جاء في قول النبيّ محمد ﷺ: «ما يُصيب المسلم: من نَصَبٍ[2] ولا وَصَبٍ[3]، ولا هَمٍّ ولا حُزن ولا أذى ولا غمّ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه»[4].

(١) عن تفسير التحرير والتنوير.
(٢) نصب: الإعياء والتعب.
(٣) وصب: مرض وتوجّع.
(٤) متفق عليه.

ويختم الله الآية بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ وأرسلناك يا محمد رسولًا مُبلِّغًا للناس كافة رسالة ربك التي تخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾ وكفى بالله شاهدًا على أنك رسول من عنده تُبلِّغ ما أُنزل إليك من ربك. وفي هذه الجملة الأخيرة تطمين لقلب رسول الله وتقوية لعزيمته، كما أنّ فيها وعيدًا للكفار، بمعنى: إنّ الله شهيد على من كذَّب رسول الله ﷺ فلا يُفلتون من عذابه.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ
عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ
بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ
فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا
كَثِيرٗا ٨٢﴾

شرح المفردات

بَرَزُوا من عندك: خرجوا من مجلسك ظاهرين.

بَيَّتَ طائفة: دبَّروا بليلٍ.

وكيلًا: نصيرًا لمن يعتمد عليه.

يتدبرون القرآن: يتأملون في أساليبه البلاغية ويتفكرون في معانيه.

اختلافًا كثيرًا: تناقضًا في معانيه أو يكون بعض أخباره غير مطابق للواقع.

الدعوة إلى طاعة الرسول ﷺ والتدبُّر في القرآن

ثم يأتي الكلام عن المنافقين وموقفهم من نبوة محمد، وكيف كانوا يُظهرون للنبي ﷺ خلاف ما يخفون في قلوبهم، مبينًا لهم أن طاعة النبي ﷺ هي طاعة لله، قال تعالى:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ فالله سبحانه يُخبرنا بأنّ من أطاع الرسول محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، لأن الرسول محمدًا هو مُبلِّغ عن ربه فيما أمره الله بتبليغه، وفي هذا تطييب لخاطر النبيّ وأن لا يكترث لِما نسب إليه المنافقون من أن البلاء نزل عليهم بشؤمه. كما أنّ في ذلك بيانًا لشرف رسول الله ﷺ وعلوّ شأنه وارتفاع مرتبته بما لم يبلغ ذلك أحد، وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني»[1].

ويؤخذ من النص القرآني أن الرسول محمدًا معصوم من الزلل في جميع الأوامر والنواهي التي كان يُبلِّغها عن ربه، لأنه لو أخطأ في شيء منها لم تكن طاعةً لله، كما أن كل تكليف من الله لعبادةٍ في العبادات وسائر الأحكام لم يأت تفصيلها إلا ببيان وتعليم من رسول الله ﷺ، وعلى هذا كانت طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ومن أعرض عن طاعتك يا محمد وعن أتِّباع الحق الذي جئت به من عند الله فقد جنى على نفسه، لأن الله لم يُرسلْكَ للناس حافظًا ورقيبًا لأعمالهم أو لتحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي.

ثم يتحدث القرآن عن المنافقين بقوله:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي ويقول المنافقون للنبيّ ﷺ إذا أمرهم بشيء للعمل

(١) أخرجه مسلم.

به ﴿طَاعَةٌ﴾ أي أَمْرُنا وشأننا طاعة أو بمعنى: أطعناك طاعة، كقول الرجل المطيع من يأمره أمرًا: سمعًا وطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي فإذا انصرف المنافقون من مجلسك يا محمد بدَّل جماعة منهم وغيَّروا قولك فيما عهدت إليهم من طاعة الله وما نهيتهم عنه من المآثم، بدَّلوا ذلك بمخالفة ما أمرتهم به وما نهيتهم عنه ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي والله سبحانه يعلم ما يبدّلون من أقوالك ويغيرونها ليستمروا على عصيانهم لك، وقد سجّلته ملائكة الله في صحائف أعمالهم ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تعاقبهم يا محمد ولا تُحدِّث نفسك بالانتقام منهم ولا تفضحهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وفوِّض أمرك إلى الله في شأنهم فإنّ الله يكفيك أمرهم وينتقم لك منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ وكفى بالله نصيرًا لمن يعتمد عليه.

ثم تأتي الدعوة من الله إلى التفكّر فيما يحتويه القرآن من تشريعات وعقائد وآداب، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ والخطاب للناس جميعًا وهو يحمل معنى الإنكار والاستقباح لعدم تدبّرهم للقرآن فلو تدبَّروا ما فيه بإنصاف مجرّدًا عن التعصب لأقرّوا بأنه كلام الله حقًّا ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي لو كان هذا القرآن من عند غير الله - أي من تأليف إنسانٍ ما - لَوَجَدُوا فيه اختلافات كثيرة منها:

اختلاف في الأفكار حيث تجد فكرة في مكان تتناقض مع فكرة أخرى، واختلاف في الأخبار حيث تجد خبرًا في مَوْضِع مختلفًا عنه في موضع آخر، واختلاف في الأُسلوب حيث تجد بلاغة في موضع ولا تجدها في موضع آخر، فلما وجدنا القرآن الكريم لا توجد فيه هذه التناقضات والاختلافات، دلّنا ذلك على أن القرآن الكريم ليس كلام بشر، وأنه تنزيل من عند الله العزيز الحكيم.

نعم، إن أيَّ كاتب أو فيلسوف أو عالم لا يستطيع أن يأتيَ بمثل ما أتى القرآن في بيان أُصول العقائد الصحيحة وإصلاح ما طرأ عليها مِنْ بدَعٍ

وأساطير، كما أنه لا يستطيع أن يأتيَ بمثل ما جاء في القرآن من شرائع في تنظيم الأُسرة، ونظام الحكم، وأُسس الاقتصاد السليمة، والعقوبات على الجرائم المخلّة بالأمن، وهذه كلها أُمور اعترف علماء القانون والاجتماع بعدالتها وصلاحيتها لأيّ مجتمع.

ومما يتميز به القرآن دعوته إلى الأخلاق الكريمة، وما تضمَّنَ من إرشادات ساميةٍ وغايات نبيلةٍ في حلو الشمائل وكريم الفضائل، سما بها القرآن إلى أعلى درجات السمو والمثالية الفاضلة.

ثم إن ما جاء في القرآن من الكلام عن الدار الآخرة ووصْف ما فيها من نعيمٍ للأبرار وعذاب للفجار تستشعر من خلالها بأنها ليست من كلام البشر، فضلًا عن وصف أهوال يوم القيامة وصفًا دقيقًا لم تعرفه الأُمم قبله.

كما أنّ القرآن يحتوي على قصص الأنبياء السابقين وما في حياتهم من دروس وعبر، والدعوة إلى الاقتداء بهم خلاف ما جاء في التوراة حيث نسبت إلى بعضهم سَيِّئ الأفعال والمنكرات مما لا يصحّ أن يكون قدوةً للناس، هذا مع العلم أنّ التوراة الحاضرة طرأ عليها التحريف والتبديل كما ذكر ذلك القرآن.

ومما ينفرد به القرآن عن الكتب الدينية السابقة وصف الكائنات بأنواعها كالكواكب والنجوم والرياح والجبال والنبات والحيوان، ملفتًا الأنظار إلى ما فيها من أسرار وخفايا تشهد على عظمة خالقها، مما يزيد إيمان الإنسان بالخالق والتوجه لعبادته بيقين وخضوع.

وإن المنصف المتجرد من عصبيته إذا أقبل على دراسة القرآن بقلب مُنْفَتِحٍ تظهر له الأمور الآتية:

- حسن تأليفه والْتئام كلماته وفصاحته وبلاغته الخارقة.
- صورةُ نظْمه العجيب وأُسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب، فليس هو من قبيل الشعر وليس هو من ضروب الخُطَب والسجع.

- الروعةُ التي يشعر بها سامعو القرآن والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته وتأثيره في النفوس.
- احتواؤه على علومٍ لم يَسبق إليها أَحَدٌ من البشر وضَمُّهُ معارف لم يحملها كتاب قبله.
- ما تضمنه من قصص الأوَّلين وأخبار الأُمم الماضية التي لا يعرفها إلاّ مَن أكْثَر دراسة الكتب والاطلاع على تاريخ الأُمم، مع العلم أن النبيّ محمدًا كان أُمّيًا لا يعرف شيئًا من كتب الأولين وأقاصيصهم وأخبارهم، وهذا مما يشهد بأن القرآن وحي آلهي.

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ
رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ
يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ
الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا
نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ
وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾

شرح المفردات

أَمْرٌ: خبر عن سرايا الرسول ﷺ.

الأمن: النصر.

الخوف: المراد به هنا الهزيمة.

أذاعوا به: نشروه وأفشوه.

يستنبطونه: يستخرجون حقائقة الخفيّة بفطنتهم.

وحرِّض المؤمنين: وحثّهم ورَغّبهم.

بأس: البأس يطلق على القوة والعذاب.

تنكيلًا: تعذيبًا وإيلامًا.

عدم نشر الأخبار المتعلقة بالأمن

ولقد كان من عادة المنافقين إشاعة الأخبار التي تُلقي الوهن في قلوب المؤمنين، وأخطر الأخبار المتداولة هو ما يتعلق بالأمور الحربية التي كانت تدور رحاها بين المسلمين والمشركين، وكان ضعاف الإيمان من المسلمين يُقَلِّدون المنافقين في ذلك مما يؤدي إلى الإضرار في جماعة المسلمين، لذا حذّر القرآن من ذلك بقوله **﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾** أي وإذا غزت سريّة من المسلمين موقعًا للكفار وأنهم أمنوا بالتغلب عليهم، أو أصاب العدو من المسلمين هزيمة أدخلت الرعب إلى قلوبهم أفشى المنافقون خبر ذلك وبَثُّوه بين الناس.

فأخبار انتصار المسلمين على عدوهم قد تؤدي إلى التواكل وعدم الحذر منهم، وأخبار الهزيمة قد تُلقي الرعب والوهن في قلوب ضعفاء الإيمان فتنهار الروح المعنوية في نفوسهم، وقد يكون فيما يُذاع وينشر مصلحة للعدوّ.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي ولو لم يُحدِّثوا بهذه الأخبار وأوكلوا أمرها إلى النبيّ محمد ﷺ حتى يُحدِّث بها ويظهر حقيقتها، وإلى أُولي الأمْر وهم أهل العلم والفقه في أمور الدولة والخبراء العسكريّون **﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾** أي لعلم هذه الأخبار أُولئك الذين يحاولون استخراج الوقائع وإذاعتها، وعلموا ما ينبغي أن يُكتم من

هذه الأخبار وما ينبغي أن يُذاع منها **﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾** أي ولولا فضل الله عليكم بتثبيت قلوبكم على الإيمان ورحمته بما هداكم إليه من طاعته لاتّبَعَ أكثركم إغواء الشيطان ولم يَنْجُ من هذا الإغواء إلا قليل منكم تفضل الله عليهم بعقل راجح، اهتدوا به إلى الحق والصواب، وتجنبوا غواية الشيطان.

فهذه الآيات فيها توجيهات إلى الأفراد والجماعات ووسائل الإعلام بعدم نشر الأخبار الحربية وإذاعتها وحصر نشرها بمصادرها العسكرية التي هي على بصيرة بما يصلح أن يُكتم وما يصلح أن يُذاع. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى هو مواجهة ما يسمى الآن بالحرب النفسيّة التي يشنّها العدوّ ببث الإشاعات الكاذبة التي تُلْقي الوَهن والتخاذل في قلوب المؤمنين وتؤديّ بهم إلى الهزيمة.

ولمّا أمر الله بالجهاد ورغّب فيه أشدّ الترغيب في الآيات السابقة، وذكر قلّة رغبة المنافقين في الجهاد عاد في الآية التالية إلى الأمر بالجهاد، فقال تعالى: **﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** هنا خطاب للنبيّ ﷺ ويشمل أُمّتَهُ لأنه لم يَرِدْ في القرآن أن الجهاد فُرض عليه دون أُمّته، والمعنى: قاتل يا محمد ومعك المؤمنون في سبيل الله **﴿لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾** أي لا تُؤاخذ إلّا بفعلك، ولا تُؤاخذ إلّا به دون فعل غيرك **﴿وَحَرِّضِ المُؤْمِنِينَ﴾** أي حُثّهم على الجهاد في سبيل الله ورغِّبهم فيه بذكر ما فيه من الثواب لمن أتى به والإيمان بوعد الله بالنصرة والغنيمة **﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** عسى: معناها الترجّي في الأمر المحبوب، وعسى بالنسبة إلى الله رجاء محقّق الوقوع، فالله سبحانه يحثّنا ويدفعنا إلى الطمع في فضله، وقد وعد أن يمنع شدّة الكفار وسطوتهم عن المؤمنين ووعده كائن لا محالة، ولا يخلف الله وعده **﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾** والله أشدّ قوة من الكفار **﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾** وأشد عذابًا لمن عصى أمره.

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ
شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا
(٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾

شرح المفردات

يَشْفَع شفاعةً: هو التوسط لإيصال شخص إلى منفعة أو خلوص من مضرة.

نصيب منها: أي حصة من ثوابها.

كِفْلٌ: نصيب من وزرها، والوزر هو الإثم.

مُقيتًا: حافظًا.

حسيبًا: محاسبًا ومجازيًا.

الشفاعة والتحية

لا نرى سببًا من الأسباب التي تؤدي إلى النفع أو إلى دفع الضرر إلّا ونجد القرآن الكريم قد دعا إليه ورغَّب فيه، من ذلك دعوته إلى الشفاعة الحسنة مبينًا ما فيها من الأجر والثواب لفاعلها. قال الله تعالى:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها﴾ أي مَن يشفعْ بين الناس شفاعة موافقة لشرع الله يكن له فيها نصيب من الأجر. وتطلق الشفاعة على التوسُّط لإيصال شخص إلى منفعة دنيويّة أو أُخرويّة، أو الخلاص من مضرّة ما.

ولقد عرَّفَ الزمخشري الشفاعة الحسنة بقوله: «هي التي روعيَ بها حق مسلم ودُفع بها عنه شرّ، وابْتُغِي بها وجهُ الله ولم تؤخَذ عليها رشوة، وكانت في أمرٍ جائز، وليست في حدٍّ من حدود الله ولا في حق من الحقوق».

ولقد حثّ النبيّ ﷺ على الشفاعة لقضاء الحوائج ودفع المضارّ بقوله: «اشفعوا فَلْتُؤْجَروا، وليقض الله على لسان نبيّه ما أحب»[1].

﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها﴾ والكِفْل: النصيب، أي ومن يشفع ليضر شخصًا يكن له إثم من هذه الشفاعة.

فمن يشفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر لنفسه، ومن سعى بالنميمة والغِيبة أصابه إثْمٌ فيها، فالشفاعة الحسنة أثنى عليها الإسلام ورغَّب فيها، والشفاعة السيئة ذمَّها الإسلام ونفَّر منها ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ أي وكان الله على تحقيق كل شيء من الأشياء مقتدرًا وحافظًا، من ذلك قدرته على مجازاة كل إنسان بما يستحقه من جزاء، وحفظ كل شيء من الأشياء.

إفشاء السلام بين الناس

ولمّا كان من أسباب المودة والأُلفة بين الناس تبادل التحية فيما بينهم، لذا دعا إليها الإسلام بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ التحيّة: هي السلام، وأصل معنى التحية: الدعاء بالحياة، وكانت العرب قبل الإسلام تقول عند لقاء بعضهم بعضًا: حَيَّاك الله، ثم شرع الإسلام للتحية عبارة

(١) متفق عليه.

(السلام عليكم) أي الأمان والاطمئنان لك، أي أنت سليم مني فاجعلني سليمًا منك، كما أن التحية بلفظ السلام هي دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية، هذا مع العلم أن هذه الآية نزلت في سياق أحكام الحرب ومعاملة المحاربين، فمن قال لخصمه: السلام عليكم فقد أمّنه على نفسه.

أما بشأن التحية والردّ عليها فقد أوضحت الآية: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ فقد روي أنه إذا قيل لكم (السلام عليكم) فردّوا التحية بقولكم: (السلام عليكم ورحمة الله) وإذا قيل لكم: (السلام عليكم ورحمة الله) فزيدوا عليها وقولوا: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

أما قوله تعالى عن التحية ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ والرد بالمِثْلِ أن تقول لمن قال: السلام عليك: وعليك السلام، إلّا أنه ينبغي أن يكون السلام كله بصيغة الجمع وإن كان المُسلَّم عليه واحدًا، وكذلك الجواب يكون بلفظ الجمع، يقول المُسلِّم: (السلام عليكم) ويردّ التحية بقوله: (وعليكم السلام) وقد أجمع العلماء على أنّ الابتداء بالسلام سُنَّةٌ مُرغّب فيها وردّه فريضة.

وللتحية آداب منها: أن يسلّم الراكب على الماشي، والمارّ على القاعد، والعدد القليل على العدد الكثير، والصغير على الكبير، ولا بأس من التسليم على الصبيان، وأما التسليم على النساء فجائز إلا على الشابات منهن خوف الفتنة من مكالمتهن.

وقد دعا رسول الله ﷺ إلى التحية فيما بين المؤمنين بقوله: «لا تدخلون الجنة حتى تُؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تَحابُّوا، أفلا أَدُلُّكُمْ على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[1].

(١) أخرجه مسلم.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ أي أن الله كانَ محاسبًا ومجازيًا على كل شيء من أعمالكم التي من جملتها ما أمرتم به من التحية وردّها بأحسنَ منها ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ﴾ أي أنه سبحانه هو المعبود الذي لا تنبغي العبودية إلا له فلا تقصّروا في طاعته والخضوع لأمره ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[1] إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أقسم سبحانه ليبعثنكم أحياءً بعد مماتكم يوم القيامة وليحشرنكم جميعًا إلى موقف الحساب ليقضي فيه بين أهل طاعته ومعصيته، فلا تكونوا في شك فيما يخبركم به الله، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾ استفهام إنكاري لأن يكون أحدٌ أصدق من الله فيما أخبر به من جمعكم إليه يومَ القيامة وثوابه للمطيعين له وعقابه لمن يعصيه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا
(٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ
مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
(٨٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ

(١) ليجمعنكم: اللام هنا لام القسم وكل لام بعدها نون مشددة فهي لام القسم.

ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى
ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟
أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكُمْ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

شرح المفردات

فِئَتين: فرقتين.

أركسهم: رَدّهم إلى الكفر بعد الإيمان.

أولياء: أعوانًا ونُصَراء.

فإن تولَّوا: فإن أعرضوا عن الإيمان والهجرة من دار الكفر.

فخذوهم: أي خذوهم أسرى.

يَصِلون: يلجأون.

ميثاق: عهد.

حَصِرتْ صُدورهم: ضاقت صدورهم.

اعتزلوكم: تركوا قتالكم.

السَّلم: الانقياد والاستسلام.

أُرْكِسُوا فيها: وقعوا في الفتنة أشد وقوع.

ويَكُفّوا أيديهم: أي امتنعوا عن قتالكم.

ثقفتموهم: تمكّنتم منهم.

سلطانًا مبينًا: حجة واضحة.

موقف للمؤمنين تجاه المنافقين

ثـم يأتـي الكلام عن فئة من المنافقيـن اختلف المؤمنون بشـأنهم: أهُم

مؤمنـون أم منافقـون؟ فبيَّن اللهُ حقيقتهم في الآيـات التالية وما يتوجب على المؤمنيـن نحوهـم، وقبـل أن نذكـر الآيات التي وردت فيهم نذكر أسـباب نزولها:

رُوي أن النبيّ ﷺ لما خرج إلى جبل أُحد لقتال المشـركين رجع ناس ممن خرجوا معه لا يبغون قتال المشركين، فافترق فيهم أصحاب رسول الله إلـى فرقتين ففرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت الآيات في شأنهم.

وقيـل: هم أُناس تخلّفوا عن نبـيّ الله وأقاموا بمكة وأعلنوا الإيمان ولم يهاجروا فاختلف فيهم أصحاب رسـول الله ﷺ، فتولاهم ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، وتبرأ من ولايتهم آخرون فسماهم الله منافقين، وأمر المؤمنين أن لا يتولّوهم حتى يهاجروا.

يقـول الله تعالـى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِيـنَ فِئَتَيْنِ﴾ الخطاب هنا موجّه إلـى المؤمنين الذين اختلفوا في شـأن هؤلاء المنافقين، والاسـتفهام هنا هو للإنـكار بما وقع من الخلاف في شـأنهم، والمعنـى: لِمَ تختلفون في القول بكفر هؤلاء المنافقين وتفترقون في شـأنهم إلى فرقتين ﴿وَاللهُ أَرْكَسَـهُمْ بِمَا كَسَـبُوا﴾ وقـد ردهم الله إلى الكفر وأضلهم بسـبب ما اقترفـوه من أدعائهم الإيمان وإخفائهم الكفر، وبسـبب معاونتهم المشـركين ضد رسـول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين.

﴿أَتُرِيـدُونَ أَنْ تَهْـدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ﴾ أتريدون أيهـا المؤمنون أن تهدوا إلى الإسلام من كتب الله عليه الضلالة باعتبار أنه سار في طريقها وانحرف عن سـبيل المؤمنين ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَـبِيلًا﴾ ومن يخذله الله عـن دينـه ويصرفه عن هديـه فلن تجد له يـا محمد طريقًا يهديـه إلى الخير والرَّشاد.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ هؤلاء المنافقون يتمنَّوْن لكم أيها المؤمنون أن تكفروا وتجحدوا وحدانية ربكم وتصديق نبيّكم كما كفروا هم، فتكونوا كفارًا مثلهم وتستووا أنتم وهم في الشرك بالله، هذا التمني من المنافقين يدل على غلوّهم في الحقد والبغضاء وتماديهم في الضلال **﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾** أولياء: جمع وليّ وهو الصديق والحليف والنصير، فالله سبحانه نهى المؤمنين عن مصادقة هؤلاء المنافقين، وأن يتخذوا منهم نصراء حتى يصدر منهم ما يدلُّ على إقلاعهم عن النفاق والضلال، ويُهاجروا من مكة التي شاع الكفر في أهلها إلى موطن الإيمان وهي المدينة المنورة التي هاجر إليها رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين هربًا من اضطهاد الكفار لهم **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾** أي فإن أعرض هؤلاء المنافقون عن الإيمان والهجرة من مكة إلى المدينة المنورة فَأْسُروهم إن قدرتم عليهم، واقتلوهم حيث ما تمكّنتم منهم دفعًا لشرهم وردًّا لكيدهم **﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** ولا تتخذوا منهم حليفًا ولا صديقًا ولا وليًّا يتولى شيئًا من مهامّ أموركم، ولا نصيرًا تستنصرون به على أعدائكم.

هذا الحكم ليس عامًّا في كل المنافقين، وإنما هو خاصّ بتلك الفئة التي بدا منها أنها كانت تتعامل مع الكفار ضد المسلمين وظهر منها جليًّا الخيانة والكَيْد لرسول الله ﷺ.

ثم يستثني الله فئتين من المنافقين طُلب من المؤمنين أن لا يتعرضوا لهم بالقتل:

الفئة الأولى: ذكرها الله بقوله: **﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾** وهم الذين يلجأون إلى قوم بينكم أيها المسلمون وبينهم عهد أو حسن جوار، فهم بهذا الالتجاء صار حكمهم كحكم من لجأوا إليهم.

والفئة الثانية: هي التي ذكرها الله بقوله: **﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾** ومعنى حصرت صدورهم: أي ضاقت، بمعنى أنّ هؤلاء ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو أن يقاتلوا قومهم، والعرب تقول لكلّ من ضاقت نفسه عن شيءٍ من فِعْلٍ أو قَوْلٍ: قد حَصِر. فهم يكرهون أن يُقاتلوا المسلمين لحبّهم لهم، ويكرهون أن يُقاتلوا قومهم في مكة لأنهم قومهم وعشيرتهم وأهلهم، ولأنهم يخشون إن قاتلوهم أن يُلحقوا الأذى بأموالهم وذرّيّاتهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي لو شاء الله لسلّط المشركين والمنافقين عليكم وجعلهم صفًّا واحدًا في التعرض لكم بسوء، ولكن من رحمة الله بكم أن جعل منهم من يُسالمكم. وتسليط الله المشركين على المؤمنين هو أن يُقدِرهم على ذلك ويُقوّيهم عليهم إمّا عقوبةً منه سبحانه عند ظهور المعاصي بين المسلمين وإما ابتلاءً واختبارًا لإيمانهم.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي هؤلاء الذين استثناهم الله من الأخذ بالأسر والقتل اقبلوا مُسالَمَتهم إنِ امتنعوا عن قتالكم وانْقادوا للصلح والأمان معكم، واستَسْلَموا لأمركم، ودخلوا في طاعتكم **﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾** أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفة لا يأذن الله في أسرهم وقتلهم بأيّ طريق من طرق العدوان عليهم.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ هؤلاء هم أُناس من المنافقين كانوا يأتون النبيّ ﷺ فيُظْهِرون له أنهم مسلمون رياءً، ثم عندما يقابلون الكفار يقولون نحن معكم، يريدون بذلك أن يظفروا بالأمن من الجانبَيْن **﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾** والفتنة: تأتي بمعنى الكفر، والارتكاس: الارتداد والرجوع، والمعنى: أنهم كلما دُعوا إلى الكفر رجعوا إليه وعادوا **﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾** أي إن لم يعتزلوا قتالكم، ويمتنعوا عن

حَرْبكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ ويمدوا إليكم أيديَهم بالمُسالمة والصلح والأمان ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ ويمتنعوا عن إيذائكم، أي إذا لم ينفّذوا هذه الأمور المشار إليها فعندها ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أي خُذوهم أسْرىٰ ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ واقتلوهم حيث وجدتموهم وتمكّنتم منهم ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي وهؤلاء المنافقون جعلنا لكم عليهم حجة واضحة في قتلهم وأسرهم أينما لقيتموهم بسبب بقائهم على الكفر، وعداوتهم لكم وقتالكم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

شرح المفردات

فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ: عتق عبد مؤمن وتحريره من الرِّق.

دِيَةٌ: هي ما يقدمه القاتل من المال لورثة القتيل.

يصَّدَّقُوا: أصلها يتصدقوا، أي يتصدقوا بالدية بالتنازل عنها.

ميثاق: عهد.

خالدًا فيها: ماكثًا في جهنم زمنًا لا نهاية له.

أحكام القتل عن خطأ وعن عَمْد

وبعد أنْ بيَّنت الآيات السابقة أن القتال شرعه الله لرفع الظلم عن المستضعفين وردّ عدوان المعتدين، بيَّن القرآن فيما يلي حُكم وقوع القتل بين المؤمنين، سواء كان عن خطأ أو عن عمْد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾[1] هذا النفي هو بمعنى النهي الذي يقتضي التحريم، والمعنى: ما صحَّ وما ساغ ولا أُبيح لمؤمنٍ صادق الإيمان أن يقتل إنسانًا مؤمنًا بغير حق إلاّ إذا حدَثَ ذلك خطأً، لأن قتل المسلم أخاه المسلم حرام قطعًا.

ووجوه الخطأ كثيرة يضبطها عدم القصد بقتل إنسان كأن يُريد اصطياد طيرٍ فيصيب إنسانًا، أو يرمي عَدُوًّا من المشركين المحاربين فيصيب مسلمًا.

والخطأ لا يُحاسَب عليه المؤمن وليس عليه إثم القتل، وإنما يأثم من ترك التحرز وعدم الحذر من الوقوع فيه، ولكن قد يقع الخطأ فيتوجب على القاتل خطأً ما يلي:

(١) رُوِي أن هذه الآية نزلت بسبب قتل عياش بن أبي ربيعة الحارثَ بن زيد، وكان الحارث كافرًا يعذب عيّاشًا في مكة بسبب إسلامه فحقد عليه عياش. ثم أسلم الحارث بن زيد وهاجر إلى المدينة المنورة، فلمّا لقي عياش الحارث بن زيد في ضاحيةٍ من ضواحي المدينة ظن أن الحارث لم يزل مشركًا فقتله، فلمّا علم عياش بإسلامه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، قتلتُه ولم أشعر بإسلامه، فأنزل الله هذه الآية.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي من حدث منه القتل عن خطأ فالواجب عليه أن يحرِّر عبدًا مؤمنًا من الرِّقّ، وعبَّر القرآن عن نفس العبد الرقيق بكلمة ﴿رَقَبَةٍ﴾ للإشارة إلى أن الرِّقّ غِلٌّ معنوي فهو كالغل في الرقاب، ولا يليق بالمؤمن الصادق ولا يجوز له أن يسترقَّ رقاب العباد، ولكن قد يضطر إلى ذلك بالمعاملة بالمِثْلِ وهذا ما كان يحصل في الماضي القديم وفي زمن بعثة النبي ﷺ[1].

والحكمة في تحرير العبد من الرق بَعْثٌ له إلى الحياة «إذ الحرية تساوي الحياة، ولأن الرِّقَّ يُفقد الجماعة عنصرًا عاملًا فيها، فكان لا بد من تعويضها بعنصر عامل فيها، والعبد عمله لسيده، أما الحر فعمله لجماعة المسلمين»[2].

كما أن على القاتِلِ خطأً واجبات نحو أهل القتيل، وهي ما ذكرها القرآن بقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ والدِّيَة هي ما يُعطى من المال وغيره مما له ثمن إلى وَرَثَةِ أهل القتيل ترضيةً لهم، وهذه الدية يقتسمونها بينهم حسب الميراث.

وقد اتفق الفقهاء على أن الدية هي على عاقلة القاتل، والعاقلة هي عَصَبَته أي أقرباؤه من جهة أبيه. وتحميل العاقلة دفع الدية هي من باب المعاونة وهذا مما يقوي الأُلفة ويزيد المحبة بين أفراد العائلة، وتُلْزَم العاقلة بدفع الدية في ثلاث سنين كل سنة ثلثها، ولا تسقط الدِّيَة إلا في حال التنازل عنها من أهل القتيل والعفو منهم، وهي ما أشار إليها القرآن بقوله:

(١) كان الرق شائعًا في زمن نزول القرآن، والإسلام هو أول من سعى إلى القضاء على الرق في العالم بما شرع من الكفّارات، ومن ذلك تخصيص قسم من أموال الزكاة يُصرف على تحرير الأرقاء.
(٢) باختصار وتصرف عن كتاب (زهرة التفاسير) للإمام محمد أبو زهرة.

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أصلها «أن يتصدقوا» فأدغمت التاء بالصاد وقد سمّى القرآن هذا التنازل صدقة ترغيبًا في العفو.

ومقدار الدِّيَة هي مائة من الإبل لمن يملك إبلًا كما كان حال العرب في زمن النبي ﷺ، وألف دينار[1] من الذهب لمن لا يملك إبلاً، واثني عشر ألف درهم[2] لمن يملك فضة.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي فإن كان المقتول خطأً مؤمنًا وبقي في قومه الكفار، فالواجب في تلك الحالة عتق عبد مؤمن من الرِّقِّ وإطلاق حريته كفارة عن هذا القتل الخطأ، ولا تجب في هذه الحال الدية لأنها تعود على أعداء المسلمين.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي وإن كان القتيل الذي قُتل خَطأً من قوم بينكم أيها المؤمنون وبينهم عهد وذِمَّة وليسوا أهل حرب لكم فعلى قاتله أمران ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فالأمر الأول دية تُسَلَّم إلى أهله يتحملها عاقلة القاتل، والأمر الآخر تحرير عبدٍ مُؤْمِنٍ من الرِّقِّ كفّارةً لقتله الخطأ، وبذلك يظهر سموّ الإسلام في رعاية حقوق المعاهدين والذِّمِّيين.

هذا وقد ذهب جمهور من الصحابة والتابعين إلى أن دِيَة أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ كَدِيَة المسلمين إذا كانوا معاهدين وأهل ذِمَّة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فمن لم يجد عبدًا مؤمنًا ليُحرِّره من الرق وذلك لأنه لا يملك رقيقًا أو لأنه يعجز عن شرائه ليحرره، أو لعدم وجوده كما هي الحال في العصر الحاضر، فالواجب على القاتل

(١) الدينار (ذهب) = ٤,٢٥ غرامات.
(٢) الدرهم (فضة) = عند الحنفية ٣,١٢٥ غرامات، وعند الجمهور ٢,٩٧٥ غرامين.

ـ في هذه الحالة ـ الانتقال إلى البدل وهو صيام شهرين مُتتابعين وأن لا يقطعه بإفطار بعض أيامه لغير عِلَّةٍ حائلةٍ بينه وبين صومه ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تاب: تأتي بمعنى ندم، أو بمعنى: قبل الله منه توبته أي أوجب الله على القاتل الصيام ليتوب الله عليه فيما أخطأ لأن خطأه عظيم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي وكان الله ولم يزل عليمًا بما يصلح عباده فيما يكلفهم به من فرائض، حكيمًا بما يقضي فيهم من أوامره.

ثم يُبيِّن الله مبلغ الجرم وإثمه العظيم لمن يقتل مؤمنًا متعمدًا فيقول سبحانه:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ أي ومن يقتل مؤمنًا قاصدًا قتله ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ فجزاؤه الذي يستحقه على تلك الجريمة النكراء دخول جهنم لِيُعَذَّب بنارها ماكثًا فيها إلى أبد الآبدين، وبالإضافة إلى ذلك ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ وغضب الله عليه هو الانتقام منه بما أعد الله له من العقاب، واللَّعنة منه هي إبعاده سبحانه عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وهيأ الله عذابًا شديدًا لا يعلم قدره سواه.

هذه الآية كما رأينا تشتمل على أشد التهديد والوعيد بالعذاب يوم القيامة لمن يستحلّ سفك دماء المسلمين بغير حق ويشمل قتل كل بريء على وجه الأرض بغير حق مصداقًا لقوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ولقد بيّن النبي محمد ﷺ عِظَمَ الجرم لمن يَقتل مؤمنًا متعمدًا:

«لَزَوالُ الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»(١).

ويقول النبي ﷺ: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»(٢) والمقصود بالدماء القتل.

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه.
(٢) متفق عليه.

ويقول ﷺ أيضًا: «سِبَابُ المُسلم فُسوقٌ وقِتالهُ كُفْرٌ»(١)، والفسوق نقص في الإيمان، ومقاتلة المؤمن مساوية للكفر.

كما أن من أقوال النبي ﷺ في هذا الصدد: «كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمُه ومالُه وعِرْضُه»(٢).

فَلْيَرْعَوِ وليتَّعِظْ أُولئك الذين يسفكون دماء المسلمين والأبرياء بسبب الانتقام أو بداعي الغضب أو التعصب لمذهب ما، غافلين عمّا أعدَّ الله لهم من العذاب يوم القيامة.

وبجانب هذا التهديد والوعيد للقاتل عن عَمْدٍ شرع الله القِصاص له: إما أن يُقتل بناءً على رغبة أسرة القتيل، وإما أن تعفو عنه مقابل دية يدفعها القاتل لهم.

والقتل عن عمد يكون بآلةٍ من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو الرمح أو السكّين أو بحجر كبير، أو بالسمّ أو الخَنْق، كما يكون بآلة ليس من شأنها أن تقتل ولكنه قصد بها القتل.

ولننتقل إلى الكلام بشأن من قتل عامدًا هل له توبة منها؟

لقد سئل ابن عباس ﵄ عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ...﴾ فقال: إن الرجل إذا عَرَفَ الإسلام وشرائع الإسلام ثم قَتَلَ مؤمنًا مُتعمِّدًا فجزاؤه جهنم ولا توبة له. كما قال: إن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن وما نسخها شيء. وقد أيَّد جَمْعٌ من الصحابة والتابعين ما ذهب إليه ابن عباس ﵄ بأنّ من يقتل مؤمنًا لا توبة له.

فالآية التي نحن بصددها تدلّ بظاهرها على أن القاتل عمدًا لا توبة له وأنه مخلّد في عذاب النار يوم القيامة. وقد ذهب جماعة من العلماء إلى أن

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه مسلم.

القاتل عمدًا داخل تحت المشيئة الإلٰهية لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وجاء في الصحيحين عن النبي ﷺ قوله: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان»(١) كما جاء في الحديث الشريف بما رواه البخاري قصة الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم تاب فتاب الله عليه. وإن أمة محمد أَوْلى بذلك، والله أعلم.

فباب التوبة إلى الله مفتوح لكل من قصده ورام الدخول فيه لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] والقاتل بعد توبته تحت المشيئة الإلٰهية إن شاء الله عفا عنه وإن شاء عذبه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

شرح المفردات

ضَرَبتم في سبيل الله: سافرتم وذهبتم للغزو.

فَتَبَيَّنوا: فتريثوا فيما يصدر منكم ولا تعجلوا.

ألقى إليكم السلام: حيّاكم بتحية الإسلام، أو استسلم وانْقاد إليكم.

تبتغون: تطلبون.

(١) أخرجه البخاري.

عَرَضَ الحياة الدنيا: الغنيمة وهي مال الدنيا الزائل.

فَمَنَّ الله عليكم: تفضّل الله عليكم.

التثبت ممّن يُعلن إسلامه

وبعد أن تَوَعّد الله بأشدّ العذاب من يَقتل مؤمنًا متعمدًا، أمر الله بالتثبت ممّن يعلن إسلامه، والتروي في اتخاذ موقف منه، دون الحاجة للكشف عما في قلبه لأن ذلك في علم الله وحده.

وقد ورد في أسباب نزول الآية التي نحن في صددها عدة روايات مؤداها:

أن رجلًا مرّ بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنمًا وكان من قوم بين المسلمين وبين قومه عداوة وحرب، فسلَّم على المسلمين بتحية الإسلام وتلفَّظ بما يدلّ على إسلامه، فاعتقدوا أنه كافر، وأنه لم يتلفظ بما يدلّ على إسلامه إلاّ ليحمي نفسه من القتل، فعمد إليه أحدهم وقتله وساق غنمه.

أُخبر رسول الله ﷺ بذلك فحزن حزنًا شديدًا وقال: «قتلتموه إرادة ما معه» ثم توجه إلى قاتله قائلًا: «قَتَلْتَهُ وهو يقول «لا إله إلا الله» فقال قاتِلُه: «إنما قالها تَعَوُّذًا»، فقال رسول الله: «هلّا شققتَ عن قَلْبِهِ». ثم أمر رسول الله بِرَدِّ الأغنام وتحرير رقبة مؤمنة ونزلت الآية التالية بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ والضرب: السير في الأرض، والمعنى: يا أيها الذين صدَّقوا بوجود الله ووحدانيته وصدَّقوا برسالة محمد وما جاءهم به من عند ربهم إذا سِرْتم في الأرض مجاهدين في سبيل الله ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فتثبّتوا مِن حال مَن تقاتلونهم ولا تقتلوا مَنْ أشْكَلَ عليكم أمره إن كان مسلمًا مسالمًا أو عدوًّا كافرًا ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ﴾

ولا تقولوا لمن استسلم إليكم فلم يقاتلكم مُظهرًا لكم أنه من أهل مِلَّتكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ أي أنك لست مؤمنًا، وإنما أعلنت إيمانك لطلب الأمان، بل اقبلوا منه ما اعترف به من أنه مؤمن ولا تقتلوه ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تطلبون من وراء قتله الغنيمة والحصول على أمواله التي هي متاع الدنيا الزائل، وعرض الدنيا ما كان فيها من مال سريع النفاد ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ فإن الله عنده مغانم كثيرة من رزقه فهي خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام وأقرّ بإسلامه وقتلتموه ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي كنتم تُخفون إيمانكم من قبلُ خائفين على أنفسكم ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ فمَنَّ الله عليكم بإعزاز دينه فأعْلَنتم إسلامكم، فلا تنكروا أن يكون هذا الذي قتلتموه كان يستخفي بدينه خوفًا على نفسه ثم أعلن إسلامه حين علم أنكم مسلمون ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾[1] كررها القرآن للتأكيد بأن يتثبتوا من حال الذين يقاتلونهم عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إن الله عليم علمًا دقيقًا لا يخفى عليه شيء وهو سبحانه محاسبكم بمقتضى علمه.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦)﴾

(١) هناك قراءة للقرآن (فتثبتوا) بمعنى التأكد والتحقق، والمعنيان متقاربان.

شرح المفردات

القاعدون من المؤمنين: المراد بهم الذين لم يخرجوا للجهاد لعذر.

أُولي الضرر: أصحاب الأمراض والعلل التي تمنعهم من الجهاد.

درجة: منزلة عالية.

الحُسْنىٰ: الجنة.

فضيلة الجهاد في سبيل الله

ويتابع القرآن فيبيّن فضل المجاهدين في سبيل الله ومنزلتهم الكريمة العالية عند ربهم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

رُوي في أسباب نزول هذه الآية عن زيد بن ثابت قال: أملى عليَّ رسول الله ﷺ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال: فجاءه ابن أُم مكتوم وهو يمليها عليَّ، فقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت... ـ وكان رَجُلًا أعمى ـ فأنزل الله قوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وهم مَن أُصيبوا بمرض مزمن أو عاهة تمنعهم من الجهاد كالعَمىٰ والعَرج والكساح، أي لا يتساوى هؤلاء مع الذين يُقاتلون في سبيل إعلاء كلمة الله والدفاع عن دينه مُضحِّين بأموالهم وأنفسهم ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ أي فضَّل الله هؤلاء المجاهدين على القاعدين عن الجهاد المتخلِّفين عنه لِعِلَّةٍ من مَرَضٍ أو عاهةٍ درجةً، لأنهم يتساوون مع المجاهدين في النية على نصرة دين الله، لقول النبي ﷺ عند دخوله المدينة المنورة بعد غزوة تبوك: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم من مسير، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه». قالوا: «يا رسول الله وهم بالمدينة؟» قال: «نعم وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1].

(١) أخرجه البخاري.

فهذا يقتضي أن صاحب العذر يُعْطَى أجر الغازي في سبيل الله إذا كان يتمنى الجهاد لو كان في استطاعته، وفي فضل الله متسع، فيثيب على النية الصادقة ما يثيب على الفعل ﴿**وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَىٰ**﴾ ولكلّ واحد من فريقي المجاهدين والقاعدين الذين تركوا الجهاد لعذر المثوبة الحسنة وهي الجنة لحُسْن عقيدتهم وإخلاصهم لربهم ﴿**وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ**[1] **أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أي وفضَّلَ اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين وهم الذين لم يكن لهم عذر يمنعهم من الجهاد، فَضَّلَ الله المجاهدين على هؤلاء بالأجر العظيم والثواب الجزيل والمنزلة الرفيعة، لأن المجاهدين قد عَرَّضُوا أنفسهم للمخاطر والأهوال وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، بينما القاعدون عن الجهاد التاركون له لغير عُذْرٍ قد استسلموا للكسل والترف إرضاء لشهواتهم.

فالله سبحانه فَضَّلَ المجاهدين على القاعدين عن الجهاد بعذر درجةً، وفَضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين عن الجهاد بغير عذر درجات.

﴿**دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً**﴾ والدرجة هنا مستعارة للعلوّ المعنوي والمراد بها علوّ الفَضْل ووفرة الأَجْر الحسن، فالله سبحانه يرفع المجاهدين درجات ويُقَرِّبهم إليه فيكونون في مرتبة الصدّيقين والأنبياء والصالحين، لأنهم تعرضوا للاستشهاد في سبيل الله فيكون لهم المقام العالي والمنزلة الرفيعة

(١) هناك معنى بليغ أشار إليه العلّامة الشعراوي ننقله عنه بتصرف من تفسيره للقرآن حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن مقابل (القاعدين) في الآية الكريمة (المجاهدون) لكن في مفهوم اللغة والناس أن مقابل (القاعدون) هم (القائمون). ولكن ما الحكمة في مجيء (المجاهدين) مقابل (القاعدين)؟ الحكمة من ذلك هي أن الله يريد أن يبيّن أنه في بداية الإسلام أن على كل مؤمن حين يدخل الإسلام أن يعتبر نفسه جنديًا في حالة تأهب، فالمسلم لم يكن في حالة استرخاء بل في حالة تأهب وكأنه واقف دائمًا ليلبي نداء الله، وكأن القاعد المتقاعس عن الجهاد ليس في صفوف المؤمنين.

عند الله، وقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة أَعَدَّها اللهُ للمجاهدين في سبيله ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السماء والأرض»[1].

كما أن لهؤلاء المجاهدين ﴿**وَمَغْفِرَةً**﴾ والمغفرة من الله هي التغطية على ذنوب المجاهدين والعفو عنها وذلك لأن الحسنات يُذهبن السيئات، وأيُّ الحسنات أعظم منزلةً من بذل النفس في سبيل الله. وكذلك فإن لهم ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ فرحمة الله تنزل بالمجاهدين وتغمرهم في الدنيا والآخرة.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ والغفور من أبنية المبالغة، أي كان الله ولا يزال كثير الغفران لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم، واسع الرحمة بهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً
فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا
ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ
مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ
يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

(١) أخرجه البخاري.

شرح المفردات

تَوفَّاهم الملائكة: تقبض أرواحهم عند استيفاء آجالهم.

ظالمي أنفسهم: أي ظلموا أنفسهم بتعريضها لعقاب الله لتركهم الهجرة لنصرة الرسول ﷺ.

مُستضعفين: عاجزين عن القيام بما وجب عليهم.

لا يستطيعون حيلة: لا يجدون وسيلة للوصول إلى غايتهم.

مُراغَمًا: مُتَحوَّلًا يتحول إليه ومكانًا يستقرّ فيه.

وسعة: أي في رزقه.

وقع أجره على الله: ثبت ثوابه عنده.

دعوة المؤمنين إلى الهجرة من أوطانهم في حال اضطهادهم

وبعد أن ذكر الله في الآية السابقة فضْل المجاهدين في سبيله على غيرهم ممن لم يجاهدوا، بيّن سبحانه في الآيات التالية حال أُناس من أهل مكة أسلموا وشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وكانوا يخفون إسلامهم ولم يهاجروا، بل ظلوا ضمن المشركين يعيشون في كنفهم. فلمّا خرج المشركون إلى بدر لقتال المسلمين أخرجوهم معهم فأصيب بعضهم بجراح وقُتِلَ البعض الآخر، فقال المسلمون في المدينة المنوّرة: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين فاستغفروا لهم، فنزلت الآيات التالية تُبيِّن حقيقة أمرهم وما يتوجب عليهم:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ توفّاهم: أصلها تتوفاهم حُذفت إحدى التاءين تخفيفًا، والمقصود بالملائكة التي توفّتهم ملك الموت وأعوانه ﴿**ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ**﴾ أي في حال ظلمهم لأنفسهم حيث أسلموا وآثروا البقاء بين ظهراني المشركين في مكة وتحملوا الذل والهوان منهم، ولم

يهاجروا إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم، هؤلاء الظالمو أنفسهم تسألهم الملائكة سؤال توبيخ عند قبض أرواحهم ﴿**قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ**﴾ أي في أي حالةٍ كنتم من أمر دينكم؟ فيجيبونهم: ﴿**قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ**﴾ أي قالوا معتذرين: كنا نعيش في بلد مقهورين أذِلّاء تحت أيدي المشركين وكانوا يحولون بيننا وبين إقامة شعائر ديننا، وهذا الاعتذار منهم ينمّ عن ضعف نفوسهم، لذا تقول لهم الملائكة: ﴿**قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا**﴾ والاستفهام هنا إنكاري، والمعنى: أَلَمْ تكن أرض الله واسعة، فلماذا لم تهاجروا منها إلى أرض الله الواسعة حيث تنضمّون إلى جماعة المؤمنين فيقوون بكم وتنالون العزة بهم؟ وعندئذ تستطيعون إقامة شعائر دينكم بحرّيّة وأمان. هنا توجيه للمؤمن بأنه إذا أقام في بلد يُضطهد فيه ويُفتن فيه عن دينه فعليه الرحيل منه إلى بلد يعيش فيه بحرّيّة وكرامةٍ ويمكنه إقامة شعائر دينه بأمان ﴿**فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾ أي فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة أن يقيموا في جهنم ويستقروا فيها، وهي المكان الذي يَؤُوُون إليه، وبئس هذا المأوى الذي يصيرون إليه.

ثم يستثنى من هذا المصير السيئ الذين لا يستطيعون الهجرة وهم:

﴿**إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**﴾ وأول هؤلاء: ضعفاء الرجال من الشيوخ الهَرِمين والمرضى وذوي العاهات. وثانيهم: النساء اللاتي لا يستطعن الخروج من مكة إما لثقلهن بالأولاد، وإما لخشيةٍ من خطورة الطريق، وإما لعدم وجود زوج يصحبهنّ، أو عدم وجود ذي رحم محرم كالعم والخال. ثالثهم: الولدان وهم الذين ليس لهم آباء يتبعونهم وهم غير مكلفين بالهجرة وهؤلاء جميعًا ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً**﴾ والحيلة: لفظ عامّ يشمل أنواع التخلص من المآزق، أو بمعنى قوة، أي ليس لهم

قوة تعينهم على الهجرة. وقد كان المسافر في زمن النبي محمد ﷺ يحتاج إلى خبرة ومعرفة في الطرق ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي لا يعرفون الطريق التي توصلهم إلى بغيتهم ﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي هؤلاء الذين استثناهم الله لا شيء عليهم ولا يؤاخذون في عدم هجرتهم ولهم أن يطمعوا في عفو الله. وعسى: كلمة ترجٍّ وطمعٍ في كلام الناس، والله سبحانه إذا أطمع عبدًا وصله وحقق رجاءه، فعلى المقصّرين في واجباتهم نحو الله أن يطلبوا العفو من الله رجاءً وطمعًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وكان الله وما زال كثير العفو عن عباده فيما وقعوا فيه من تقصير في حقه، كثير المغفرة لمن تاب وأقلع عن ذنوبه.

ثم رغّب الله في الهجرة في سبيله بقوله:

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي ومن يُهاجر في سبيل الله من أرض الكفر إلى مكانٍ يأمن فيه على نفسه وماله ودينه يجد في الأرض ﴿مُرَاغَمًا﴾ أي مُتحوّلًا يتحول إليه من أرض إلى أرض ومكانًا يسكن فيه ومبتغى لمعيشته، كما أنه يجد سعةً في الرزق وسعة في البلاد ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ومن يخرج من بيته مُهاجِرًا إلى بلد حيث أمر الله ورسوله بالهجرة إليه لإعلاء كلمة الله والفرار من الفتنة في الدين، والسلامة من المعاصي ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ ثم ينزل به الموت قبل أن يبلغ مقصده ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فقد ثبت ثوابه عند الله وحق له الأجر العظيم عنده. هذه الآية يُروى أنها نزلت برجل بمكة يدعى جندب بن ضمرة وكان شيخًا كبيرًا مريضًا قصد الهجرة إلى المدينة المنوّرة استجابة لله ورسوله، فقال لأهله: أخرجوني من مكة، فحملوه على سرير وسافروا به فمات بمكان يقال له (التنعيم) قرب مكة، فبلغ خبر وفاته أصحاب رسول الله فقالوا: لو توفّي بالمدينة المنوّرة

لكان أتمّ أجرًا، وقال المشركون: ما أدرك هذا ما طلب، فنزلت الآية توضح الحقيقة في ذلك.

ويقاس على ما سبق أن من قصد فعل عمل صالح أو طاعة لله، ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب ذلك العمل الصالح كاملًا.

ثم يختم الله الآية بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي وكان الله ولا يزال عظيم المغفرة لمن يصدر منهم من ذنوب ثم يتوبون منها، كثير الرحمة بهم بحيث يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

والرسول محمد ﷺ أمر المسلمين بالهجرة من مكة بعد أن اشتد الأذى عليهم من الكفار فهاجر بعضهم أولًا إلى الحبشة، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنوّرة حيث لحق بهم رسول الله. ولمّا تمّ فتح مكة وأعزّ الله الإسلام لم يكن بعد ذلك من سبب إلى الهجرة، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ـ أي فتح مكة ـ ولكن جهاد ونية»[1] كما أطلق رسول الله ﷺ في موضع اسم الهجرة على هجر الذنوب والمعاصي لما يحصل في ذلك من ثواب فقال: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2].

وينقل الزمخشري في تفسيره (الكشاف) عن بعض أهل العلم قولهم: «كل هجرة لغرض دينيّ من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعةً لله أو قناعة وزهدًا في الدنيا، أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة إلى الله ورسوله وإن أدركه الموت في طريقه فأجره واقع على الله».

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ
الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ
عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ
فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا
فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ
يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي
ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

شرح المفردات

ضرَبْتم في الأرض: سافرتم.

جُناح: حرج وإثم.

أن تقصروا من الصلاة: أن تخففوا الصلاة الرباعية إلى ركعتين.

يفتنكم: ينالكم مكروه.

طائفة: جماعة.

وليأخذوا حذرهم: وليكونوا متيقظين للعدوّ.

ميلة واحدة: هجمة واحدة يقضون بها عليكم.

كتابًا موقوتًا: فريضة لها وقت معين.

ولا تَهِنوا في ابتغاء القوم: لا تضعفوا ولا تتوانوا في قتال الكفار الذين يقاتلونكم.

قصر الصلاة في السفر وصلاة الخوف

وبعد أن حثَّ الله المسلمين على الجهاد في سبيله للدفاع عن دينه وتأمين حرية عبادته بيَّن في هذه الآية التالية لمن سافر للجهاد أو هاجر في سبيل الله كيفية الصلاة فأباح للمسلمين آنذاك أن يقصروا من الصلاة بالتخفيف من ركعاتها تيسيرًا عليهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي وإذا سافرتم، وأطلقت الآية عبارة الضرب في الأرض على السفر لأن المسافر يضرب برجلِه الأرض **﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾** أي فليس عليكم حرج أو إثم أن تُنقصوا من ركعات الصلاة الرباعية فتصبح ركعتين وهي في ثلاثة مواقع: الظهر والعصر والعشاء وتبقى صلاتا المغرب والصبح على حالهما **﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وفتنة الكفار للمؤمنين هي إنزال الأذى بهم. وظاهر نص الآية اشتراك الخوف في السفر لجواز قصر الصلاة، ولكنَّ السُّنَّة النبوية أجازت أيضًا قصر الصلاة في السفر مع الأمن وفي ذلك يقول

الرسول ﷺ جوابًا لمن سـأله عن قصر الصلاة حالة الأمن: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[1].

ويختـم الله الآيـة بقولـه: ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ هذا النص فيه تأكيد لعداوة الكفار للمؤمنين للحذر منهم، وقد أكد الله سبحانه هذه العداوة بما يلي:

أولًا: ﴿إِنَّ﴾ الدالّة على التوكيد. ثانيًا: التعبير بـ(كان) الدالّة على الدوام والاستمرار. ثالثًا: وصف الكافرين بالعداوة، لأن العدوّ يطلب لعدوّه الشرّ فلا تأمنوهم. رابعًا: وصف هذه العداوة بأنها ظاهرة لا تخفى على أحد، وعلى هذا فتنبّهوا ـ أيها المؤمنون لعداوة الكفار واحذروا أن يغدروا بكم وأنتم في الصلاة.

وقصر الصلاة للمسافر إنما شُرع تخفيفًا وتيسيرًا عليه، وإنما يكون في السفر الطويل الذي فيه مشقة. وقدّر الإمام أبو حنيفة المسافة التي تُقصر فيها الصلاة للمسافر بثلاثة أيام ولياليها بِسَيْرِ الإبل ومَشْيِ الأقدام وقُدّر بمئة وواحد وعشرين كيلومترًا. وفي مذهب مالك والشافعي أن قصر الصلاة يكون بما مسافته في السفر ثمانية وأربعون ميلًا، والميل يقدّر بـ١٦٠٩ من الأمتار أي حوالي ٧٧ كيلومترًا.

وقال الإمام مالك: إن خرج إلى الصيد وهو معاشه قَصَرَ من الصلاة، وإن خرج متلذّذًا لم أستحبَّ له أن يُقَصِّرَ.

واختلف العلماء في مدة الإقامة التي إذا نواها المسافر أتمّ صلاته، فقال الإمام مالك والشافعي: إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتمّ صلاته، وقال الإمام أبو حنيفة وأصحابه: إذا نوى خمسة عشر ليلةً أتمّ صلاته، وإن كان أقلّ من ذلك قصر في صلاته.

(١) أخرجه مسلم.

صلاة الخوف

ثم ينتقل القرآن إلى بيان صلاة الخوف عندما يكون المسلمون في مواجهة العدوّ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي وإذا كنت يا محمد في أصحابك وشهدت معهم القتال وأردتَ إقامة صلاة الخوف بهم إمامًا ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي تجعلهم طائفتين فتُصلّي طائفة منهم معك وتقف الطائفة الأخرى تجاه العدوّ لمراقبته وحراسة المسلمين منه، ولتأخذ الطائفة القائمة معك في الصلاة أسلحتها حتى تكون على أُهبة القتال في حال انقضاض العدوّ عليهم ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ أي فإذا فرغت الطائفة التي تصلّي معك ـ أيها النبي ـ من السجود الثاني من الركعة الأولى فلينصرفوا للحراسة خلفكم ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ أي ولتأتِ الطائفة الأخرى التي كانت في مواجهة العدوّ للحراسة وأنت قائم، فتصلّي بهم الركعة الثانية وتسلّم بهم، وهي بالنسبة إليهم الركعة الأولى، فكان للنبي ﷺ ركعتان ولكل طائفة ركعة واحدة لا يقضون غيرها، وهناك صورة من صلاة الخوف وهي أنّ كل طائفة بعد أن تصلّي مع الإمام ركعة وتنصرف عنه تُتِمّ لنفسها الركعة الثانية.

إمّا إذا الْتحم القتال واشتدّ الخوف فيصلّي كل واحد حينئذ كيفما أمكنه ماشيًا أو راكبًا على حصانه أو دبّابته كما هو في الحروب الحديثة، مستقبِلًا القبلة أو غير مستقبلها لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]. يومئون بالركوع والسجود بقدر ما يستطيعون بحيث لا يغفلون عن العدوّ.

﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ويجب أن يكونوا دائمًا متيقظين حتى لا يباغتهم العدوّ، وليأخذوا معهم أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم إذا بادأهم

العدوّ بالقتال ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي تمنّى الذين كفروا أن ينالوا منكم على حين غفلة وأنتم واضعون السلاح جانبًا تاركون حماية أنفسكم وأمتعتكم التي فيها لوازمكم وما تحتاجون إليه في حربكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فيهجمون عليكم هجمة واحدة يكون فيها القضاء عليكم.

﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ أي لا إثم عليكم ولا حرج أن تتركوا أسلحتكم جانبًا عندما يكون بكم تأذٍّ من مطر أو مرض أو تعبٍ شديدٍ بحيث يشقّ عليكم حملها، هذا الشطر من الآية نزل بسبب عبد الرحمن بن عوف الذي كان مريضًا فوضع سلاحه جانبًا فعنَّفه بعض الناس ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ ولكن يجب أن تكونوا على حذَرٍ وتيقظ من مباغتة العدوّ لكم وبخاصة في تلك الحالة التي وضعتم فيها أسلحتكم ﴿إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ إن الله هَيَّأَ للكافرين عذابًا يهينهم ويُخزيهم ويُذلّهم.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي فإذا فرغتم من صلاة الخوف فداوموا على الإكثار من ذكر الله في كل أحوالكم سواء أكنتم قائمين أم قاعدين أم مضطجعين على جنوبكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي فإذا أمنتم وسكنت قلوبكم من الخوف فداوموا على أداء الصلاة على وجهها كما كانت تُؤَدَّى في حال السلم بإتمام ركوعها وسجودها والقيام بأركانها وسننها مع المحافظة على خشوعها.

﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ هذه الجملة جاءت ختامًا لما تقدّم من تشريع صلاة الخوف. ولا ريب أن فريضة الصلاة كما رأينا لا تسقط حتى في ميدان القتال وترقّب الالتحام مع الأعداء، وما ذلك إلّا لأنها فريضة ذات منزلة خاصة في الدين لا يجوز التهاون بها والغفلة عنها.

وهذه الجملة وردت بمؤكِّدات شتى مما يدلّ على مكانة الصلاة وأهميتها في الإسلام، فقد جاء الكلام عن الصلاة مؤكَّدًا بحرف التوكيد ﴿إنَّ﴾ وعبّر عنها بلفظ ﴿كانت﴾ التي تدل على الدوام والاستمرار في الماضي والحاضر والمستقبل، ثم جاء التعبير عنها بوصفها ﴿كِتَابًا﴾ أي فرْضًا مقرّرًا، وجاء وصفها أيضًا بأنها ﴿مَوْقُوتًا﴾ أي أن لها أوقاتًا محددة لا بد من فعلها فيها وعدم تأجيلها وتأخيرها، وجاء الطلب على أدائها بكلمة ﴿على﴾ في قوله تعالى ﴿على المؤمنين﴾ وهو ما يفيد الإلزام والحتمية.

فالصلاة شرعها الإسلام حتى في حال الحرب، وما ذلك إلا لأن لها تأثيرًا في تقوية معنويات الجيش التي هي من الأسباب الرئيسية للنصر على الأعداء، والصلاة ما هي إلا إقرار بوحدانية الله والعبودية له والثناء عليه وطلب المعونة والهداية منه، واليقين بلقائه بعد الموت وما أعدّه من أجر وثواب للذين يقاتلون في سبيله، ما يؤثر في نفسية المحارب ويُمِدّه بالصبر والثبات والشجاعة، وهي أمور أساسية تساعد للتغلب على الأعداء.

ثم يأمر القرآن المسلمين بالصبر في صراعهم مع أعدائهم:

﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ والوهن: هو ضعف في القلب والجبن الذي يشعر به المحارب، أي لا تَضْعفوا في طلب أعدائكم وقتالهم ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي ليس ما تجدونه من ألم الجراح ومزاولة القتال مختصًا بكم بل هو أمر مشترك بينكم وبين أعدائكم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ وأن لكم على أعدائكم مزيّة لا توجد فيهم وهي أنكم ترجون من الله وتطمعون منه الأجر الجزيل وعظيم الجزاء ما لا يخطر لهم ببال، أما أعداؤكم فلا رجاء لهم في شيء ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي أنه سبحانه عظيم العلم بكل شيء، فيعلم بما فيه مصلحتكم، عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ
أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا (١٠٥) وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ
يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا
(١٠٧) يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ
مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا
يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم
مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا (١٠٩)﴾

شرح المفردات

خصيمًا: مجادلًا ومدافعًا.

يختانون أنفسهم: يخونونها بارتكاب المعاصي.

خوّانًا: كثير الخيانة.

أثيمًا: مبالغًا في ارتكاب الإثم.

يَسْتَخْفونَ: يستترون من الناس حياء وخوفًا.

يُبَيِّتُونَ: يدبّرون فيما بينهم خفية.

محيطًا: عالمًا بكل شيء.

وكيلًا: مدافعًا محاميًا يتولى أمرهم.

قصة اليهودي الذي اتُّهِم بسرقة الدرع

ثـم يعرض القرآن قضية جرت على عهد رسـول الله حيـن اتُّهم يهوديّ بالسرقة وهو منها بريء، وفي ذلك نزلت الآيات تستنكر هذا الاتهام الباطل، وتدعو المؤمنين إلى إعطاء كل ذي حق حقه ولو كان من غير ملّتهم، وهذا جانب من العدالة لم تعهده الشعوب قديمًا. ومفاد هذه القضية:

أن (طُعمة بن أُبَيْرِق) وهو من عائلة (بني ظفر) سرق درعًا من جارٍ له اسمه (قتـادة بـن النعمـان) وكان هـذا الدرع في جـراب[1] فيه دقيـق، فجعل الدقيق ينتثر من ثقب فيه. وخبأ (طعمة) الجراب الذي فيه الدرع عند رجل من اليهود اسمه (زيـد بن السمين) فالْتَمَسَ القوم الدرع عند (طُعمـة) متبعين أثر الدقيق فلـم توجـد عنده وحلف أنه ما أخذها وما له بها مـن علم، فتركوه واتبعوا أثر الدقيـق الـذي كان ينتثر مـن الجراب حتى انتهى أثر ذلك إلـى منزل اليهوديّ، فوجدوها عنده فقال اليهوديّ: دفعها إليّ (طُعمة) وشهد له جماعة من اليهود.

فقـال قـوم (طُعمـة): انطلقوا بنا إلى رسـول الله حيث سـألوه أن يجادل - أي يدافع - عن صاحبهم (طُعمة) وشهدوا ببراءته وسرقة اليهوديّ، وقالوا: إن لـم تفعـل هلك (طُعمـة) وافتُضح، وبـرئ اليهوديّ، وصـوّروا له القضية بصـورة تُخالـف الواقع، فهمّ رسـول الله أن يفعلَ كما طلبـوا منه، ولكنّ الله أطْلَعَ رسوله على حقيقة الأمر ونزلت الآيات التالية:

﴿**إِنَّـا أَنْزَلْنَـا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ**﴾ الكتاب: المراد بـه القرآن الكريم، والمعنى: أنزل الله إليك القرآن يا محمد ناطقًا بالحق ومشتملًا عليه، والحق هـو الأمـر الثابت الذي لا ينقضـه واقع آخر ولا يأتيه الباطـل ﴿**لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ لتحكم أيها النبيّ بين الناس جميعًا لا بين المؤمنين فقط، فإذا كان

(١) جراب: كيس أو وعاء يكون عادة من جلد.

الحق مع المسلم فيجب أن تحكم لمصلحته وإذا كان الحق مع غير المسلم فيجب أيضًا أن تحكم لمصلحته، فلا محاباة لمسلم على أي إنسانٍ آخر إذا كان الحق في غير جانبه ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ أي بما علّمك الله وأوحى إليك، وإنما سمى الله العلم التشريعي المُنزل من عنده رؤية، لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ والخصيم: أي مخاصمًا ومدافعًا عنهم، فالله سبحانه يأمر رسوله محمدًا بأن لا يقف موقفًا لصالح الخائنين، وأن لا ينحاز إليهم قبل سماع البينات المرشدة إلى الحق، والخائنون المراد بهم هنا (طُعمة) وقومُه الذين قصدوا إلْصاق تهمة السرقة باليهوديّ زُورًا وبهتانًا.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ واطلب المغفرة من الله ـ أيها النبي ـ بما هممت به من الحكم في أمر (طُعمة) وبراءته وإدانة اليهودي حيث إنّ ظاهر الأمر أوضحَ لك ذلك، والأمر بالاستغفار للنبي في هذه القضية وما يماثلها لا تقدح في عصمة الأنبياء لأنه لم يكن من النبيّ إلا الهمّ وهو لا يوصف بأنه ذنب، ويُحتمل أن يكون المراد: واستغفر لأولئك الذين يريدون أن يدافعوا عن (طعمة) ويُظهروا براءته من السرقة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي إن الله واسع المغفرة لمن استغفره، كثير الرحمة لمن تاب من عباده، وقد أكّد الله ذلك بعدّة مؤكدات، أولها: ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد التوكيد. ثانيها: ﴿كَانَ﴾ التي تفيد الاستمرار. ثالثها: صيغة المبالغة في غفور ورحيم.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ[1] أَنْفُسَهُمْ﴾ يختانون: يخونون، والمعنى: أي ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المعاصي والآثام، فخيانتهم للغير هي خيانة لأنفسهم لأن ضرر الخيانة عائد عليهم وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾

(١) يختانون: هي من مادة افتعال في اللغة لقصد المبالغة في الخيانة.

وخوانًا وأثيمًا من صيغ المبالغة، أي إن الله لا يحب من كان كثير الخيانة مفرطًا فيها منهمكًا في الإثم، وعدم محبة الله لهؤلاء المراد منه البغض والسخط عليهم. وتأمل كيف جاء عقب وصفهم بالخيانة وصفهم بالإثم، لأن الخيانة تجرّ إلى آثام كثيرة، ومَن كان طبعه الخيانة فإنه يسرق ويكذب ويأكل أموال الناس بالباطل، فكأن الخيانة جالبة معها كل الآثام.

ويتابع القرآن الكلام عن هؤلاء الذين اتهموا اليهوديّ بالسرقة ظلمًا: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ﴾ والاستخفاء: هو الاستتار، أي يستترون من الناس كي لا يطّلعوا على خيانتهم وكذبهم ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ وهذا موقف عجيب منهم إذ كيف يستترون من الناس ولا يستترون من الله وهو معهم بالعلم والرؤية والسمع ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فالتبييت تدبير الأمر بالليل، وكل تدبير في الخفاء تبييت، فهؤلاء الذين وصفهم الله بالخيانة والإثم كانوا يدبّرون بالليل ما لا يرضاه الله للمؤمنين من اتهام البريء والحلف الكاذب وشهادة الزور حين عزموا على اتهام من لا يدين بالإسلام وتبرئة المسلم ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي أنه سبحانه يعلم أمور خلقه علم إحاطة فلا يخفى عليه شيء، وهو مطلع عليهم لا تخفى عليه منهم خافية.

ثم يوبّخ الله الذين دافعوا عن هؤلاء الخائنين بقوله:

﴿هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمجادلة: المدافعة بالقول والمناظرة لإظهار الصواب، والمعنى: يا هؤلاء الذين دافعتم عن (طُعمة) وقومه في الحياة الدنيا بسبب أنهم مسلمون ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي فمن ذا الذي يخاصم الله ويدافع عنهم يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي مَن ذاك الذي يقوم بأمرهم ويكون محاميًا عنهم إذا نزل عذاب الله بهم؟

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ
يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ
ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ
وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ
مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ
بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ
نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ
جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾

شرح المفردات

ومن يكسب إثمًا: ومن يفعل ذنبًا.

فإنما يكسبه على نفسه: فإنما يعود وبال الإثم عليه.

يرم به بريئًا: يتهم به بريئًا.

احتمل: كلف نفسه أن تحمل.

بهتانًا: كذبًا فظيعًا.

نجواهم: الحديث الذي يكون سرًّا بينهم.

معروف: هو كل ما عُرف حُسنه شرعًا وعُرفًا.

ابتغاء مرضاة الله: طلبًا لرضى الله.

يشاقق الرسول: يخالفه فيما أمر به ونهى عنه.

نُصْلِهِ: ندخله.

اتهام البريء هو من الآثام الكبيرة

وتُتابع الآيات فتفتح للعُصاة باب التوبة ليرجعوا عن خطاياهم وينالوا مغفرة الله، وتخبرهم بأن من أشدّ الآثام فداحة أن يرتكب الشخص الشر ويلصقه بغيره زورًا وبُهتانًا قال الله تعالى:

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ والسُّوءُ هو ما يكون فيه أذى للغير، أي ومن يقترف عملًا يلحق الضرر بالغير **﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾** بما يفعله من الذنوب التي يُغضب بها ربّه ويستحق بها عذابه في الآخرة **﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾** والاستغفار هو طلب المغفرة من الله وذلك يقتضي بالامتناع عن تعاطي الذنوب والندم على ما فعله منها **﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾** يجد الله ساترًا لذنوبه مُتجاوزًا عن خطاياه، رحيمًا به بقبول توبته.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي ومن يفعل ذنبًا فإنما يعود وبال ما فعل على نفسه لا يتعدى ذلك إلى غيره **﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** وكان الله ولم يزل واسع العلم بأفعال الناس، عظيم الحكمة فيما شرعه سبحانه من الأحكام **﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾** أي ومن يقترف خطيئة وهي الذنب **﴿أَوْ إِثْمًا﴾** وهو ما لا يحلّ فعله من المعصية. والفرق بين الخطيئة والإثم هو أن الخطيئة قد تكون عمدًا وغير عمد، والإثم لا يكون

إلا عن عمد ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا﴾ ثم يضيف إلى ما اقترف من الخطيئة والإثم اتهامه بذلك بريئًا ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ فقد كلّف نفسه أن يحمل وزر البهتان والإثم بافترائه على البريء، والبهتان[1]: هو الكذب والباطل الذي يُتحير من بطلانه. هنا تشبيه للخطايا والآثام بما له ثقل ووزن فهي حمل ثقيل على من يقترفها، ولـذا عبّر عنها القرآن بقولـه ﴿احْتَمَلَ﴾ وليس حمل لأن هناك مشقة ومكابدة في حملها، وهذا الشيء الثقيل هو الخطيئة التي اقترفها (طعمة) من السرقة وإلْصاق التهمة باليهودي البريء منها.

فحرمة اليهوديّ والمسيحيّ والبوذيّ المعاهد كحرمة المسلم، والمسلم الذي يقترف اعتداءً على أتْباع الأديان الأخرى، ويُلْصق بهم التهم جزافًا فهو آثم، تجري العقوبة في حقه جزاء ما اقترف، فالقرآن أنزلـه الله ليحكم به النبي ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء بالحق بين الناس جميعًا في كل قضية كما جاء في مطلع هذه الآيات ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ..﴾ فأيّ سموّ يعلو على سموّ الإسلام الذي شرعه الله لإقرار العدالة في الأرض، والتسوية بين الناس جميعًا على اختلاف مللهم؟

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ أي ولـولا فضـل الله عليك يا محمد بالنبوة والتأييد بـأنْ عَصَمَكَ الله من الوقوع في الزلل، ورحمته بك ببيان حقيقة الواقع لهمّت جماعة: وهم قوم (طُعمة) أن يُضلّوك عـن الحكم العادل بشـأن اليهوديّ، وذلك بقولهم الزور وتزكية المجرم وتبرئته ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ وهؤلاء الذين صوّروا لك الأمر خلاف الواقع وأرادوا إضلالك هم بعملهم هذا لا يُضلون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي وما يضرونك يا محمد في شيء، فقد عصمك الله من الوقوع في الزلل واتباع الهوى فيما تحكم به بين الناس ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ

(١) وباهَتَهُ: استقبله بأمرٍ يقذفه به وهو منه بريء (لسان العرب).

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ والكتاب: المراد به القرآن، والحكمة: هي السُنَّة النبوية ففيهـا مقاصد القرآن ومعانيه وبيان حلاله وحرامه وأمره ونهيه ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ وعلّمك الله ما لم تكن تعلم من أُمور الدين وأَحكام الشرع وأخبار الأولين والآخرين ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ حيث أرسلك الله لهداية البشر وجعلك خاتم الأنبياء، وأيّدك بالقرآن الذي يحتوي على شريعة عادله تنسـخ الشرائع الإلٰهية السابقة وتؤيد بعضها، وأعلى الله ذكرك، فمئات الملايين من البشر يدعون لك بالرحمة في صلاتهم بقولهم (اللهم صل على محمـد) والصلاة من الله هي الرحمة، أي اللهم أرحم محمدًا وعظِّمه بإعلاء ذكره وإظهار دينه. ومِنْ فَضْلِ اللهِ عليكَ يا محمد تأييده لك بإنشـاء خير أُمة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وبعد أن استنكر القرآن ما كان يفعلـه قوم (طُعمة بن أبيرق) في الخفاء مـن تدبير ظالم باتهام البريء وتبرئة السـارق انتقل القـرآن إلى بيان المنهج السليم الذي يجب أن يسير عليه المؤمنون بقوله تعالى:

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ النجوى: هي كلام السر بين الاثنين أو الجماعة، أي لا خير في كثير من الكلام فيما يتناجى فيه الناس، ثم استثنى القرآن من التناجي الذي ليس فيه خير، الأمور الثلاثة الآتية التي هي خير:

أولًا: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي أن التناجي المحمود هو الأمر بالصدقة، وهي التبرع بالمال لفعل الخير لمساعدة الضعيف، وإمهال المدين المعسر أو ترك المطالبة بالدَّيْن والعفو عنه للمعسرين.

ثانيًا: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ والمعروف: اسم لكل فِعْلٍ يُعرَف بالعقل أو الشرع حُسْنُه وهو يشـمل جميع أنواع البرّ، ومن المعروف: إغاثة الملهوف وإعانة المحتـاج والإنفـاق على الجمعيات الخيرية، والمعـروف يُقابله المنكر وهو كل ما يضرّ بالإنسان والمجتمع.

ثالثًا: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ والإصلاح بين الناس متعدد الأهداف، فقد يكون في الدماء والأعراض والأموال ليحل الوئام وينتفي الخصام.

وقد حضَّ القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا أفرادًا أم جماعات، لأن التنازع والتخاصم قد يؤدي إلى الاقتتال وسفك الدماء، فقد جاء في القرآن ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا...﴾ [الحجرات: ٩].

ثمَّ بيَّن الله عاقبة من يقوم بفعل هذه الفضائل بقوله:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ أي ومن يفعل هذه الفضائل التي ذُكرت طلبًا لرضاء الله ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي فسوف يعطيه الله أجرًا كبيرًا لا يعرف مقداره إلا الله.

وفي تقييد الفعل بكونه ابتغاء مرضاة الله حَثٌّ على إخلاص النية لوجه الله، والأعمال تُقبل عند الله حسب النيات وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] وإذا صاحَبَ الأعمال رياء أو طلب منفعةٍ أو جاهٍ أو حب للظهور، بطل ثواب ذلك العمل وانتفى نفعه.

والتعبير ﴿بِسَوْفَ﴾ عن الأجر لتأكيد وقوعه في المستقبل لأن مناط الجزاء يكون في الآخرة.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ والمُشاقَّة: العداوة والخلاف بين فريقين، أي ومن يخالف الرسول محمدًا فيما جاء به من دين الله ويعاديه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي من بعد ما ظهر له الحق واضحًا وقام له الدليل على صحة الإسلام ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] أي يتبع غير طريقهم وما

(١) متفق عليه.

(٢) هذه الآية استنبط منها أحد الفقهاء أن إجماع المؤمنين حجة وأن أتباع سبيل المؤمنين واجب.

هم عليه من دين الإسلام والتمسك بأحكامه في الاعتقاد والعمل ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي نتركه وما اختار لنفسه ونكله إلى ما توكل عليه ونجعل ناصره وما استنصر به من غير الله بما لا يدفع عنه من عذاب الله شيئًا ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ ونلزمه جهنم ليذوق بها عذاب الحريق ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وبئس المرجع أن يكون مصيره عذاب جهنم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ
لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١١٦) إِن
يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا
مَّرِيدًا (١١٧) لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ
ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ
ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا
مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا (١٢٠) أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا
(١٢١) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾

شرح المفردات

ما دون ذلك: ما سوى الشرك من المعاصي.

ضلالًا بعيدًا: أي يبعد عن الحق بُعْدًا عظيمًا.

يَدْعون: يعبدون.

مَرِيدًا: البالغ الغاية في الشر والفساد.

نصيبًا مفروضًا: حظًّا مقدّرًا معلومًا من الناس.

فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام: تبتيك آذان الأنعام: تقطيعها أو شقها.

غُرورًا: خداعًا وباطلًا.

محيصًا: مهربًا.

الشرك بالله وبعض مظاهره

ثم تأتي الآية التالية مبيِّنة مبلغ الإثم لمن يشرك بالله، ممهدة لما بعدها من الآيات التي وصفت بعض أحوال الشرك الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ إن الله لا يغفر لأحدٍ أن يشرك به سواه، لأن الشرك إلغاء لمعنى الوحدانية التي هي سمة الإسلام وروح العبادة ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلك لِمَنْ يَشاءُ**﴾ وأنه سبحانه قد يغفر لمن يشاء من المذنبين ما دون الشرك بالله حسبما تقتضيه حكمته في العفو، فالتوبة الصادقة وكثرة الحسنات مدخل لمغفرة الله تلك الذنوب ﴿**وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا**﴾ وإن الذي يخالط الشرك بالله قلبه فقد ضلّ عن طريق الهدى ضلالًا بعيد المدى وبذلك يُحرم من الخير كله.

والشرك بالله هو اقتران عبادته بعبادة غيره من أصنام أو حيوانات أو قبور أو أجرام سماوية أو اتخاذ البشر والرسل آلهة، أو الكفر به مطلقًا، وإنكار وجوده. وإنما ذُكر الشرك في هذه الآية لأنه كان الاعتقاد السائد

في الجزيرة العربية التي نشأت فيها الدعوة الإسلامية، فقد كان لأهل كل دار في مكة صنم يعبدونه، كما كان من العرب من يعبد الشمس والقمر والملائكة والجن.

والشرك بالله يجلب من المساوئ للإنسان ما لا تجلبه عقيدة أُخرى، فهو فضلًا عن مناقضته للعقل والمنطق يجعل الأذهان خاضعة لقبول كل الأوهام والخرافات التي تستَعْبِدُ الإنسان وتؤدي إلى شقائه في الدنيا والآخرة.

ثم بيَّن القرآن جانبًا من الشرك بالله الذي كان عليه العرب قبل الإسلام قال الله تعالى: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلّا إِنَاثًا**﴾ «إن» بمعنى «ما»، ويدعون: بمعنى يعبدون، لأن من عبد شيئًا فإنه يدعوه عند احتياجه إليه، والمعنى: ما يعبد هؤلاء المشركون من غير الله إلّا إناثًا. ولكن ما المراد بكلمة الإناث؟ قيل: هي الأصنام التي كانوا يسمّونها باسم الإناث مثل صنم اللات وهو تأنيث لفظ الله، والعُزّى: وهو تأنيث لفظ العزيز. هذا وقد كان لكل حيّ من أحياء العرب صنم يسمونه أُنثى بني فلان ويعبدونه.

وقيل: المراد بالإناث الملائكة، لأن بعض العرب كان يعبد الملائكة ويقولون عنها: الملائكة بنات الله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ **وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا** ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقيل: الإناث بمعنى الأموات.

﴿**وَإِن يَدْعُونَ إِلّا شَيْطانًا مَرِيدًا**﴾ أي ما يعبد هؤلاء في الواقع إلا شيطانًا شرّيرًا عاتيًا خارجًا عن طاعة الله وهو إبليس، إذ هو الذي أغراهم بعبادتها فكانت طاعتهم له عبادة ﴿**لَعَنَهُ اللهُ**﴾ أي طرد الله إبليس من جنته وأبْعده عن رحمته لتمرُّده واستكباره عن طاعة ربه ﴿**وَقالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا**﴾ وقال إبليس حين لعنه الله: لأجعلنَّ حصة مقدَّرة معلومة من عباد الله تحت إغوائي وفي جانب إضلالي وهم الذين اتبعوا خطواتي

وانقادوا لِوَساوسي ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ وأقسم الشيطان بأنه سيضل عباد الله ويبعدهم عن طريق الحق ويُمَنِّيهمْ بالأماني الباطلة: كعدم البعث يوم القيامة وأنه لا جنة ولا نار، ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب، كما يُزَيِّنُ لهم المضيّ في المعصية بدون توبة ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ والبتك: القطع، أي ولآمرنَّهم بتقطيع آذان الأنعام امتثالًا لأمري، وقد فعل الكفار ذلك امتثالًا لأمر الشيطان. وكان العرب قبل الإسلام إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرًا قطعوا أذنها وحرموا أنفسهم الانتفاع بها وجعلوها للطواغيت وسمّوها بَحيرة يفعلون ذلك تقرّبًا للأوثان ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ قيل: المراد بذلك تغيير دين الله بتبديل الحرام حلالًا والحلال حرامًا. وقيل: خصاء العبيد والوشم والتخنث، وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن والعكس كما قال النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ المتشبهينَ من الرِّجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»(١) وكذلك الواصلة وهي التي تصل شعرها بشعرٍ آخر يكثر به ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ﴾ أي ومن يجعل الشيطان وليًا له فيطيعه ويدع أمر الله ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ أي خسر خسرانًا واضحًا ظاهرًا لأن طاعة الشيطان توصله إلى نار جهنم وهي غاية الخسران.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي يعد الشيطان أتباعه بالوعود الخادعة، ويُمنّيهم بالأماني الكاذبة كطول العمر، ونيل مراده من الدنيا من نعيمها ولذّاتها ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ والحال أنّ الشيطان ما يعِدُهم إلا بالأمور الخادعة التي يُغريهم بها ويُهيئ لهم أنّ فيها نفعًا، والحقيقة أنها ضرر محض، فوعوده باطلة لا يُرجى منها خير ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي هذا الفريق الذي اتخذ الشيطان وليًّا: مرجعهم ومستقرّهم جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ ولا

(١) أخرجه البخاري.

يجدون عن جهنم عندما يصيرون إليها يوم القيامة معدلًا يعدلون عنها إلى غيرها، ولا مهربًا يُنجيهم من عذابها، ثم يبيّن الله مصير المؤمنين في الآخرة:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية الله وبنبوّة محمد ﷺ وأدّوا الفرائض التي فرضها الله عليهم وقاموا بالأعمال الخيّرة التي فيها صلاح للمجتمع ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي سيدخلهم الله يوم القيامة بساتين تجري من تحت مساكنها وأشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي باقين في هذه الجنات أبد الدهر لا يبرحونها ولا يتحولون عنها ﴿وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ أي هذا الوعد من الله لهم هو وعد حق والله لا يخلف وعده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾ أي ولا أَحَدٌ أصدق من الله وعدًا فهو الذي إذا وعد وفى.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ
سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
(١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا
(١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
مُّحِيطًا (١٢٦)﴾

شرح المفردات

أمانِيّكم: جمع أُمنية وهي ما يَوَدُّه الإنسان ويشتهيه.

نقيرًا: قدر النقرة في ظهر نواة البلح.

ملة إبراهيم: شريعته الموافقة للإسلام.

خليلًا: صفيًّا.

حنيفًا: الحنيف هو الذي يميل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام.

كل إنسان يجازى بعمله

ذكرت الآيات السابقة أن الشيطان يُلْقي في أذهان الناس الأماني الباطلة، ومن الأماني الباطلة ما يراود بعض الأذهان بأن انتسابهم إلى دين ما يجعلهم في منأى من العقاب على سيّآتهم، وفي الآية التي نحن بصددها تبين الحقيقة في ذلك ليكون الناس على بصيرة من أمرهم فلا يسيرون وراء الأماني الباطلة.

وقد رُوي عن ابن عباس ﷺ قال: قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان منّا، وقالت قريش: ليس نُبعث، وهناك رواية أخرى تقول: تَفاخَر المؤمنون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ونحن أحق بالله منكم، وقال المسلمون: نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على سائر الكتب، فنزلت الآية الكريمة الآتية:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والأماني: جمع أُمنية وهي ما يَوَدُّه الإنسان ويشتهيه. والمعنى: ليس ما وعد الله به من الثواب أو إدخال الجنة يحصل بمجرد أمانيكم أيها المسلمون وأماني أهل الكتاب، وإنما يحصل بطاعة الله والعمل الصالح، وأنه **﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾** أي من يرتكب معصية سواء كان مؤمنًا أو كافرًا يجازه الله عليها **﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾** أي هذا الذي ارتكب المعصية لا يجد له وَليًّا غير الله يَلِي أمره، كما لا يجد له نصيرًا ينصره ويدفع عنه عقاب الله على عصيانه له.

فيا أيها المسلمون ليست المسألة مسألة أمانٍ وتمنيات، ولكنها مسألة عمل صالح تُجازون عليه وتتقربون به إلى الله، أو عمل سيئ تعاقَبون عليه، وانتسابكم للإسلام لا يُعفيكم من المجازاة على سيئاتكم، فكم من أُناس يعيشون دنياهم ولا يصنعون فيها حسنة، وإذا قيل لهم: لماذا تعيشون الحياة بلا عمل صالح؟ قالوا: أَحْسَنَّا الظنّ بالله، لِهؤلاء يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل، إن قومًا غرّتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نُحسن الظن بالله وقد كذبوا، إذْ لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له.

ثم يبيّن الله مصير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بقوله:

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا القسم من الآية على قلّة كلماته يتضمّن أمورًا عدّة:

أولها: قوله تعالى **﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾** وحرف «مِن» للتبعيض، أي يعمل بعض الأعمال الصالحة، لأن المسلم لا يستطيع أن يعمل جميع الأعمال الصالحة، والمطلوب منه أن يعمل من الصالحات على قدر إمكاناته ومواهبه.

ثانيها: قوله تعالى **﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾** فَذِكْرُ الإناث بجانب الرجال في القيام بالأعمال الصالحة إشعار بكمال إنسانية المرأة وأنها مساوية للرجال في الحقوق والواجبات إلاّ في بعض الأمور التي اختصّ الله كلّ واحد منهما بحكم، وفي هذا يكون الإسلام قد رفع من شأن المرأة على حين كانت عند العرب في الجاهلية وعند كثير من الشعوب منبوذة محتقَرة ليس لها من الحقوق شيء.

ثالثها: قوله تعالى **﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** هنا يشترط الله سبحانه لقبول الأعمال الصالحة أن يكون فاعلها متصفًا بالإيمان بالله وقاصدًا وجهه الكريم، فالثواب من الله ليس على مجرّد العمل بل يجب أن يصاحبه النية للتقرب إلى الله

بعمله، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»[١].

وهؤلاء المتصفون بما سبق ذِكْرُه مصيرهم في الآخرة ﴿**فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**﴾ أي يدخلون الجنة وهي دار النعيم جزاءً على إيمانهم وعملهم الصالح ولا يُنْقَصون شيئًا من ثواب أعمالهم مهما كان ضئيلًا ولو كان بقدر (النقير) وهو العلامة التي تكون في ظهر نواة البلح فتظهر كثقب صغير، ويَضْرِبُ العربُ المَثَلَ بها في القِلَّة.

﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله**﴾ والاستفهام هنا للنفي، أي لا أحد أحسن في الدين ممن أخلص نفسه لله، فلم يعرف لها ربًّا سواه ولم يتوجه إلى غيره في دعاء، ولم يجعل بينه وبين ربه حجابًا من الوسطاء، وإسلام الوجه لله كناية عن تمام الطاعة له والاعتراف بربوبيته وهو أحسن الكنايات تعبيرًا عن الإخلاص لله، لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء وفيه العقل الذي به يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ وإسلام الوجه لله قَرَنه سبحانه بالإحسان بمعنى: فاعل للحسنات أو قائم بالأعمال الصالحة على وجه الإتقان ﴿**وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ بالإضافة إلى ذلك اتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام موحّدًا لله مائلًا عن الأديان الباطلة ﴿**وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا**﴾ أي اصطفاه وخصّه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله، والخليل هو المحب الذي ليس في محبته خلل، أي أحبّه محبّة تامّة لا خلل فيها وقد كان إبراهيم عليه السلام محبوبًا من الله مُحبًّا له. وجاء في تفسير (التحرير والتنوير)[٢] أن اتّخاذ الله إبراهيم خليلاً شِدة رضى الله عنه، إذ الخلّة الحقيقية تستحيل على الله، فأريد بها لوازمها وهي الرضى.

(١) متفق عليه.
(٢) للإمام محمد الطاهر ابن عاشور.

﴿**وَلله مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَما فِي الأَرْضِ**﴾ أي أنّ كلَ ما في السماوات والأرض من الكائنات الحية وغيرها من جماد هي لله خَلقًا ومُلكًا وتدبيرًا ﴿**وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شيءٍ مُحِيطًا**﴾ وإحاطة الله كناية عن علمه بهذا الكون وقُدْرته عليه، وفي هذا تقرير لوجوب طاعته، فمن أطاع الله وأخلص له فقد أخلص للقويّ القادر على كل شيء وهو وحده المستحق للعبادة.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ
مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا
نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ
وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟
أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ
ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا
مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾

شرح المفردات

يَسْتفتونك: يسألونك الحكم الشرعي

بالقِسْطِ: بالعَدْلِ في الميراث والأموال.

بعلها: زوجها.

نُشوزًا: النشوز هو أن يتجافى عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته ومودّته.

جُناح: حرج.

إعْراضًا: هو أن يقلّل محادثتها ومؤانستها.

وأُحْضِرت الأنفس الشُّحّ: جُبِلَت على الإفراط في الحرص والبخل فكأنه حاضر في الأنفس ملازم لها.

فتذروها: فتتركوها.

كالمُعَلَّقَة: هي المرأة التي ليست مطلقة ولا صاحبة زوج.

يُغْنِ اللهُ كلاً من سَعَته: يغنِ الله كِلَيْهما من غِناه الواسع.

حقوق النساء واليتامى والولدان

في مطلع سورة النساء نرى الدعوة إلى العناية باليتامى والنهي عن أكل أموالهم بالباطل، وإعطاء الزوجة حقها في المهر، كما بينّت السورة أحكام المواريث وحصة المرأة والأولاد من الميراث. والآية القرآنية التي نحن في صددها تجيب عن بعض التساؤلات في تلك الأمور التي كان البعض يطلبون الفتوى فيها قال الله تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ والاستفتاء: طلب الفتوى، والإفتاء: إظهار المُشكل من الأحكام وتبيينه، والمعنى: ويسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم في أمر النساء فيطلبون منك بيان ما يَشْكُلُ عليهم من أحكامهن وما يجب للنساء من حقوق وما يكون عليهن من واجبات **﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾** أي قُلْ لهم يا محمد إنّ الله يُفتيكم فيهن، ويبيّن لكم الحكم الشرعيّ

الذي تسألون عنه **﴿وَما يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾** ويفتيكم الله بالذي يُتلى عليكم من القرآن. وحاصل الكلام أنهم قد سألوا رسول الله عن أحوال كثيرة تتعلق بالنساء فما كان منها غير مبيَّن الحكم فيه ذكر أن الله يفتيهم فيه على لسان رسوله محمد، وما كان مبيّن الحكم في آيات القرآن التي نزلت سابقًا أحالهم إليها.

﴿فِي يَتامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي الله يُفتيكم أيضًا في النساء اليتامى اللاتي لا تعطوهن أيها الأوصياء ما فُرِضَ لهن من الميراث والمهر، بل الواجب تقوى الله فيهن، فإنّ أكل مال اليتيم فيه الوعيد الشديد عليه فضلًا عن كون اليتيم امرأة لا ناصر لها **﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾** وترغبون في الزواج بهن لجمالهن وأموالهن أو تنفرون من الزواج بهن لقبحهن وتمنعوهن من الزواج بغيركم رغبة في أموالهن، وحذف حرف الجر بعد **﴿تَرْغَبُونَ﴾** من بلاغة القرآن وذلك أنّ كلمة **﴿تَرْغَبُونَ﴾** إذا جاء بعدها حرف الجر (في) يكون معناها الطمع والحرص على الشيء، وإذا جاء بعدها حرف الجر (عن) يكون معناها ترك الشيء والزهد فيه، وإذا حذف (في) و(عن) من رغب احتمل المعنيين رغبة فيها أو نفرة عنها. فقد كانت اليتيمة قبل الإسلام تكون في كنف وليها: فإذا كانت جميلة يرغب فيها ويتزوجها ويستولي ما معها من المال، وقد تكون اليتيمة دميمة، فيرغب عنها وليها ولا يتزوجها، ويمنعها من الزواج حتى تموت ويستولي على مالها، فنهى الله عن ذلك وأمر بالعدل بينهن.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ﴾ أي الله يفتيكم أيضًا في شأن المستضعفين من الأولاد الصغار بأن لا تحرموهم حقوقهم من الميراث، لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورّثون الصغار، فجاء الإسلام وأثبت لهم حقًّا في الميراث كالكبار **﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾** واليتامى تشمل

الذكور والإناث، أي أن تقوموا على رعايتهم بالعدل فلا تظلموهم، وأن تسهروا على رعايتهم وإصلاح حالهم وتعهّدهم بالعطف والمحبة والإكرام، وأن تحافظوا على أموالهم وتؤدوها لهم عند بلوغهم سن الرشد.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ وما تفعلوا أيها الأوصياء من خير في إعطاء هؤلاء الضعفاء من الولدان واليتامى حقهم فإن الله عليم بأفعالكم، ويجزيكم خير الجزاء.

ويتابع القرآن فيوصي بالزوجات خيرًا بقوله:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الخوف: هو توقُّع الإنسان مكروهًا ينزل به وهو المراد به هنا. والبعل: هو الزوج. والنشوز: بمعنى الاستعلاء والتعالي، ويُوصف به الرجل والمرأة. والنشوز من الرجل هو استعلاؤه بنفسه على زوجته وترفُّعه عن صحبتها كراهةً منه لها ومنعًا لحقوقها ومجافاةً لها بترك مضاجعتها، والتقصير في الإنفاق عليها إما لدمامتها، وإما لكبر سنّها، أو بسبب إهمالها لمنزلها إلى غير ذلك من الأسباب.

والإعراض: هو أن لا يؤانسها بحديثه وأن يصرف وجهه عنها، والإعراض أخفّ من النشوز. والمرأة إذا لاحظت النشوز والإعراض من زوجها فإنها لا تقابله بمثل ذلك، فإن ذلك يوسّع الهوّة بينهما. والعلاج في ذلك يوضحه القرآن: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي فلا حرج ولا إثم على الزوجة فيما تفعله لإصلاح ما بينها وبين زوجها من إعفائه من بعض مهرها أو فيما تعطيه له من مالها، أو فيما تتنازل له من نصيبها في المبيت عندها لضرّتها الشابّة، أو أنّ الرجل تكون له الزوجة الكبيرة فيتزوج عليها المرأة الشابّة ويكره أن يفارق أُمّ ولده فيصالحها على عطيّة من ماله، أو يتصالحا على أنّ لها يومًا في المبيت عندها وللزوجة الشابّة يومين أو ثلاثة فترضى بذلك ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وقد رتب القرآن على الصلح بأنه خير من

الطلاق وبالأخصّ عند وجود الأولاد، والصلح خير من الخصام المستمرّ ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ والشحّ: أشدّ البخل، وقيل: البخل مع الحرص، والمعنى: إنّ الشحّ حاضر في الأنفس ملازم لها لا يغيب عنها لأنه من طبعها، فكلٌّ من الزوجين يبخل بنصيبه على الآخر، فالمرأة لا تتسامح ولا تتنازل عن شيء من حقها، والرجل لا يتنازل أيضًا عن شيء من حقه، وعندها يقع التصادم المؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه، لذا إذا رغب الزوجان في إبقاء الحياة الزوجية بينهما فعليهما أن يخالفا ميولهما وطبائعهما ويتنازل كلٌّ منهما عن بعض حقوقه تفاديًا للأسْوأ، وعندها تستقيم الأمور وينتهي الوضع إلى الصلح بينهما ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تحسنوا أيها الأزواج الصحبة والعشرة مع زوجاتكم وتتقوا الظلم بهن لأنهن أمانة عندكم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي إن الله لا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم عليها بالخير خيرًا وبالسوء سوءًا، وعليه فأحسنوا صحبة زوجاتكم لتنالوا الخير والأجر الجزيل.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي ولن تقدروا أيها الرجال أن تسوّوا بين زوجاتكم في الحب وما يميل إليه القلب لأن ذلك ليس بمقدوركم، ولو حرصتم على العدل والتسوية بينهن. وأحيانًا يكون لإحدى الزوجتين تأثير في جذب الرجل إليها أكثر من ضرّتها لجمالها وحلو حديثها وحداثة سنّها ومزيد إخلاصها. وقد كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه ويقول: «اللهم إن هذا قِسْمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[1] يقصد مَيْل القلب.

وقد ادّعى بعض الكتّاب أنه بضمّ الآية التي وردت في مطلع السورة ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ...﴾ إلى الآية التي نحن في صددها ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ وما دام العدل غير

(١) سبق تخريجه.

مستطاع فقد وجب الاقتصار على زوجة واحدة وهذا فهم خاطئ، لأن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ المراد به العدل الماديّ من المبيت والنفقة والمؤانسة، أما الآية الثانية فالمراد بها العدل في الحب وميْل القلب.

وما ينفي هذا الفهم الخاطئ أنّ القرآن لم يقف عند قوله تعالى ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بل استدرك فقال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فكأنّ الله يقول لهؤلاء: إنّ عدم استطاعتكم العدل بين زوجاتكم أمر يعلمه الله وهو من صُلب الطبيعة البشرية، ولكن المطلوب منكم ـ أيها الأزواج ـ ألّا تميلوا كل الميل الظاهري إلى إحداهنّ مع أنّ باستطاعتكم التسوية بينهن في ذلك، ومعنى هذا أن الله قد أبقى الحكم في إباحة تعدد الزوجات ولم يمنعه. ومعنى ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي تتركوها بإهمالكم إياها فلا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، وهذا تشبيه لها بالشيء المعلّق بشيء من الأشياء، لأنه لا على الأرض استقرّ ولا على ما عُلّق عليه يستطيع تحمله.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ وإن تصلحوا أعمالكم ـ أيها الأزواج ـ فتعدلوا في التسوية بين زوجاتكم وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة الحسنة وتتقوا الله بأن لا تميلوا عن العدل بينهن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي غفورًا لما حصل منكم من الميل إلى بعضهن دون بعض، رحيمًا بكم حيث لم يكلفكم ما لا تقدرون عليه من الميل القلبي.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ وإن لم يتصالح الزوجان بل فارق كل واحد منهما صاحبه بالطلاق فإن الله يجعل كلاً منهما مستغنيًا عن الآخر بأن يهيئ للرجل امرأة توافقه وتقرّ بها عينه، ويهيئ للمرأة رجلًا تغتبط بصحبته وتهنأ بعشرته، ويرزقهما الله من غناه الواسع ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل واسع الفضل على عباده، حكيمًا في جميع أفعاله وما شرعه لعباده مما هو في صالحهم، وهنا وعد من

الله لكلا الزوجين بأنه سيغني كل واحد منهما عن الآخر إذا قصد الفرقة تخوفًا من ترك حقوق الله التي أوجبها عليه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِنْ
تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ
غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ
الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

شرح المفردات

ولقد وصَّينا: ولقد أمرنا أمرًا مؤكدًا.

الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم: هم أهل الكتب السماوية السابقون وهم اليهود والنصارى وغيرهم.

حميدًا: مُستحقًّا للحمد والشكر والثناء.

الوكيل: من يفوَّض إليه الأمر كلّه ويقوم بتدبيره على أحسن الوجوه.

ثواب: الثواب هو ما يعطيه الله من الخير للإنسان جزاءً على عمله الصالح.

الدعوة إلى تقوى الله والتحذير من الكفر

وبعد أن ذكر الله سبحانه بأنه يُغني الزوجين من سعة رزقه بعد افتراقهما عند تعذّر الصلح بينهما، بيَّن الله بعد ذلك مبلغ غناه بقوله:

﴿وَلِلهِ ما في السَّـموات وَمَا في الأَرْضِ﴾، أي أن لله ما في السماوات وما في الأرض مُلكًا وتصرفًا فيهما، ومن كان كذلك فلا يتعذر عليه إغناء الزوجين بعد افتراقهما **﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾** والكتاب هنا: اسم جنس يتناول الكتب السماوية المُنزلة، والذين أعطاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى، ولقد وصّاهم الله كما وصّى المسلمين بأن يتقوا الله، وهذا معناه: أن الوصية بتقوى الله هي دعوة عامة لجميع الأمم. وتقوى الله: هي حفظ النفس من الإثم خوفًا من الله وطلبًا لرضاه، وذلك بالامتناع عن ما نهى الله عنه والامتثال لما أمر به، ولقد أوصاهم الله بالتقوى، والوصية عادةً تحوي الأمر النافع الذي فيه الخير الكثير، واقتصار الوصية على تقوى الله لأنها أعظم شيء للإنسان، لذا ينبغي على المسلم أن يعمل ما بوسعه ليحقّقها في نفسه، فهي تحقق له الخير وتجلب له السعادة **﴿وَإِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ للهِ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ﴾** أي أنكم أيها الناس إنْ تكفروا بالله وتجحدوا نِعَمَهُ فإنَّ لله ما في السماوات وما في الأرض من أصناف المخلوقات جميعها من يعبده ويتقيه، فحقُّه أن يُطاع ولا يُعصى فيما أمر **﴿وكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾** وكان الله غنيًا أي مستغنيًا عن خلقه وعن عبادتهم إيّاه ومستحقًّا لأن يُحمد لكثرة نِعَمِهِ على عباده، فلا يضره كُفرٌ ولا معصية من عباده، كما أنه لا ينتفع بشكرهم له وتقواهم.

﴿وَللهِ ما في السَّماواتِ وما فِي الأَرْضِ﴾ أي أن الله له ما في السماوات والأرض من الخلائق التي لا تحصى، يتصرف بهم كيف يشاء إيجادًا وإعدامًا

وإحياءً وإماتةً **﴿وَكَفَى باللهِ وَكيلًا﴾** وكفى بالله قيّمًا على أُمور السماوات والأرض يُدَبِّر شؤونهما خلقًا وتدبيرًا، فلا يليق بالإنسان أن يخرج عن تقوى الله وينقاد إلى شهواته وغرائزه الضارَّة.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّها النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ أي لو شاء الله لأهلككم أيها الناس وجاء بخلقٍ آخرين أصلح منكم لا يكونوا أمثالكم، ولكن الله لم يشأ ذلك لا لعجزٍ منه، ولكن لحكمةٍ اقتضت ذلك، ليختبر أعمالكم ويُجازي كل إنسانٍ على عمله، أو بمعنى: «إن يشأ يذهبكم بعذاب ينزله بكم أو أُمَّةٍ قوية يسلّطها عليكم فتسلب استقلالكم حتى تجعلكم عبيدًا أو كالعبيد لها، لا تستطيعون أن تقوموا بمصالحكم ومنافعكم... **﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾** يحلّون محلّكم في الوجود أو الحكم والتصرف»[1].

وفي هذا المعنى جاء في القرآن: **﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾** [محمد:٣٨]. **﴿وَكانَ اللهُ عَلَى ذٰلِكَ قَديرًا﴾** وكان الله وما زال بالغ القدرة على إفنائكم وإيجاد قوم آخرين مكانكم. قد يكون الخطاب في الآية هنا للمشركين الذين آذوا رسول الله واضطهدوا المسلمين كما يشمل الخطاب بعض المؤمنين المعرضين عن هدى الله.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ الثواب: ما يعود على الإنسان من جزاء على أعماله، والثواب يقال في الخير والشر ولكن الأكثر المتعارف عليه يكون في الخير. والمعنى: من كان يريد بعمله المنافع الدنيوية فإنه سينال جزاء عمله، ومن كان يريد الآخرة بعمله الصالح مبتغيًا وجه الله فعند الله الجزاء على طاعته. والآية تدعو المؤمنين بأن لا يلهيهم طلب خير الدنيا عن طلب الآخرة إذ الجمع بينهما أفضل نحو قوله تعالى: **﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ**

(١) عن تفسير المنار للشيخ رشيد رضا.

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ...﴾ [البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢] وقد كان مشركو العرب لا يؤمنون بالبعث والحساب، وكانوا يقرّون بأن الله خالقهم فكان تقرُّبهم إلى الله إنما هو ليعطيهم من خير الدنيا ويصرف عنهم شرها، فأخبر الله تعالى أن خير الدنيا والآخرة عند الله، فينبغي أن يطلب منه ثواب الدنيا والآخرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ سميعًا لأقوال الناس بصيرًا بأعمالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ
فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن
تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

شرح المفردات

قوّامين بالقسط: قائمين بالعدل مع المواظبة عليه والمبالغة فيه.

أنْ تَعْدِلوا: تميلوا عن الحق وتتركوه.

تَلْوُوا: تُحرِّفوا الشهادة على المتخاصمين.

تُعْرِضوا: تتركوا إقامة الشهادة أو تؤدّوها على غير وجهها الصحيح.

الدعوة إلى العدالة المطلقة

ثم تأتي الآية التالية التي تدعو إلى إقامة العدل في الأرض بصورةٍ لا نجد لها مثيلًا في أي كتاب ديني أو مذهب أخلاقي. والملفت للنظر في الآية أنها لا ترتكز على وصية القضاة بالعدل بل تجعل من المتقاضين أنفسهم حراسًا للعدل وبهذا تنتفي أكثر المنازعات في الأرض.

والعدل صمام الأمان لكل مجتمع، وأساس الاستقرار والطمأنينة في الناس، وما داموا ملتزمين بالعدل فالمجتمع بخير وسعادة. وإليكم بيان هذه الآية القرآنية البليغة الداعية إلى العدل والتي نستشعر من معانيها أنها ليست من كلام البشر بل هي من كلام رب العالمين:

﴿**يا أيها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بالقِسْطِ**﴾ فقوّام: صيغة مبالغة لمن قام بالأمر وأتى به على أكمل الوجوه، والقسط: هو العدل. ولفظ ﴿**قَوَّامِينَ**﴾ يفيد بأن مراعاة القسط مرة أو مرتين غير كافٍ بل يجب أن يكون القيام بالعدل على الدوام ﴿**شُهداءَ للهِ ولَوْ على أنْفُسِكُمْ**﴾ أي أنْ تقيموا شهادتكم بالحق لوجه الله لا لغرضٍ دنيويّ ولو اقتضى الأمر أن تكون هذه الشهادة على أنفسكم، وشهادتكم على أنفسكم هي إقراركم بما عليكم من الحق لغيركم، ولو كانت هذه الشهادة وبالًا عليكم تلحق الضرر بكم ﴿**أوِ الوَالِدَيْنِ والأقْرَبِينَ**﴾ وأن تشهدوا بالحق على الوَالِدَيْن اللذين هما أحبّ النّاس إليكم ولو كانت شهادتكم ضد مصالحهما الذاتية، وكذلك أن تشهدوا بالحق على أقاربكم بما تربطكم بهم من

مودة. وإذا كان رب العالمين يطلب منا أن نشهد بالحق على أقاربنا، فتكون شهادتنا بالحق على غير الأقارب من باب أولى.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فاللهُ أَوْلَى بِهِما﴾ أي إن يكن المشهود عليه غنيًّا يُرجى نفعه أو يُخشى شرّه، أو كان المشهود عليه فقيرًا يثير فقره الرحمة والشفقة، فلا تمتنعوا عن الشهادة عليهما بالحق، فالإنسان ليس أحق وأجدر برعاية مصالح الناس من خالقهم، ولو لم تكن الشهادة بالحق خيرًا لهم لما دعا الله إلى القيام بها ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا﴾ أي اتركوا اتّباع الهوى حتى تكونوا متصفين بصفة العدل، فالذي يفسد العدل هو الهوى، والهوى هو الخضوع للشهوات والميل إلى رغبات النفس الأمّارة بالسوء. وقد يُراد بكلمة ﴿تَعْدِلُوا﴾ العدول عن الحق، فيكون المعنى: فلا تعدلوا عن الحق وتنقادوا إلى هوى النفس ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ الخطاب هنا يشمل الحكام أو من يشهد على القضية المتنازع عليها. أي وإن تأتوا بالشهادة على غير وجهها الصحيح أو تحرّفوها أو تميلوا إلى أحد الخصمين ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ أو تمتنعوا عن أداء الشهادة أو تعمدوا أيها الحكام إلى المماطلة في الحكم رغم ظهور الحق ﴿فَإِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ هنا تهديد ووعيد لمن يعصي الله ويظلم الناس، ووعد بالإحسان لمن يطيع الله ويعدل بين الناس.

وبعد أن أمر الله المؤمنين القيام بالعدل على أكمل الوجوه، بيّن لهم فيما يلي الأمور التي يجب التصديق بها، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ هنا يخاطب الله المؤمنين كافة بأن يثبتوا على الإيمان به ويُداوموا عليه وذلك باعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وأنه ليس كمثله شيء، فهو خالق كل شيء وهو وحده المستحق للعبادة، وأن يؤمنوا برسوله محمد الذي جاء بالهدى ودين الحق

من عند ربه ﴿والكِتابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وأن يؤمنوا بالكتاب الذي نزّله الله على رسوله محمد وهو القرآن الكريم ﴿وَالكِتابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ وأن يؤمنوا كذلك بالكتاب الذي أنزله الله من قبل نزول القرآن، والكتاب: اسم جنس للكتب الإلٰهية السابقة التي أنزلها الله على رسله وهي الزبور والتوراة والإنجيل، وصحف إبراهيم وقد عبّر الله عن القرآن بقوله: ﴿نَزَّلَ﴾ وعن غيره من الكتب السماوية بقوله: ﴿أَنْزَلَ﴾ لأن القرآن قد نزل مُفرّقًا حسب الأحداث والوقائع، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزلت دفعة واحدة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ﴾ ومن يجحد بالله فلا يُؤمن بوحدانيته ولا بقدرته المبدعة التي تسيّر أمور الكون بغاية الحكمة، ويُنكر ملائكته الذين هم عباده المكرمون أوكلهم تدبير كثير من أمور الكون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرُون ﴿وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ ومن يجحد أيضًا بكتب الله التي أنزلها من قبل على رسله الذين أرسلهم الله على فترات من الزمن لهداية الناس وإنذارهم من عصيان الله ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وأيضًا من يُنكر اليوم الآخر وهو يوم القيامة حيث يحاسب فيه الناس على أعمالهم، ثم يكون مصير المحسنين الطائعين ربهم إلى الجنة ومصير المسيئين العاصين ربهم إلى جهنم.

ومن يجحد وينكر تلك الأمور التي أمر الله بالتصديق بها ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد بَعُدَ عن الحق والهدى بُعْدًا شديدًا يؤدي إلى عذاب الآخرة. وعلى ضوء هذه الآية يظهر لنا أن الإسلام لا يهدم الأديان السابقة ولا ينكرها ولكن يتممها، ويبيّن الصحيح منها، وينبذ ما دخل عليها مِن بِدَعٍ وإضافات غريبة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ
كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ
يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ
بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ
وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ
ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾

شرح المفردات

بَشِّر: أخبِر.

أَوْلياء: أصدقاء ونصراء وأحباء.

العِزَّة: المنعة والقوة والنصرة.

يَخُوضوا في حديث غيره: يتكلموا في موضوع آخر.

يَتَرَبَّصُون بكم: ينتظرون ما يحلّ بكم.

فَتْحٌ من الله: نصر منه.

نصيب: أي حظٌّ أو بعض من النصر.

ألم نستحوذ عليكم: ألم نُحِطْكم بعوننا ومساعدتنا.

سبيلًا: طريقًا إلى استعبادهم والتسلّط عليهم.

أحوال المنافقين ومصيرهم في الآخرة

إن من أشد ما ابتُلي به المسلمون: النفاق، والنفاق في عُرْفِ القرآن أن يُظهر المرءُ الإسلامَ ويُخفي الكفر، وكانت نشأة النفاق في المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ من مكة إليها، لذا نزلت الآيات القرآنية في وصف أحوالهم والتنديد بهم في عدّة مواضع من القرآن، منها: قوله تعالى في هذه السورة: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾** والمعنى: إن الذين آمنوا بدين الإسلام ووحدانية الله ثم رجعوا عنه إلى ما كانوا عليه من ضلال ثم آمنوا بعد ذلك ثم كفروا مرة أخرى ثم ازدادوا كفرًا على كفرهم بأن استمروا عليه حتى ماتوا **﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾** أي هؤلاء المنافقون لا يغفر الله لهم ما أقاموا على الكفر وماتوا عليه، ولا يهديهم الله إلى طريق الحق والهدى لأنهم أصرّوا على الكفر. أما في حال توبتهم فإن الله أخبر أنه يغفر من الكفر من تاب صاحبه منه قبل موته وأصلح أعماله، جاء في القرآن: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾** [الأنفال: ٣٨].

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ والبشارة لا تكون عادةً إلا في الخبر السارّ، والتعبير بالبشرى في هذا المقام هي من باب التهكم والاستهزاء بهم، وفي الوقت نفسه هي إنذار لهم بما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة، لأن المنافق يطمع في النفع الدنيوي، فيقال لهم: إن البشرى التي تنتظرونها هي العذاب الشديد لنفاقكم في الإيمان وإضماركم السوء للمسلمين.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ والأولياء: جمع وليّ، وهو الصديق والنصير ومن يهيئ للإنسان ما يبغيه من الخير والمنفعة.

فهؤلاء المنافقون اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ﴾ والعزّة: القوة والغلبة والتأييد، والاستفهام في الآية للتوبيخ على طلبهم العزة من الكافرين ﴿فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي من يطمح إلى العِزَّة، فإنَّ العزّة لا تكون إلا من عند الله لمن يطيع أوامره ويترك نواهيه.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن، وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله. وما أحوج ناسًا ممن يدّعون الإسلام ويتسمّون بأسماء المسلمين وهم يستعينون بأعدى أعداء الله في الأرض أن يتدبروا هذا القرآن.. إن كانت بهم رغبة في أن يكونوا مسلمين.. وإلا فإن الله غني عن العالمين»[1].

ثم يخاطب الله مَن أظهر الإيمان مِن مؤمن صادق أو منافق:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها وَيُسْتَهْزَأُ بها﴾ أي وقد نزّل الله عليكم في القرآن[2] أنكم إذا كنتم في مجلس وسمعتم آيات القرآن تُتلى عليكم ورأيتم الكافرين يجحدون بها ويستهزئون ﴿فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي أتركوا مجالستهم وقاطعوهم حتى يتكلموا في حديث آخر ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ أي إنكم إذا بقيتم معهم تستمعون إلى كفرهم واستهزائهم بآيات الله فأنتم مشاركون لهم في الكفر والإثم، وهذا يدل على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر، لأن من لم يجتنبهم فقد رضي بفعلهم، فكل من يجلس في مجلس يجاهر أصحابه بمعصية

(١) عن كتابه «في ظلال القرآن».

(٢) وما نزل عليهم من القرآن من قبل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الله ولا ينكر عليهم ذلك فهو معهم في الذنب سواء، فإن لم يستطع أن ينكر عليهم ويكفّهم عما هم عليه فينبغي ترك مجالستهم حتى لا يكون مثلهم ﴿إِنَّ اللهَ جامِعُ المُنافِقِينَ والكافِرِينَ في جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأن هذيْن الفريقين كما اجتمعوا في الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها، سيجمعهم الله جميعًا يوم القيامة في جهنم ليتعذبوا بها بسبب سوء أفعالهم.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ التربُّص: الانتظار، والذين يتربصون هم المنافقون حيث ينتظرون ما يحلّ بالمؤمنين عند قيام الحرب بينهم وبين المشركين ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ﴾ فإن كان لكم ـ أيها المؤمنون ـ نَصْرٌ من الله ﴿قالُوا أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ﴾ أي ألم نكن معكم بالعون، نجاهد عدوّكم ونغزوهم معكم حتى انتصرتم عليهم، إذًا فأعطونا حصة من الغنيمة ﴿وإن كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي وإن كان للكافرين حظ من النصر ﴿قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ أي قالوا للكافرين: ألم نحطكم بحمايتنا ورعايتنا حتى قهرتم المؤمنين فأعطونا ثمن ذلك.

ولنتأمل الأداء البياني حين يقول الله عن انتصار المؤمنين ﴿فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ لأن الفتح يفصل بين الحقّ والباطل، ولأن من وراء نصر المؤمنين فتح الطريق لكي يدرك الناس حقائق الإسلام ويدخل فيه من شاء منهم.

أما عن انتصار الكافرين فقد ذكر القرآن كلمة ﴿نَصِيبٌ﴾ أي شيء من الغلبة ولا يمكن أن تكون هذه الغلبة فتحًا لأن الله لا يدع الباطل ينتصر دائمًا.

﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾ فإنّ مآلهم إلى الله يوم القيامة وهو الذي سيحكم بالحق وحده، فيثيب المؤمنين المخلصين ويعاقب المنافقين.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافِرِينَ عَلَى المُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ والسبيل: الحجة والغلبة. والمراد بذلك الغلبة يوم القيامة كما روي عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقيل

المراد بالآية في الدنيا، حيث ينفي الله أن يكون للكافرين سلطان وغلبة على المؤمنين ما داموا متبعين أوامر دينهم وآخذين بالأسباب التي تجعل النصر حليفًا لهم، وإذا حدثت هزيمة في بعض الأوقات فتكون للابتلاء والاختبار، وغالبًا ما تكون الهزيمة لهم بسبب انحرافهم عن تعاليم دينهم وعصيانهم أوامر ربهم ورسوله كما حصل في غزوة أُحُد.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
(١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (١٤٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ
ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٤٤) إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ
مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ
وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَّا
يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ
ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ
تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾

شرح المفردات

المُنافقون: هم الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر.

يُخادِعون الله: بإظهار الإيمان وإبطان الكفر.

يُراءُون الناس: يُظهرون للناس غير ما انطوت عليه نفوسهم لخداعهم.

مُذَبْذَبين: متردّدين بين المؤمنين والكافرين.

فلن تجد له سبيلًا: فلن تجد له طريقًا يوصل إلى الحق.

سُلْطانًا مُبينًا: حجة ظاهرة.

الدَّرْكِ الأسفل من النار: المكان الأسفل منها وهو قعرها.

اعتصموا بالله: اتخذوه ملجأ وملاذًا.

وكان الله شاكرًا: والشكر من الله لعباده مجازاتهم الجزاء الحسن والثناء الجميل عليهم.

إنْ تبدوا: إنْ تُظهروا.

صفات المنافقين والنهي عن الجهر بالسوء

ويتابع القرآن الكلام عن المنافقين ويصف جانبًا من سلوكهم السيئ ليحذرهم المؤمنون وليكونوا على بيّنة من أمرهم.

﴿إِنَّ المُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ﴾ والخداع: إظهار غير ما في النفس، وإيهام الغير خلاف ما يريد به من المكروه. ومخادعة المنافقين لله تمثلت بأنهم تظاهروا بالإيمان وأبطنوا الكفر، وفاتهم أن الله يعلم ما يخفون وما يعلنون.

وقد يكون المراد من مخادعة الله مخادعة رسوله محمد ﷺ، فصار خداعهم لرسول الله خداعًا لله ﷻ وأمثال ذلك كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ...﴾ [الفتح: ١٠].

فهم يخادعون الله ولكنه سبحانه هو ﴿خادِعُهُم﴾[1] أي يعلم خداعهم ويتركهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الوصول إلى الحق، وسيجازيهم يوم القيامة بأشد العذاب على خداعهم.

﴿وإذا قامُوا إلى الصَّلاةِ قاموا كُسَالَى﴾ أي قاموا إلى الصلاة متباطئين متثاقلين لأنهم لا يعتقدون أن لهم ثوابًا على أدائها ولا عقابًا على تركها ﴿يُراءُونَ النَّاسَ﴾ أي يأتون بالصلاة رياءً، والمرائي هو الذي يريد بصلاته ثناء الناس عليه ولا يريد بها عبادة الله ﴿ولا يَذْكُرونَ اللهَ إلاّ قَلِيلًا﴾ أي ولا يجري ذِكْرُ الله تعالى في قلوبهم إلا نادرًا لأنهم لا يدركون معاني الإيمان، وقد يراد بذكر الله: الصلاة نفسها، أي أنهم لا يأتون بالصلاة إلا قليلًا لأنهم لا يصلّون إلّا وهم غائبون عن أعين الناس، فإذا رأوا الناس: قاموا إلى الصلاة، وهذا لا يحصل إلا قليلًا.

﴿مُذَبْذَبينَ بَيْنَ ذلِكَ﴾ والمذبذب: المضطرب المتردد بين أمرين فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفر والإيمان ﴿لا إلَى هـؤُلاءِ وَلا إلَى هؤُلاء﴾ أي ليسوا منسوبين إلى المؤمنين حقيقة لإضمارهم الكفر، ولا إلى الكافرين لإظهارهم الإيمان ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ومن يبعده الله عن طريق الرشاد وهو الإسلام فلن تجد له طريقًا يوصله إلى الحق والصواب.

﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ يا أيها الذين صدّقوا بالله ورسوله محمد لا تجعلوا الكافرين أصدقاء ونصراء لكم يتولون أموركم دون إخوانكم المؤمنين لأنه لا يُؤْمَنُ جانبهم ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلْطانًا مُبِينًا﴾ الاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، والمعنى: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة واضحة في عذابه إياكم إذ إنكم اتخذتم أعداءه أولياء لكم وهم يبغون لكم الهزيمة ولدينكم الزوال.

---

(١) الخادع: اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه.

وهذا لا يمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

﴿إنَّ المُنافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ الدَّرْكُ: أسفل كل شيء ذي عمق، والدرك الأسفل من جهنم أقصى قعرها. فالمنافقون في أقصى قعر جهنم ليعذّبوا بنارها ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي لن تجد لهؤلاء المنافقين من يُنْقِذهم ويخلّصهم من ذلك العذاب الهائل.

﴿إلاّ الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا﴾ ولكن الذي يُخلّص المنافقين من العذاب الأمور الآتية وهي: توبتهم من النفاق قبل مماتهم، وإصلاحهم ما أفسدوا في حال النفاق بأن يعملوا بما أمر الله وينتهوا عما نهاهم عنه ﴿واعْتَصَمُوا بِاللهِ﴾ وتمسكوا بشرع الله ابتغاء مرضاته ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُم للهِ﴾ وأخلصوا طاعتهم وأعمالهم التي عملوها لوجه الله مجردة عن الرياء وحب الظهور ﴿فَأُولَـئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ﴾ أي فهؤلاء الموصوفون بما ذُكِرَ يكونون مع المؤمنين المخلصين، والمقصود بالمعيّة في قوله: ﴿مَعَ المُؤْمِنِينَ﴾ التشريف والتكريم بصحبتهم ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وسوف يعطي الله المؤمنين الذين اتصفوا بما ذُكِرَ ثوابًا عظيمًا في الآخرة.

﴿ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ والمعنى: أيّ منفعة له سبحانه في عذابكم وعقوبتكم إن شكرتم نعمه وأدّيتم حقها، وآمنتم برسوله محمد فصدقتموه وأقررتم بما جاءكم به من عند الله فعملتم به. إن ذلك كله لا يزيد في مُلْكِهِ ﷻ شيئًا، ﴿وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي مثيبًا لكم على طاعتكم إياه ومجازيكم الجزاء الحسن بإدخالكم جنات النعيم في الآخرة، وهو سبحانه عليم بما تفعلونه من خيرٍ أو شرّ.

ثم يبيّن القرآن جانبًا من الأخلاق الكريمة التي يجب أن يتحلّى بها المجتمع الإسلامي، قال الله تعالى:

﴿لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ﴾ وعدم محبّة الله لمن يجاهر بالسوء كناية عن عدم رضاه عنه وغضبه عليه، والجهر بالسوء هو الكلام به علنًا ونشره بين الناس وإذاعته، والقول السوء هو الذي يسيء إلى من يقصده بالقول ويُؤذيه في شَرَفِهِ أو عِرْضِهِ أو سُمْعَتِهِ أو غير ذلك.

واليوم نرى هذه الآية يظهر معناها في أوضح صورة عند الذين يتعاطون مقاليد الحكم أو غيرهم حيث اتخذوا من وسائل الإعلام، سواء منها الصحف أو شاشات التلفزة أو الإذاعات، وسيلة لتنفيس حقدهم على خصومهم والإساءة إليهم، إنهم يفعلون ذلك ابتغاء مكسب ما ﴿إلاّ مَن ظُلِمَ﴾ لكن من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر بالسوء من القول في الحدود التي تمكّنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز الجهر بالسوء إلى الكذب والبهتان ﴿وكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ بهذه الجملة ختم الله الآية، وفيها تحذير من الجهر بالسوء لأنه سبحانه سميع لكل ما يقوله الناس، عليم بما يدور في النفوس من بواعث الخير والشر، وسيجزي الله سبحانه كل إنسان بما يقترفه من شرّ أو ظلم.

والجهر بالسوء وإشاعته كثيرًا ما يترتب عليه آثار مدمرة في المجتمع حيث يخيَّل للناس أن الشرّ صار غالبًا، وأن الخير قد خلا من النفوس، ومن المُشاهَد أن الجهر بالسوء يبدأ في أول الأمر باتهامات فردية وينتهي إلى اتهامات جماعية، وبذلك تنعدم الثقة فيما بين الناس، وهنا مكمن الخطر ﴿إن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إنْ تُظهروا الخير علنًا بأنواعه المختلفة من الصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنفع الإنساني العام، أو تفعلوا الخير سرًا ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ أو تصفحوا لمن أساء إليكم بما جهر من كلام يؤذيكم أو ظلم لحق بكم ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فإن الله كان ولم يزل كثير العفو عمَّن عصاه، عظيم القدرة على عقوبته، ولكنه يُؤثر العفو مع القدرة على العقاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ
بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ
وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا (١٥١) وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ
سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا (١٥٢)﴾

شرح المفردات

ويريدون أن يُفَرِّقُوا بين اللهِ ورسُلهِ: ويريدون أن يؤمنوا بالله دون رسله.

ويُريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلًا: ويريدون أن يتخذوا طريقًا وسطًا بين الإيمان والكفر.

أعْتَدْنا للكافرين: هيأنا لهم.

عذابًا مهينًا: عذابًا مُذِلًا.

يُؤتيهم: يُعطيهم.

أجورهم: ثواب عمالهم.

التصديق برُسُل الله

وبعد أن ذكر القرآن صفات المنافقين انتقل إلى الحديث عن اليهود والنصارى الذين آمنوا ببعض رسل الله وجحدوا بعضهم مبيِّنًا فساد مسلكهم الذي هو مظهر من مظاهر الكفر بالله، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والكفر بـالله هو الجحود بوحدانيته سبحانه، أما الكفر برسل الله فهو إنكار وجود رسل الله إلى خلقه، فمن يجحد رسالة رسول من عند الله مع قيام الدليل على أنه رسول الله حقًا بما أيّده من المعجزات فقد كفر بالله، لأنه سبحانه هو الذي بعث هذا الرسول وأنزل عليه الوحي لهداية الخلق ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ والتفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله كفر، وإنما كان كفرًا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على أَلْسِنة رسله، فإذا جحدوا رسالة الرسل فقد ردوا عليهم الشرائع التي أنزلها عليهم، فكانوا بذلك ممتنعين عن الْتزام العبودية التي أُمروا بالتزامها من الخالق، وتَرْكُ الْتزام الطاعة لله والعبودية له هو كُفرٌ به سبحانه.

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ وهم اليهود الذين آمنوا بموسى ومن قبله من الرسل وكفروا بنبوّة عيسى ومحمد، وكذلك النصارى الذين آمنوا بنبوّة موسى وعيسى وكفروا بنبوّة محمد ﷺ ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي ويريدون أن يتخذوا بين الإيمان ببعض الرسل دون البعض مذهبًا جديدًا يذهبون إليه وَدينًا يدينون به ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الكافِرُونَ حَقًّا﴾ أي الذين ذهبوا هذا المذهب من الإيمان ببعض الرُّسل والكفر ببعضهم: هم الكاملون في الكفر، وكلمة ﴿حَقًّا﴾ تأكيد لمضمون الجملة أي أنهم كفروا كفرًا ثابتًا لا شكَّ فيه ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي وهيَّأ الله للكافرين عذابًا يهينهم به جزاءً لتفريقهم بين الله ورسله، والإيمان بالبعض والكفر بالبعض الآخر.

فالإيمان بوحدانية الله يقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه الله سبحانه للناس، ويقتضي الإيمان برسُلِ الله الذين جاءوا بهذا الدين من عند الله، والكفر ببعض الرسل وتكذيبهم هو كفر بوحدانية الله، فدين الله الذي أنزله

للبشر منهجه واحد لا يتغير في أساسه، ولهذا يخاطب الله رسوله محمدًا كما جاء في القرآن: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي والذين صدّقوا بوحدانية الله وصدّقوا بجميع رُسُل الله ولم يفرّقوا في الإيمان بين رسول ورسول ﴿أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي أولئك سوف يعطيهم الله أجورهم التي وعدهم بها يوم القيامة، وقد أكّد الله سبحانه الجزاء الحسن والثواب على عقيدتهم الصحيحة بالتعبير بـ﴿سَوْفَ﴾ الدالة على تأكيد الفعل في الزمن المستقبل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للدلالة على أن ذلك الجزاء والثواب للمؤمنين هو من فضل الله ورحمته، لأنه سبحانه متصف بالغفران الدائم لمن تاب وعمل صالحًا كما أنه سبحانه متصف بالرحمة الواسعة.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا (١٥٤)﴾

شرح المفردات

أَرِنا الله جهرةً: أي عِيانًا نعاينه وننظر إليه.

وآتينا موسى سلطانًا مبينًا: وأعطينا موسى حجة تبين عن صدقه وحقيقة نبوّته.

الطُّور: جبل الطور بصحراء سيناء.

بميثاقهم: بِعَهْدِهم.

لا تعدوا في السبت: لا تعتدوا بصيد السمك المحرَّم عليكم صيده يوم السبت.

ميثاقًا غليظًا: عَهْدًا وثيقًا مؤكَّدًا.

عصيان بني إسرائيل لربهم

وبعد أن بيّن القرآن أحوال بعض أهل الكتاب ـ أي اليهود والنصارى ـ الذين آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعض، بيّن في الآيات التالية عناد اليهود ومكابرتهم وامتناعهم عن اتّباع نبيّ الإسلام وما جاء به من الهدى، قال الله تعالى: **﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابًا مِنَ السَّماءِ﴾** واليهود هم الذين سألوا رسول الله محمدًا، فقد سألوه بقولهم: إن كنت نبيًّا صادقًا فأتنا بكتاب من السماء جملة مكتوبًا كما جاء موسى بالتوراة مكتوبة من عند الله، ومعلوم أن التوراة نزلت على موسى مكتوبة جملة واحدة بواسطة الألواح. واليهود نسبوا التنزيل إلى رسول الله بقولهم: **﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ﴾** والرسول محمد ما قال إني نزّلت القرآن بل قال: أُنْزِلَ عَلَيَّ القرآن من عند الله.

﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي لا تستكثر يا محمد مكابرة اليهود وعنادهم وتوجيه هذا السؤال إليك، لأنهم فعلوا مع موسى أكبر من ذلك حين طلبوا منه أن يريهم الله ذاته رؤيةً ظاهرةً للعيان بحيث يشاهدونه بأبصارهم، وهذا مطلب يدل على التبجّح والتعنّت، ولا يصدر عن نفس يلامسها شعور بالإيمان، بل يدل على الوقاحة وسوء الأدب مع الله، وطلبهم هذا لم يمر بسلام بل عاقبهم الله على ذلك بقوله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي أهلكتهم الصاعقة بسبب ظلمهم بذلك السؤال ثم أعادهم الله إلى الحياة بعد أن تضرع موسى إلى ربه طالبًا منه المغفرة والرحمة لمن أساءوا الأدب معه.

والصاعقة: هي إفراغ كهربائي جويّ بين سحابة مكهربة والأرض أو بين سحابتين، ينشأ عنه صوت شديد أو نار محرقة، فإذا أصابت إنسانًا أهلكته.

وتُتابع الآيات ذكر بعض مساوئ اليهود:

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ واسترسالًا في غيّهم اتخذوا العجل معبودًا لهم من بعد ما جاءتهم الأدلة الواضحة الشاهدة على وحدانية الله وبطلان عبادة آلهة سواه، كما جاءتهم المعجزات الباهرة التي تشهد بصدق نبوة موسى: كعصاه التي ابتلعت أدوات السَّحَرة، وشق البحر بعصاه حيث أحدثت فيه طرقًا سار عليها بنو إسرائيل ونجوا من بطش فرعون، وتفجير الصخر عند ضربة موسى بعصاه فأنبعث منه اثنتا عشرة عينًا وغير ذلك من المعجزات **﴿فَعَفَوْنا عَن ذَٰلِكَ﴾** أي فعفا الله عن الذين عبدوا العجل بعد توبتهم ورجوعهم عن ضلالهم، وعبادة العجل هي بقية من بقايا الوثنية التي خالطت قلوبهم وهم في مصر، وقد كانت عبادة العجل شائعة في مصر آنذاك **﴿وَآتَيْنا مُوسَىٰ سُلْطانًا مُبِينًا﴾** وأعطى الله موسى حججًا بينات ومعجزات باهرات وقوة على الانتصار على من خالفه.

﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ﴾ ولما امتنع بنو إسرائيل عن قبول شريعة التوراة أمر الله الملك جبريل بأن يقتلع جبل الطور من أساسه ويرفعه فوقهم تهديدًا لهم بسبب نقضهم العهد الذي أخذه موسى عليهم وهو العمل بالتوراة، فلما ظنّوا أن الجبل واقع بهم أقبلوا على العمل بالتوارة، وبهذا رفع الله العذاب عنهم **﴿وَقُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا البابَ سُجَّدًا﴾** والمراد بالباب: باب القرية التي أُمروا بدخولها بعد خروجهم من الصحراء التي تاهوا فيها أربعين

عامًا، وكان دخولهم القرية بقيادة يوشع، وقد اختُلف في اسم القرية هل هي بيت المقدس أو إيليا أو أريحا، ودخولهم القرية ساجدين هو ما أمرهم الله أن يدخلوها خاضعين متواضعين مُطَأْطِئي رؤوسهم شكرًا لله على نجاتهم من الصحراء، وانتصارهم على أعدائهم، ولكنهم لما دخلوا القرية أعرضوا عما أمرهم الله به من الخضوع والخشوع له، بل دخلوها عن طريق المجون والاستهزاء وعصيان الله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي وقال الله لهم على لسان نبيهم بما أوحى الله إليه: لا تتجاوزوا الحدود التي أمركم الله بالْتزامها وهي عدم صيد السمك يوم السبت ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وأخذ الله منهم عهدًا مؤكّدًا شديدًا بأن يعملوا بما أمرهم به سبحانه، ولكنهم نقضوا العهد واحتالوا لصيد السمك الذي نُهوا عن صيده، وعصوا أمر ربهم.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا
عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ
ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِينًۢا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)
وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾

شرح المفردات

فَبِما نَقْضِهِم ميثاقهم: الميثاق العهد المؤكد ونقضه هو إبطاله وعدم العمل بمقتضاه.

قلوبُنا غُلْفٌ: مُغَطَّاة بأغشية تمنعها من الوعي والفهم.

طَبَع الله عليها: ختم عليها فلا تعي وَعْظًا.

بُهْتانًا: القولُ الكذب الشنيع الذي يبهت ويحيّر.

جرائم اليهود ومسألة صلب المسيح

ويتابع القرآن فيذكر جانبًا من سيئات اليهود وإجرامهم، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِيثَاقَهُمْ﴾[1] أي بسبب نقضهم العهد الوثيق المؤكد الذي عاهدوا به ربهم لَعَنَّاهم وعاقبناهم ﴿وكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللهِ﴾ كما لعنّاهم بسبب جحودهم بآياتنا الواردة في التوراة فقد أخفوا ما فيها من بشارات بمجيء رسول الله من العرب وهو الرسول محمد ﷺ، حيث أساءوا تأويل ما جاء في التوراة في شأنه ليبرروا نكران نبوّته ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كما لعنهم الله بسبب قتلهم الأنبياء ظلمًا وعدوانًا كما فعلوا بيحيى وزكريا ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي قولهم إن قلوبنا عليها غشاوة وأغطية تمنعنا عما تدعونا إليه فلا نفقه ما تقول ولا نعقله، فردّ الله عليهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بل ختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم وإصرارهم على المعاصي ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاّ قَلِيلًا﴾ أي لم يصدّقوا بما أمرهم الله به كله ولكن صدّقوا ببعض الأنبياء وببعض الكتب التي أنزلها الله، وقيل: المراد بالقليل هو من آمن بنبوة محمد كعبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود.

(١) ﴿فبما نقضهم﴾ هذه الجملة متعلقة بمحذوف تقديره: لَعَنّاهم وعاقبناهم، ويؤيد ذلك ما جاء في القرآن ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ هاتان سيئتان من جملة سيئاتهم معطوفتان على ما تقدم من سيئات، إحداهما: الكفر بعيسى ونكران نبوّته، والثانية: اتهام أمه مريم الطاهرة بالزنى، وقد وصف الله هذا الاتهام بالبهتان العظيم وهو الكذب الفظيع الذي لا تقبله العقول بل ترفضه لِبُعده عن الحقيقة وغرابته، وقد اتهموها بالزنى لأنها وضعت وليدها عيسى وهي لم تتزوج، فبرَّأها الله على لسان وليدها عيسى عليه السلام حين أنطقه الله بالكلام وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

ومن جرائمهم التي تُظهِرُ كفرهم: **﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ﴾** هذا القول منهم بقتل المسيح هل يعدّ جريمة؟ نعم إنها لجريمة لأن قولهم هذا يفصح ما سعوا إليه من رغبة في قتله، وسعوا بكل السبل لذلك، فقاموا بالوشاية عليه عند الرومان، وكذبوا عليه وافتروا وسلّموه إلى الحاكم الروماني وقُتِل في زعمهم.

أما ما جاء في الآية من وصف عيسى بأنه **﴿رَسُولَ اللهِ﴾** ففيه احتمالان: أحدهما أن يكون هذا من قول اليهود عن طريق السخرية بالرسالة الإلٰهية التي يدعوهم إليها وأن الله لم يحمه منهم، والاحتمال الثاني: أن يكون هذا القول من الله فيدل على أن الله ينفي عن عيسى ما وصفه به اليهود من الأباطيل وما ادّعوا أنهم قتلوه، مع أنه رسول من عند الله جاء لهدايتهم.

﴿وما قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي لقد زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فكذّبهم الله في ذلك وقال: **﴿وَلَـٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾** أي أن الله ألقى الشَّبَه بعيسى على رجلٍ فظنّوه إياه وقتلوه وصلبوه، وهذا الرجل ليس في الواقع عيسى عليه السلام، وقد أمسك القرآن عن ذكر من ألقى الله عليه

شبه عيسى فقتل مكانه، أما عيسى فقد رفعه الله إليه ونجّاه من أعدائه، هذا وسنتعرض إلى مسألة صلب المسيح بإسهاب في آخر هذه السورة.

﴿وإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من النصارى لفي شك دائم من حقيقة أمره. ولقد اختلف النصارى في شأن عيسى اختلافًا كبيرًا، فمنهم من زعم أنه ابن الله وأنه أحد الأقانيم الثلاثة[1]، ومنهم من ادّعى أن في عيسى عنصرًا إلٰهيًّا مع العنصر الإنساني وأن الذي ولدته أُمه مريم هو العنصر الإنساني ثم جاء اللاهوت بعد ذلك، ومنهم من زعم أن لعيسى طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلٰهية، ومنهم من أنكر أُلوهية عيسى وقالوا: بل هو مخلوق لله كما ذهب إلى ذلك آريوس[2] وغيره، ومنهم من كان يقول: إن عيسى وأُمه إلٰهان من دون الله. هذه بعض الآراء في شأن عيسى عليه السلام. كما اختلف النصارى في صلب السيد المسيح، فمنهم من أثبت ذلك ومنهم من أنكره.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي لا يصدر عنهم من علم في شأن السيد المسيح وصلبه إلاّ الظنّ الذي لا تثبته حجّة، ولا يقوم على بُرهان.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ وما قتلوا السيد المسيح حقًّا وصدقًا وما تأكدوا من قتله **﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾** بل رفعه الله إلى موضعٍ تولّى فيه حفظه وحمايته، وظاهر القول أن الرفع بعيسى كان بجسده وروحه لا بروحه

(١) يعتقد النصارى أن الله واحد في ثلاثة أقانيم يملك كل واحد من هؤلاء الأقانيم الطبيعية الإلهية بكاملها، وهذه الأقانيم هي: الأب والابن وروح القدس.

(٢) آريوس: وُلد في مدينة القيروان في ليبيا عام ٢٧٠م في عائلة نصرانية، سافر إلى الإسكندرية والْتحق بجامعتها اللاهوتية وتربع على مناصب عالية في السلك الديني المسيحي وكان يدعو إلى وحدانية الله وينكر ألوهية المسيح، وكان له الكثير من الأنصار والأتباع وقد اضطُهد بسبب دعوته هذه.

فقـط وعليـه أكثـر المفسـرين ﴿وَكَانَ اللهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا﴾ وكان الله ولم يـزل القوي الغالب لا يلجأ إليه أحد إلا أعزّه وحماه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها.

﴿وَإِنْ[1] مِنْ أَهْلِ الكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ للمفسرين في هذه الآية اتجاهان، الأول: أن الضمير في قوله (قبل موته) يعود إلى عيسى عليه السلام، ويكـون المعنـى: ما من أحـد من أهل الكتاب أي من اليهـود والنصارى إلا ليؤمـنن بنبوّة عيسـى وأنه عبد الله ورسـوله وأنه ليس بإلـه، ولا بأنه ابن الله، وذلك عند نزول عيسى إلى الأرض في آخر الزمان قبل يوم القيامة لأن الله رفعه إليه وأنه باقٍ حيًّا، وعند نزوله إلى الأرض يكذب هؤلاء الذين تباينت أقوالهـم واختلفـت فيـه آراؤهم ويمكـث أربعين سـنة وتكون الأديـان كلها دينًـا واحـدًا وهو دين الإسـلام ثم يتوفى بعد ذلك. ونزول عيسـى ثابت في الصحيحين: البخاري ومسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريـم حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرُ الصليب ويقتـل الخنزيـر ويضع الجزيـة[2]، ويفيض المال حتـى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيرًا له من الدنيا وما فيها.

والاتجـاه الثانـي أن الضميـر فـي ﴿قَبْـلَ مَوْتِـهِ﴾ يعـود إلـى اليهـودي والنصراني المشـار إليـه بقوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتـابِ﴾ والمعنى على هذا أن كل يهـودي ونصرانـي وهو يُحْتَضَر ويُعايِنُ سـكرات الموت ينكشـف له الحق في أمر عيسـى فيؤمن به إيمانًا صحيحًا، فيعلم اليهودي أنه رسـول من عنـد الله وأنـه صادق غير كـذّاب في ادعائه النبوة، ويعلم النصراني أنه بَشَرٌ خصّه الله برسالته إلى بني إسرائيل فليس هو بإله ولا هو ابن لله، ولكن هذا

(١) إن: حرف نفي.
(٢) ويضع الجزية: أي لا يقبلها من أحد من أهل الأديان لأنه لا يقبل غير الإسلام دينًا.

الإيمـان لا ينفـع لأنه حدث في وقتٍ انقطع فيه الإنسـان عن التكليف، كما لم ينفع إيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

ويختـتم الله الآيـة بقوله: ﴿وَيَوْمَ القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِم شَـهِيدًا﴾ أي ويوم القيامة يشهد سيدنا عيسى على اليهود بما كفروا به ويشهد على النصارى بما قالوا فيه: إنه ابن الله، وإن كلام الفريقين في هذا باطل، وإنه ليس بإلّه وليس هو ابنٌ لله بل هو عبدٌ لله ورسوله إلى بني إسرائيل.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ
وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ
عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾

شرح المفردات

هادوا: هُمُ اليهود.

وبِصَدِّهِم عن سبيلِ الله: ومَنْعهم الناس عن دينه وسُبُله التي شرعها لعباده.

أعْتَدْنا: أعددنا وهيَّأنا.

الراسخون في العلم: الثابتون فيه المتمكنون منه.

سنؤتيهم: سنعطيهم.

تحريم الطيبات على بني إسرائيل بسبب ظلمهم

وبعد أن ذكر القرآن ما صدر عن اليهود من ذنوب كبيرة في الآيات السابقة، بيَّن ما ترتَّب على ذلك من تحريم طيبات أُحلّت لهم مع إنذارٍ للكافرين منهم بعذابٍ أليمٍ يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ أي فبسبب ظلمٍ فادحٍ وقع من أُولئك اليهود من كفرٍ وقتلٍ للأنبياء ونقض ما عاهدوا الله عليه، حرَّم الله عليهم طيبات من الطعام كانت حلالًا لهم، ومن هذه الطيبات التي حرَّمها اللهُ عليهم ما ذكره سبحانه في سورة الأنعام بقوله ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ... الخ**﴾ [الانعام:١٤٦].

﴿**وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا**﴾ ومن مظاهر ظلمهم: منع أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله كثيرًا بقولهم على الله الباطل وتبديلهم كتاب الله وتحريف معانيه عن وجوهها الصحيحة، وجحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ.

﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ**﴾ ومن مظاهر ظلمهم: أخذهم الربا الذي نهاهم الله عنه. فالتوراة الأصلية التي أنزلها الله على موسى حرَّمت الربا على كل الناس، ولكنهم غيَّروا وبدَّلوا وجعلوا أخذ الربا حلالًا بالنسبة لغير اليهود، فمن تعاليمهم الآن: «للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا» ﴿**وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾ كالرّشْوة والخيانة وغير ذلك من سائر الوجوه المحرَّمة ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ أي وهيَّأ الله للكافرين منهم عذابًا موجعًا شديد الإيلام.

واليهود ليسوا جميعًا على هذا النحو من الضلال، ولهذا استدرك القرآن

وبيَّن أن هناك فريقًا ساروا على درب الحق فأثنى الله عليهم ووعدهم بالثواب الجزيل بقوله: ﴿**لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ**﴾ والراسخ في العلم هو العالِمُ المُبالغ في العلم بكتاب الله، المتمكن منه، الثابت في يقينه بحيث لا يكون معه ريب ولا شبهة، والراسخون في العلم هم مَن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأشباهه ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ أي المصدّقون بالله ورسله من أُمَّة محمد أو المؤمنون من أهل الكتاب ﴿**يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ يُصَدِّقون بما أُنزل إليك يا محمد من القرآن ويصدّقون بسائر الكتب المنزلة من عند الله على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل، ثم ذكر القرآن أعظم أعمال الخير التي يقوم بها المؤمنون الصادقون في إيمانهم وهي: ﴿**وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ**﴾ أي يؤدون الصلاة حقَّ أدائها في أوقاتها، والصلاة علاقة روحية تجعل المسلم قريبًا من خالقه يذكره دومًا بعبوديته له، فلا يرتكب إثمًا ولا يقترف خطيئة، وقد بيَّن القرآن الغاية من الصلاة: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...**﴾ [العنكبوت:٤٥].

﴿**وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ وهم الذين يُعطون الصدقة لمستحقيها. والزكاة هي التشريع الأمثل للتكافل بين أفراد المجتمع، وهي حق للفقراء في مال الأثرياء، ومن أهداف الزكاة أنها تُرَبّي في المؤمن خصلة البَذْل والعطاء والإنفاق في سبل الخير، وتَحُولُ بينه وبين الأَثَرَةِ والبخل.

﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ والإيمان بالله هو الذي يُفيض السكينة على قلب المؤمن عندما يلجأ إلى ربه عند المصائب، كما أن الإيمان بالله هو منبع الخير لأنه يصرف الناس عن فعل المنكر. أما الإيمان باليوم الآخر فهو الإيمان بالحساب والمُجازاة على الأعمال يوم القيامة، والإيمان بذلك يردع الناس عن الظلم خوفًا من مجازاة الله لهم يوم القيامة، كما أنه يقدّم

العزاء للمعذبين في الأرض حيث يطمئنون إلى ما أعدّه الله للصابرين من حُسْنِ الجزاء.

﴿أُولَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي هؤلاء المتّصفون بتلك الصفات السابق ذكرها يستحقون بسببها جزاءً عظيمًا في الآخرة، وهذا الجزاء هو نعيم الجنة.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَۚ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ
مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا
يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

شرح المفردات

أَوْحينا: الوحي يقال للكلمة الإلٰهية التي تُلقى إلى أنبياء الله ورسله.

الأسْباط: هم أولاد يعقوب وكانوا اثنى عشر.

زَبُورًا: هو الكتاب المُنزَّل على داود عليه السلام ويسمى المزامير في العهد القديم عند أهل الكتاب، وهو حِكَم ومواعظ.

مُبَشِّرِين: يُخبرون بالأخبار السارة من أطاع الله بما أعدَّ لهم سبحانه من جزاءٍ حَسَنٍ.

مُنْذِرين: يُخَوِّفون من يعصي الله بما أعدَّ لهم من عقابٍ أليمٍ.

حجة: معذرة يعتذرون بها.

محمد رسول من الله كسائر رسل الله

ولما كان اليهود قد طلبوا من محمد ﷺ فيما سبق أن ينزّل عليهم كتابًا من السماء جملة واحدة كما أنزل على موسى التوراة، ولما كان البعض منهم قالوا: ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء من بعد موسى، نزلت الآيات التالية تبيّن حقيقة نبوّة محمد وموقعها من بين سائر النبوات السابقة، قال الله تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا:

﴿إِنَّـا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَمـا أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ أي أن الله خصّك يا محمد بالوحي من عنده كما أوحى إلى نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده. وإنما بدأ الله بذكر نوح لأنه أوّل نبي أرسله الله لهداية قومه، وأول نبي عذّب الله أُمته لرفضهم دعوته لهم إلى عبادة الله، وفي ذلك إنذار بالهلاك للذين يكفرون بنبوّة محمد ويُناوئونه.

ولنقف قليلًا لنعرّف حقيقة الوحي الإلٰهي، فهو إعلام بخفاء، والكلمة الإلٰهية التي تُلْقى إلى أنبياء الله. وتكليم الله للرسل على أنواع كما جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

والمراد بقوله: من وراء حجاب هو سماع كلام الله من غير أن يراه كسماع موسى كلام الله، أما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ فهو كتبليغ الملك جبريل الوحي للنبي محمد.

ويتابع القرآن قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ وكل نبي من هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله يختص بصفة خاصة، فإبراهيم أبو الأنبياء، وإسماعيل هو جدّ نبيّ العرب وكافة الأمم سيدنا محمد ﷺ، وإسحاق أبو أنبياء بني إسرائيل، ومثله ابنه يعقوب ويُدْعَىٰ إسرائيل، واليهود يُنسبون إليه فيُقال: بنو إسرائيل، والأسباط: هم أولاد يعقوب، ولعل الوحي إلى الأسباط كان من قبيل الإلْهام لأنه لم يكن لهم رسالات بشرائع خاصة.

﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ كما أوحى الله لهؤلاء الأنبياء، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت رسالته الترفع عن المادة وأدرانها والبعد عن الشهوات، وقد وُلد من غير أب وجعله الله آية للعالمين، وأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ خصّه الله بصفة الصبر، فقد صبر على ما ابتلاه من المرض والأوجاع، ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ابتلاه الله بابتلاع الحوت له عندما فارق قومه وهو غضبان عليهم بسبب كفرهم وقد فارقهم بدون أن يأذن الله له بفراقهم ثم أنجاه الله بعد أن تاب إلى ربه واعترف بظلمه ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور بمعنى المكتوب، أي أعطى الله داود كتابًا مكتوبًا يُقرأ ويُرَتَّل، والزبور يشتمل على حِكَمٍ ومواعظ وتسابيح وثناء على الله وتقديس له، ولا يشتمل على أحكام ولا على بيان للحلال والحرام. ولقد كان داود رجل حرب يقود جيشه كما كان يحكم بين الناس في خصوماتهم بالعَدْل ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي وأرسل الله رسلًا قد ذكرهم الله لك يا محمد في القرآن من قبل هذه السورة مثل: صالح، وهود، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء.

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي وأرسل الله كذلك رسلًا كثيرين إلى أمم الأرض لم يذكر الله لك قصصهم وما جرى لهم مع قومهم، ولقد وضّح

الله ذلك بما جاء في القرآن: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي وخصَّ اللهُ موسى بتكليمه له من غير واسطة الملك جبريل، وهو أعلى مراتب الوحي الإلٰهي، وقد أكّد الله تكليمه له بالمصدر من كلّم بقوله ﴿تَكْلِيمًا﴾ أي كلامًا حقيقيًّا، غير قابل للمجاز والتأويل.

ومما يجدر ذكره أن الله كلَّم رسوله محمدًا بدون واسطة الملك جبريل ليلة الإسراء والمعراج وهو في السماوات العلى.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي أرسل الله هؤلاء الرسل مبشرين ومنذرين، والبشارة هي للخبر السار، والإنذار هو للخبر الذي فيه وعيد، فهؤلاء الرسل يبشِّرون من أطاع الله بالثواب الجزيل والنعيم في الآخرة، ويُخَوِّفُونَ من عصى الله بما أعده لهم من عقاب ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أي أرسل الله هؤلاء الرسل إلى أقوامهم ليبطل حجة من يقول: لو أرسل الله إلينا رسولًا لآمنّا، وليُسقط كل اعتذار للعصاة في عصيانهم لربهم، وفي هذا المعنى جاء في القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل القوي الغالب، البالغ الحكمة في تدبير شؤون الكون.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا
لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾

شرح المفردات

وصَدُّوا عن سبيل: ومنعوا الناس عن اتباع دين الله الذي ارتضاه لعباده.

ضَلُّوا: الضلال ضد الرّشاد، أي بعدوا عن طريق الحق.

ضلالًا بعيدًا: ضلالًا كثيرًا.

ولا ليهديهم طريقًا: أي لا يهديهم إلى طريق فيه النجاة والسعادة لهم.

مصير المنكرين لنبوّة محمد ﷺ في الآخرة

ولما كان اليهود ينكرون نبوّة محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن، بيَّن الله أن إنكارهم لا يُعبأ به وليس له أي قيمة، لأن الله من عليائه يشهد بنبوّته وما أنزل عليه من القرآن.

روي أن النبي محمدًا ﷺ دخل عليه جماعة من اليهود ليجادلوه في نبوته فقال لهم: إني والله أعلم إنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله قوله:

﴿لٰكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي أن الله يشهد بأنك يا محمد رسوله الذي أنزل عليك القرآن وقد أنزله الله بإرادته وعلمه وحكمته، وأنك أهل لإنزاله عليك، وهو حجة على صدقك **﴿والمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾** والملائكة كذلك يشهدون ويُقِرّون بأن الله أنزل عليك القرآن وأنك رسوله **﴿وَكَفَى باللهِ شَهِيدًا﴾** وكفى بالله شاهدًا على أنك يا محمد على الحق وإنْ أنكر المنكرون ذلك، فشهادة الله وحدها كافية لإثبات أنك رسوله، وأن هذا القرآن منزلٌ عليك من عنده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ أي إن الذين كفروا بالله فأنكروا وجوده أو لم يؤمنوا بوحدانيته وأنكروا نبوّة محمد ومنعوا الناس من الدخول في الإسلام واتباع طريق الهدى **﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِيدًا﴾** والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، وضد الضلال الهداية، أي إن هؤلاء الكافرين بعدوا عن طريق الحق بعدًا شاسعًا لأنهم جمعوا بين الضلال وإضلال غيرهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ والظلم هنا: ظلم النفس وظلم الغير، أي أُولئك الذين لَجُوا في كفرهم وظلموا أنفسهم بإبعادها عن طريق الهداية، وظلموا غيرهم بمنعهم عن اتباع سبيل الله وأثاروا الشبهات حول نبوة محمد ﷺ **﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾** أي لم يكن من حكمة الله ولا من تدبيره العادل أن ينالوا مغفرة الله وأن يتجاوز عن خطاياهم **﴿ولا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾** ولا أن يوفقهم لطريق من الطرق التي ينالون بها ثواب الله والنعيم في الآخرة **﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيها أَبَدًا﴾** ولكن الله سبحانه يخذل

هؤلاء الكافرين الظالمين حتى يسلكوا الطريق المؤدي بهم إلى عذاب جهنم ماكثين في العذاب زمنًا لا نهاية له ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ أي أن دوام تعذيب الذين كفروا وظلموا هو أمر يسير على الله.

ثم يُخاطب الله الناس جميعًا بمن فيهم أهل الكتاب والمشركين العرب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي يا أيها الناس قد جاءكم الرسول محمد بدين الإسلام وهو الدِّين الذي ارتضاه لكم، وهو الحق من ربكم ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ والأسلوب هنا جاء بشكل نصيحة لهم، أي أنصحكم بأن تصدّقوا أن محمدًا رسول الله إليكم، وأن تتبعوا الهدى الذي جاء به من عند ربكم يكن ذلك خيرًا لكم في دنياكم وآخرتكم ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ وإن تجحدوا نبوّة محمد وتكذّبوا بما جاء به من الحق من عند ربكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإن الله هو الغني عن إيمانكم لأن الله له ما في السماوات وما في الأرض ملكًا وتصرفًا، فمن كان هذا شأنه فهو قادر على معاقبة الكافرين على كفرهم ﴿وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وكان الله ولم يزل عظيم العلم، فهو عالم بأحوالكم، مراعيًا للحكمة في جميع أفعاله.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)﴾

شرح المفردات

أَهْل الكتاب: تُطلق على اليهود والنَّصارى، والمُراد بهم في الآية هنا النَّصارى.

لا تَغْلُوا في دِينكم: الغُلُوّ مُجاوزة الحد، وغُلُوُّ النصارى في دينهم هو إفراطهم في تعظيم عيسى حتى جعلوه إلهًا وابنًا لله.

كلمته: المراد بها عيسى وأطلقت الكلمة عليه لأن الله خلقه بكلمة (كن) فكان.

ألْقاها إلى مريم: أوْصلها إلى مريم.

رُوحٌ منه: أي رحمة منه سبحانه، أو ذو روح من أمر ربه.

لا تقولوا ثلاثة: لا تقولوا إن الله مُكَوَّنٌ من ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس.

وكيلًا: الوكيل هو الحافظ والكفيل بأرزاق العباد.

نهي النصارى عن الغلوّ بعيسى عليه السلام

وبعد أن أجاب القرآن الكريم عن شبهات اليهود حول نبوة محمد وما جاء به من عند ربه، جاءت آيات القرآن التالية وفيها الكلام عن النصارى، مبينة لهم حقيقة المسيح وبطلان معتقداتهم في شأنه، قال تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يخاطب الله النصارى وينهاهم عن الغلوّ في الدين، وهو المبالغة والتشدّد فيه وتجاوز الحدّ، وغلوّ النصارى في دينهم حصل عندما أخرجوا المسيح من طبيعة البشر واتخذوه إلَهًا وجعلوه ابنًا لله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي ولا تَصِفُوا الله بما يستحيل اتصافه به من اتخاذ الصاحبة[1] والولد. وقولكم في عيسى إنه ابن الله هو قول منكم على الله غير الحق.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ صُدِّر الكلام هنا بأداة القصر (إنما) للتنبيه بأن عيسى ما هو إلا رسول من عند الله أرسله الله لهداية

(١) الصاحبة: هي الزوجة.

الناس[١]، فهو ليس إلهًا من دون الله، ولا ابنًا لله كما يدّعون. وفي ذكر اسم عيسى ونسبته إلى أُمه مريم ﴿عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه إنسان ككل الناس ولدته أُنثى والإله لا يولد، وعيسى كان يأكل ويشرب والإله ليس كذلك، وفي ذكر الأُم من غير ذكر الأب دليل على أنه لا ينتسب إلى أبٍ قطّ، فليس هو ابن يوسف النجار وليس ابنًا لله.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي أن عيسى عليه السلام تَكَوَّنَ في بطن أُمِّه مريم وَوُجِدَ بسبب كلمة الله وهي ﴿كُنْ﴾ فكان من غير وساطة أبٍ ولا نُطفة، وهذه الكلمة ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي أوصلها إليها.

فالله سبحانه لما أرسل إلى مريم الملك جبريل يبشّرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلامًا زكيًّا، استنكرت ذلك، إذ هي عذراء ليس لها زوج ولم يمسسها بشر، فقال لها جبريل كما جاء في القرآن: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

فكلمة ﴿كُنْ﴾ هي الكلمة من الله الدّالة على تكوين شيء وإيجاده بمحض القدرة الإلٰهية. وزيادة في الإيضاح جاء في القرآن بأن عيسى خلقه الله كما خلق آدم بكلمة ﴿كن﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فإذا كان عيسى خُلِقَ بدون أبٍ، فآدم خلق بدون أبٍ وأُم.

كما أن عيسى وصفه القرآن بأنه ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي أنه روح من عند الله كسائر الأرواح البشرية، وإنما أضافه الله تعالى إليه تشريفًا وتكريمًا. وهذا

(١) هناك نصوص كثيرة في الأناجيل المعتمدة عند النصارى تثبت أن المسيح نبي وأنه رسول من عند الله، منها: ما جاء في إنجيل يوحنا بعد ذكره معجزة تكثير أرغفة الشعير الخمسة والسمكتين: «فلما رأى الناس الآية التي أتى بها يسوع، قالوا: حقًّا هذا هو النبيّ الآتي إلى العالم» [٦: ١٤].

التعبير ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ليس خاصًّا بعيسى، بل ورد مثله بشأن آدم كما جاء في القرآن: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

كما يأتي الروح بمعنى الوحي الإلٰهي الذي ينزله الله على رسله كما جاء في القرآن: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وسمي الوحي روحًا لما يحصل به حياة القلوب والأرواح. ويأتي الروح في القرآن بمعنى الرحمة كقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة من الله سبحانه.

كما أطلق القرآن لفظ الروح على الملك جبريل حين أرسله الله إلى مريم ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، ومن المعلوم أنَّ الملائكة تتمثل أحيانًا بهيئة البشر.

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ فآمنوا بالله الواحد الذي لا شريك له في الملك والسلطان وآمنوا بالرسل جميعًا ومن جملتهم: عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ ولا تقولوا ـ يا معشر النصارى ـ إنَّ الله واحد في ثلاثة أقانيم يملك كلٌّ من هؤلاء الأقانيم الطبيعة الإلٰهية بكاملها ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ انتهوا عن عقيدة التثليث في شأن الله يكن ذلك الانتهاء خَيْرًا لكم، لأنكم بذلك تتجنبون العقيدة غير الصحيحة التي لا أساس لها من الصحة ﴿إِنَّما اللهُ إِلٰهٌ واحِدٌ﴾ أي إنما الله واحد بالذات منزّه عن التعدّد، منفرد في أُلوهيته وليس مركّبًا من أقانيم ثلاثة: الأب والابن وروح القدس ﴿سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تنزّه الله تعالى عن أن يكون له ولد ﴿لَهُ ما في السَّمٰواتِ وما في الأَرْضِ﴾ له سبحانه ما في السماوات من بلايين النجوم والكواكب، وله سبحانه ما في الأرض من مخلوقات وكائنات، ومن كان مالكًا لكل هذا حريٌّ أن يندرج تحته في الملك كون المسيح مخلوقًا من الله وعبدًا له سبحانه كما جاء في القرآن ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

ثـم يختـم الله الآية بقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي أن الله سـبحانه له الكفايـة والقدرة فـي تدبير أمر الكون فلا يحتاج إلى ولد يُعينه ولا إلى إلٰه آخر معه يساعده في حفظ الخلائق، على حين أن كل الخلائق محتاجون إليه.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

شرح المفردات

لن يَسْتَنْكِفَ: لن يَأْنفَ ويترفّع أو يستكبر.

المُقَرَّبُونَ: هم الملائكة الذين قربهم الله إليه.

فَسَيحشرهم: يجمعهم إليه يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

فيوفيهم أجورهم: فيعطيهم الله ثواب أعمالهم.

مصير الذين يترفّعون عن عبوديتهم لله

وبعد أن ذكر الله سبحانه غُلُوَّ النصارى في شأن السيد المسيح ورفعهم إياه إلى رُتبة الألوهية، بيَّن في الآية التالية أن المسيح عليه السلام شأنه كشأن الناس

جميعًا، وأنـه عبـد الله لا يترفع عن عبادتـه، قال الله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله﴾ الاستنكاف: الترفُّع والاستكبار والامتناع، أي لن يمتنع المسيح ولن يستكبر من أن يكون عبدًا لله ولن يترفع عن ذلك ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وكذلـك من هـم أعلى منزلة من المسيح كالملائكة المقرّبين من الله كجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحملة العرش، فهؤلاء رغم عُلُوِّ درجاتهم عند الله لا يترفعون ولا يستكبرون عن أن يكونوا عبيدًا لله، فكيف يترفع المسيح ويمتنع أن يكون عبدًا لله؟

﴿وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ ومـن يترفّع عـن عبادة الله ويستكبر عن الخضوع له ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فسيجمعهم الله إليه يوم القيامة، فيجازي من عصاه واستكبر عن عبادته بما يستحق من عقاب.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أمّا الذين حققـوا فـي نفوسـهم الإيمـان بوحدانيـة الله وخضعوا لـه بالطاعـة، وتذلّلوا بعبوديتهـم له وعملوا الأعمال الصالحة التي دعاهم إليها رسلُه فسيعطيهم الله جزاء أعمالهم الصالحة جزاءً وافيًا غير منقوص ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ويضاعف الله حسناتهم ويزيدهم على ما وعدهم به من الجزاء الحسن.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وأما الذين ترفّعـوا عـن الخضـوع لله بالطاعة واستكبروا عن عبوديتهم لـه فيعذّبهم الله عذابًا موجعًا في نار جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي ولا يجدون لهم غير الله وليًّا يلي أمرهم ويُنَجّيهم من عذابه، ولا يجدون لهم نصيرًا يدفع عنهم عقوبته.

فالله يريد من المؤمنين أن يخرجوا من عبادة البَشَر إلى عبادة الله وحده، ليدركوا أن صاحب السلطان في هذا الكون هو الله وحده، فلا يخضعون إلا له، ولا يسيرون إلا على درب منهاجه وشريعته.

والذين يستنكفون عن عبوديتهم لله يذلّون لعبوديات شتى: يذلّون لعبودية المال، وعبودية الهوى والشهوة، وعبودية حُبّ الجاه والحكم، ويذلون لعبودية الطغاة والمتجبرين في الأرض، وهذه كلها تؤدي بهم إلى الشقاء والتعاسة بدلًا من السعادة التي ينشدونها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا
مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ
فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

شرح المفردات

بُرهانٌ من ربكم: حجة ودليل على صحة دين الإسلام.

نورًا مبينًا: نورًا واضحًا وهو القرآن الكريم.

واعتصموا به: تمسّكوا بهدى الله وعملوا بما جاء فيه من الشرائع.

يهديهم إليه صراطًا مستقيمًا: يهديهم إلى الطريق المستقيم الذي يوصلهم إلى رضاء الله.

البرهان على صحة الإسلام

ويتابع القرآن فيقدّم البرهان والحجة الواضحة على أنه كتاب الله المنزل على رسوله محمد، وأنه الصادق الأمين فيما يبلّغه عن ربه، وأنه رسول الله حقًّا، قال الله تعالى:

﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ والبُرهان: هو الحجة النيِّرة والدليل المؤكد الذي يُعطي اليقين على صحة دين الإسلام.

والبرهان الذي جاء به رب العالمين على صحة دين الإسلام هو القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة التي أيَّد اللهُ بها رسوله محمدًا ﷺ.

وقيل: إن البرهان الذي جاء به رب العالمين هو الرسول محمد ﷺ، فإن سيرة حياته منذ بدء نشأته إلى وفاته، وما تحقَّق على يده من إصلاحات في جزيرة العرب تشهد بأنه رسول الله حقًّا.

والحقيقة في ذلك أن البرهان على صحة الإسلام يتمثل بالقرآن الكريم كما يتمثل بسيرة الرسول محمد مجتمِعَيْن، وسنتكلم عن هذين البُرْهانَيْن فيما بعد، ثم يصف الله القرآن الكريم بقوله: **﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾** فالله سبحانه أنزل القرآن على الناس جميعًا بواسطة الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله محمد، وسمّاه الله نورًا لأنه يُخرج الناس من ظلمات الضلالة والحيرة التي يتخبطون بها إلى نور الإيمان والهداية الربانية.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ﴾ أي فأما الذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته وأنه لا مُنشئ للكون سواه وأقرّوا بعظمته وجلاله ولم يعبدوا ربًّا سواه **﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾** وتمسكوا بهديه ولجأوا إليه وحده في المُلِمّاتِ، وامتنعوا به عن اتّباع النفس الأمّارة بالسوء **﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ﴾** ورحمة الله لهم في الدنيا أن يكونوا في سعادة ويُسر واطمئنان وهدوء بال، وأما الرحمة لهم في الآخرة فهي دخولهم الجنة والتمتع بنعيمها **﴿وَفَضْلٍ﴾** وهو ما يتفضل الله به عليهم من أنواع المكرمات **﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾** ويُرشدهم الله سبحانه إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه الذي يوصلهم إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثم نعود إلى بيان حقيقة البرهان المتمثل بالقرآن وسيرة الرسول محمد ﷺ والذي أشار الله إليه بقوله: ﴿يا أيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِن رَبِّكُمْ﴾ ونبدأ بالكلام عن القرآن:

البرهان المتمثل بالقرآن الكريم: فالقرآن هو البرهان على أنه من عند الله فهو المعجزة التي أيَّد الله بها رسوله محمدًا. وتتحقق معجزة القرآن بأنه تحدَّى العرب وهم المشهورون بالبلاغة والفصاحة، كما تحدَّى سائر الأمم أن يَأْتُوا بمثل هذا القرآن وتحدّاهم أن يأتوا بعشر سور أو سورة مثل سور القرآن، كما قال الله تعالى: **﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾** [البقرة: ٢٣، ٢٤].

تأمّل ما جاء في هذه الآية: **﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾** هل يستطيع عربي يَدْري ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات الأدبية مفتوح على مصراعيه؟ وماذا يفعل محمد لو أن هذا القرآن من تأليفه وأن جماعة من بلغاء العرب تعاونوا على أن يأتوا بصيغة أدبية تفوق بلاغة القرآن؟ ولكن هذا لم يحصل، واستمر عجزهم وعجز البشرية جمعاء إلى يومنا هذا، مع العلم أن محمدًا كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكْتُب ولم يتلقَّ العلم عن أحدٍ، فقامت الحجة وجاء البرهان على أن القرآن معجزة من عند الله، إذ لو كان القرآن من تأليف إنسان ما، لأستطاع العرب أو غيرهم من أهل الفصاحة من الأُمم أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

فالقرآن معجز بكل ما يحتمله هذا اللفظ من معنى: فهو معجز في أُسلوبه المخالف لجميع أساليب العرب، ومعجز بألفاظه الفصيحة البعيدة عن الركاكة، ومعجز في معانيه وعلومه، ومعجز بتشريعاته التي أقرّ بعدالتها وصلاحيتها للتطبيق علماء القانون في الغرب.

والقرآن معجز بما تضمَّنه من توحيد الله وتنزيهه عن النقص وبيان صفات الله الكاملة، فنجد كثيرًا من آياته تذكر عظمة الله وجلاله بحيث تظهر فيها أُلوهيته وربوبيته للكون وقُدْسِيّته بما لا نجده في أي كتاب ديني آخر.

كما أن القرآن يشتمل على الدعوة إلى عبادة الله، وبيان ما شرعه الله من أحكام ووعظ، وأمْرٍ بالمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها.

كما أن في القرآن أخبارًا عن القرون السالفة كإخباره عن عاد وثمود وفرعون وقومه وما حلّ بهم من عذاب جزاء كفرهم بالله وعصيانهم له، كما ذكر القرآن سيرة أنبياء الله: نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط وموسى وسليمان وداود ويوسف وأيوب، وما في حياة هؤلاء جميعًا من دروس وعبر، وقدوة حسنة يتأسَّى بها المؤمنون، نافيًا ما أُلْصِقَ ببعضهم مِنْ تُهَمٍ باطلة وفضائح جنسية، كما نراه في العهد القديم عند أهل الكتاب.

بالإضافة إلى ما اشتمل عليه القرآن من إشاراتٍ إلى بعض العلوم في حقائق الكون مما كشف عنه العلم الحديث.

البرهان على أن محمدًا رسول من عند الله: إن البرهان على أن محمدًا رسول الله ظاهر للعيان، ولكن التعصب الأعمى جعل أتْباع الديانات الأخرى يمتنعون عن النظر في حياة النبي محمد ﷺ وسيرته العطرة، وما تمَّ على يده من إصلاحات تشهد بنبوّته وأنه مؤيَّد من الله سبحانه.

فقد نشأ محمد نشأة طاهرة لم تُعرف عنه خصلة ذميمة أو خُلُق سَيِّئ ولم يشارك قومه في عبادة الأوثان ولا في مجونهم قبل النبوّة، كما أنه اشتهر بالصدق والأمانة حتى لُقِّبَ بالصادق الأمين، وبعد سن الأرْبعين جاءه

الوحي من الله وأُنزل عليه القرآن، وتمّ على يده في مدة ثلاث وعشرين سنة كثير من الإصلاحات نذكر منها ما يلي:

أولًا: توحيد الأُمة العربية بعد أن كانت قبائل متفرقة تتصارع لأَوْهىٰ الأسباب.

ثانيًا: قضاؤه على وثنية متوارثة منذ آماد طويلة، ونَبْذ كل مظاهر الإشراك بالله التي كانت سائدة عند كثير من الشعوب، ودعا مقابل ذلك إلى دين يدعو إلى عبادة الله وحده.

ثالثًا: إحداثه إصلاحًا اجتماعيًا حقق فيه العدالة والصلاح في الأُسرة والمجتمع وعلاقة الأفراد مع بعضهم البعض.

هذا وإن إصلاحًا واحدًا من هذا الإصلاحات كفيل بأن يجعل من قام به على درجة عالية بين عظماء التاريخ، فكيف وقد تمت كلها على يد الرسول محمد ﷺ؟

وفي هذه المناسبة أَنْقلُ ما جاء في إنجيل متّى[1] المعتمَد عند النصارى قول السيد المسيح: «إياكم والأنبياء الكذّابين، فإنهم يأتونكم في لباس الخراف وهم في باطنهم ذئاب خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم».

لا، ليس النبي محمد ﷺ من صنف الأنبياء الكذابين أما تشهد الثمار التي تمت على يده بأنه نبي صادق؟ لا يستطيع أحد إنكار ذلك. كما أذكر في هذه المناسبة بعض أقوال عُلماء الغرب المنصفين ونظرتهم إلى النبي محمد ﷺ، يقول وِل ديوارنت في موسوعته «قصة الحضارة»:

«وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس، قلنا إنَّ

(١) الإصحاح السابع.

محمدًا كان من أعظم عظماء التاريخ فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعبٍ أُلْقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مُصلحٍ آخر في التاريخ... وكانت بلاد العرب لمّا بدأ الدعوة صحراء جدباء تسكنها قبائل من عبدة الأوثان، قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أُمة موحدة متماسكة...»[1].

ويقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»:

«فإنَّ مما لا ريب فيه أن محمدًا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام ومنها اليهودية والنصرانية، ولذلك لا نرى حدًا لفضل محمد على العرب...».

ويقول أيضًا: «وإذا ما قيست الرجال بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ»[2].

ويقول الكاتب الإنجليزي (توماس كارليل) في كتابه (الأبطال):

«لقد أصبح من أكبر العار على أي فردٍ متمدِّن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى ما يُظَنّ من أنَّ دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدّاع مزوِّر، وأن لنا أن نحارب ما يُشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون من الناس..»[3].

ومنذ قريب، نَشَرَ العالِم والمؤرخ الاميركي (ميشيل. هـ. هارت) كتابًا

(١) الجزء الثاني من المجلد الرابع ـ ترجمة الأستاذ محمد بدران.
(٢) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد عادل زعيتر ص ٤٥.
(٣) نقلاً عن الترجمة العربية للأستاذ محمد السباعي ص ٥٤ ط ٣.

بعنوان: «الأعظم مئة في التاريخ» حيث ذكر مئة من أعظم الرِّجال تأثيرًا في التاريخ فوضع محمدًا على رأس القائمة أي في المرتبة الأولى، ووضع السيد المسيح في المرتبة الثالثة.

ونختم القول بطرف من المحاورة التي جرت بين هرقل ملك الروم وأبي سفيان من كبار التُّجّار في مكة. فقد ترامت الأخبار إلى هرقل عن نبيّ ظهر في جزيرة العرب، فأراد أن يستفسر عن هذا الأمر، فطلب من أعوانه إحضار أحد التجار الذين كانوا يفدون إلى الشام، فالْتقوا بأبي سفيان حيث أحضروه إلى مجلس هرقل وجرى بينهما حديث طويل نختصر منه أن هرقل سأل أبا سفيان بواسطة المترجم: هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول ما قال (أي قبل ادّعائه النبوة)؟ فأجاب أبو سفيان: لا، فقال هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

ومما سأل هرقل أبا سفيان: أيزيد أتباعه أم ينقصون؟ فأجاب أبو سفيان: إنهم يزيدون[1] فأجاب هرقل: وكذلك أمر الإيمان حتى يَتِمَّ[2].

هذا جانب من البرهان على أن محمدًا رسول الله حقًّا، ولو أردنا الاستفاضة في ذلك لاحتجنا إلى مجلداتٍ كثيرة.

(١) يفهم من كلام الكاتب الإنجليزي توماس كارليل الذي نَقَلْته عنه سابقًا أن عدد المسلمين في الزمن الذي سطَّر فيه كلماته كان مائتي مليون مسلم، أما الآن فقد تبيَّن لي من بعض الإحصاءات أن عددهم هو مليار و٨٠٠ مليون مسلم وأنهم يزيدون في السنة ٢,٩ من سكان الأرض. وهذا ما يذكّرني بما قاله هرقل لأبي سفيان منذ أربعة عشر قرنًا: أيزيد أتباع محمد أم ينقصون؟ ليُستدلَّ بذلك على صدق نُبُوَّة محمد، فأجابه أبو سفيان: بل يزيدون!

(٢) نقلاً عن صحيح البخاري من الحديث النبوي ـ باب الوحي.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

شرح المفردات

يَستفتونك: يطلبون منك يا محمد الحُكْم الشرعي الذي شرعه الله تعالى.

الكَلالَة: الذي لا والد له ولا ولد عند وفاته.

أن تَضِلُّوا: لئلا تضلوا.

توريث الإخوة

ثم يختم الله هذه السورة بآية تُبيِّن بعض أحكام ميراث الإخوة[1] التي لم يأت بيان الحكم فيها في آيات المواريث في مطلع هذه السورة، وأسباب نزول الآية ما روي عن جابر بن عبد الله قال: مرضتُ، فأتاني النبي ﷺ يَعودني هو وأبو بكرٍ وهما ماشيان، فوجداني قد أغمي عَلَيَّ، فتوضّأ رسولُ الله ثم صَبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقت فقلتُ: يا رسولَ الله، فكيف أقضي في مالي، أو كيف أصنع في مالي؟ وكان لجابر تسع أخوات، ولم يكن له

(١) من عدالة الإسلام توريث الإخوة خلافًا للقوانين الأوروبية المشتقة من القانون الروماني التي لا تورث الإخوة ولا الأخوات.

والد ولا ولد، قال جابر: فلم يجبني رسول الله شيئًا حتى نزلت آية الميراث ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ إلى آخر السورة.

يقول الله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ أي يطلب منك صحابتك يا محمد أن تُبيِّن لهم الحُكم في ميراث الميت الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا ولكن ترك غيرهما من الورثة، وجاء طلب الفُتْيا بصيغة الجمع مع أن الذي طلب الفُتْيا هو جابر لأن الحكم يعمّ المسلمين جميعًا ﴿قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ أي قل لهم يا محمد: اللهُ يُبيّن لكم حكم الميراث في الكلالة، والكلالة: من ليس له ولد ولا والد ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ أي إن امرؤ مات وسُمي الموت هلاكًا لأنه إعدام في الحقيقة ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي ليس له ولد ولا والد، ولم يأت ذكر الأب في الآية هنا لأنه داخل في مفهوم الكلالة لغة ﴿وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ وهذا الشخص الذي مات ولم يترك ولدًا ولا والد له ولكن له أُخت شقيقة (أي من أبٍ وأم) أو أُخت لأب عند عدم الأخت الشقيقة، فهذه الأخت لها نصف ما ترك من المال.

وأما الأخت لأمّ ففرضها السدس كما في الآية ١٢ من هذه السورة ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ وهو: أي الأخ الشقيق أو الأخ لأب يرث أُخته إن لم يكن لها ولد، فيأخذ الأخ جميع ما تركته أخته من مال إن لم يكن لها ولد ذكرًا كان أم أُنثى. فإنْ كان لها ولد ذكر لم يرث الأخ شيئًا، وإن كان لها بنت أخذت البنت النصف وأخذ الأخ أو الأُخت الباقي.

﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي فإن زادت الأُخت عن واحدة بأن وجدت أُختان فأكثر، فلهن الثلثان مما ترك الأخ المتوفى أو الأخت المتوفاة.

﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ أي وإن كان الإخوة مختلطين ذكورًا وإناثًا فللذكر منهم مثل نصيب الأُختين.

فهذه الآية ذكرت صورًا أربع لميراث الإخوة والأخوات للميت الذي لم يترك ولدًا ولا والدًا وهي:

١ ـ أن يموت الميت وترثه أُخت واحدة فلها نصف تركته والباقي للعصبة[1] إنْ وجدوا، فإن لم يوجدوا فلها الباقي بالردِّ[2].

٢ ـ أن تموت امرأة ويرثها أخ واحد فيكون له جميع تركتها.

٣ ـ أن يكون الميت أخًا أو أُختًا والوارث أُختان فصاعدًا ففي هذه الحالة يكون لهن الثلثان.

٤ ـ أن يكون الميت أخًا أو أُختًا والورثة عددًا من الإخوة والأخوات ففي هذه الحالة تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

وظاهر الآية يفيد أنه لا فرق بين الإخوة الأشقاء (أي من أَبٍ وأُم) والإخوة لأب في أنهم يشتركون في التركة إذا اجتمعوا، ولكن السُّنَّة النبويّة قدّمت الأشقاء على الإخوة لأب، فإذا ما اجتمع الصنفان حجب الإخوةُ الأشقّاء الإخوةَ لأب.

وفي التفصيل أن الأخ الشقيق (أي من أب وأم) يَحْجُبُ الإخوة لأب ذكورًا وإناثًا، فإن وُجِدَت شقيقة واحدة أخذت النصف وأخذت الأخت لأب السدس. وإنْ وُجِدَت شقيقتان تسقط الأُخت لأب إلا إذا وُجد معها أخ لأب فإنه يعصبها ويأخذان الباقي.

وفي حال وفاة الميت وقد ترك ولدًا ذكرًا وإخوة له، فالإخوة لا يرثون بل كل التركة تكون من حصة الولد الذكر.

---

(١) العصبة: هم قرابة الإنسان الذكور من جهة أبيه، وتشمل الأُصول والفروع والحواشي.

(٢) الردّ: أن يعطى لأصحاب الفروض ما بقي عن أصل المسألة.

وكـذا لا يـرث الإخوة إذا وُجد ابنُ ابنٍ، أو إذا وجد أبٌ، وأما الجد أبو الأب فإنه يحجب الإخوة عند أبي حنيفة خلافًا لسائر المذاهب.

أمـا إذا توفـي المـورّث وتـرك بنتين، فقـد ورد عن النبـي ﷺ أنه ورَّث البنتين الثلثين وأعطى الأخ الباقي، وروي عن ابن مسعود أنه أفتى في مسألة كان الورثة فيها: بنت، وبنت ابن، وأُخت، فأعطى البنت النصف وبنت الابن السدس تكملة للثلثين وأعطى الأخت الباقي تعصيبًا[1].

ثـم يختـم الله الآية بقولـه: ﴿يُبَيِّـنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّـوا﴾ أي يُوضّح الله لكـم شـرائع دينكم لئلّا تضلّوا عن طريق الحق، إمـا بإهمال الميراث جملةً فلا تُعطوا أحدًا من المسـتحقين وتجعلوا ميراثكم للكلاب والقطط كما هو الحال في العالم الغربي، أو تجعلوا الحرية للمورّث يُوصي بماله لمن يشاء بغيـر قيد ويترك ورثتـه المحتاجين يتضورون جوعًا، وإما بحرمان من يشـاء وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة بين الإخوة ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَـيءٍ عَلِيمٌ﴾ أي أن الله بكل شـيء بليغ في العلم، يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم في الشرائع والأحكام التي بيّنها لكم.

(١) تعصيبًا: هو إرث بغير الفرض.

قضية صلب المسيح

قبل أن أعالج قضية صلب المسيح أُريد أن أُبيّن نظرة القرآن إلى المسيح وأُمِّـه مريم عليها السلام حيـث يخصّهما الله بمزيد من الإكرام والفضل، فالمسيح هو رسـول من عند الله أرسلـه الله لهداية بني إسـرائيل كما جاء في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ [الصف: ٦] والملائكة تخاطب السيدة مريم: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ...﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أمـا السيدة مريم فقد نصّ القرآن على أن الله فضّلها على نساء العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

بعـد هـذه المقدّمـة أتطرق إلى مسـألة صلب المسـيح حيـث يعتقد النصارى أنه بسـبب خطيئة آدم ـ أبي البشـر ـ في أكله من الشـجرة التي نهـاه الله عنهـا فـي الجنـة قامت نظرية صلب المسـيح نيابـة عن الجنس البشـري وفداءً له تكفيرًا عن خطيئته. فالله سـبحانه بمقتضى صفة العدل ـ فـي نظرهـم ـ كان عليه أن يُعاقِب ذُرِّيّة آدم بسـبب تلـك الخطيئة التي ارتكبهـا أبوهـم، وبمقتضى الرحمة كان عليه سـبحانه أن يغفر سـيئاتهم، فأرسـل لهذه الغاية ابنه الوحيد ـ حاشـا الله أن يكون له ولد ـ إلى العالم

لِيُخَلِّصَ العالم من الخطيئة التي اقترفها أبوهم آدم والتي لحقت بالجنس البشري وأن يظهر في شكل إنسان ويعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلبِ ليُكَفِّر عن خطيئة البشر.

أما إلزام الأحفاد والذرية ومعاقبتهم بسبب أخطاء الآباء والأجداد فهو لا ينسجم مع ما جاء في العهد القديم الذي ينصّ في سفر تثنية الاشتراع[١]: «لا تُقْتَلُ الآباء بالبنين ولا تُقتل البنون بالآباء بل كل امرئ بذنبه يُقتل».

وجاء في نبوءة حزقيال[٢]: «النفس التي تخطئ هي تموت، الابن لا يحمل إثم الأب، والأب لا يحمل إثم الابن، بِرُّ البارّ عليه يعود، ونفاق المنافق عليه يعود».

أما القرآن فيذكر أن الإنسان يؤاخذ بعمله فقط وليس له شأن بخطيئة آدم قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١]، أي كل إنسان مرتهن بعمله لا يُحمل عليه ذنب غيره، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] أي لا تُؤخذ نفس بذنب غيرها، فكل إنسان مَجْزِيٌّ بعمله لا يُؤاخذ بذنب غيره.

وأما بالنسبة إلى ما وقع فيه آدم من المعصية بأكله من الشجرة التي نهاه الله عنها في الجنة فقد نصّ القرآن بأن الله أوحى إلى آدم أن يتوسل إليه ويطلب المغفرة منه بكلماتٍ لقّنه إياها فدعا بها آدم فتاب الله عليه وأصبحت خطيئته كأن لم تكن كما جاء في القرآن: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

(١) الإصحاح الرابع والعشرين عدد ١٦.
(٢) الإصحاح الثامن عشر عدد ٢٠.

نجاة السيد المسيح من الصلب

لم تختلف الأناجيل الأربعة في مسألة من المسائل كاختلافها في تفصيل صلب المسيح وقتله، والقرآن يَنْفِي قتل المسيح وصلبه فقد جاء فيه: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ...﴾.

والمراد بالشكّ في الآية هو الشكُّ في شخصية المسيح بحيث يكون هناك تَشابُهٌ بينه وبين غيره، ومما يؤيد فكرة الشك في صلب السيد المسيح ما جاء في الأناجيل أنّ المسيح أخبر تلاميذه أنهم جميعًا سيشكّون فيه في ليلة الصلب حيث قال: «كلُّكم تشكّون فِيَّ في هذه الليلة»[١] وعلى هذا نسأل: كيف ساغ لهم أن يجزموا بقتله وصلبه؟

وفي الأناجيل نصوص تثبت نجاة السيد المسيح من يد الذين يريدون القبض عليه:

«فقال لهم يسوع أنا معكم بعدُ زمانًا يسيرًا ثم أذهب إلى الذي أرْسَلَني، وستطلبونني فلا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا»[٢].

«أجابهم يسوع: أفالآن تؤمنون؟ ها إنها تأتي ساعة وقد أتت تتفرقون فيها كل واحد منكم إلى خاصّته وتتركوني وحدي، ولا أكون وحدي لأن الآب[٣] هو معي قد كلمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام...»[٤].

وحاول اليهود الاعتداء على المسيح مرارًا ولكن الله حفظه منهم:

(١) إنجيل متى، الإصحاح السادس والعشرون رقم ٣١.
(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع ٣٣، ٣٤.
(٣) كلمة الآب بالمد تعني (الله) باللغة السريانية أو الكلدانية.
(٤) إنجيل يوحنا، الإصحاح السادس عشر ٣١ ـ ٣٣.

«فقاموا وأخرجوه إلى خارج المدينة واقتادوه إلى قمة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنيّة عليه ليطرحوه عنها. أما هو فجاز في وسطهم ومضى[1]».

«فأخذوا حجارة ليرجموه فتوارى يسوع وخرج من الهيكل[2]».

«ولما أحَسَّ المسيح بإصرار اليهود على قتله «رفع الدعاء والابتهال بصراخ شديد ودموع ذوارف إلى الذي بوسعه أن يُخلصه من الموت فاستجيب لتقواه[3]».

وفكرة الخلاص بتقديم الإله نفسه فداءً لتكفير خطيئة أزَليّة متلبسة بها الإنسانية معروفة عن الديانات الهندية، فالبرهميون يعتقدون أن «كريشنا» وهو الإله «فيشنو» قد خلّص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحةً عنه، ويُصَوِّرون «فيشنو» مصلوبًا مثقوب اليدين والرجلين... ويعتقد البوذيّون مثل ذلك في بُوذا، حتى إنهم ليسمّونه المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم، ويقولون إنه إلّه كامل تجسد بالناسوت وإنه قدَّم نفسه ذبيحةً ليكفّر ذنوب البشر[4].

علاقة الإسلام بالمسيحية

هذا وإنَّ الإسلام يعتبر المسيحية أقرب الملل إلى الإسلام حيث جاء في القرآن: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد دعا الإسلام المسلمين إلى أن تكون علاقتهم مع المسيحيين قائمة

(١) إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع ٢٩، ٣٠.
(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن ٥٩.
(٣) رسالة بولس إلى العبرانيين، الإصحاح الخامس: ٧.
(٤) عن كتاب الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، تأليف الدكتور عبد الواحد وافي ص ١٣٠.

على العدالة والبرّ إذا كانوا مُسالمين للمسلمين لا يُقاتلوهم ولا يُخرجوهم من ديارهم. جاء في القرآن: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

البرّ: من معانيه كما جاء في لسان العرب: الصلاح، والصدق والإكرام وفعل كل خير من أيّ ضرب كان.

والقسْطُ: معناه العدل، والعدلُ ينبئ عن المساواة وإقرار الحق.

هذه المعاني هي التي يجب أن يراعيها المسلمون في علاقتهم مع المسيحيين: البرّ والعدل الذي دعا إليهما القرآن.

وإنّ المسيحيين في أي دولة إسلامية هم مواطنون لهم ما للمسلمين من حقوق، وقد سمّاهم أهل ذِمّة، وسُمُّوا أهل الذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم، ورجل ذمي كما جاء في لسان العرب: رجل له عَهْد. فالمسلمون تَعاهدوا مع المسيحيين في أيِّ وطنٍ يسكنون معهم على العيش في وئام. وقد حَثَّ القُرآن المسلمين على الوفاء بالعدل، ومَنْ يَنكث العهد يستحق اللعنة من الله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقد دعا نبي الإسلام محمد ﷺ إلى حماية المسيحيين ورَفْع الظلم عنهم فقال: «ألا من ظلم مُعاهِدًا أو انتقصه حقه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حَجيجُه[1] يومَ القيامة»[2].

وجعل الإسلام للمسيحيين المعاهدين ما للمسلمين فحرّم قتلهم، فقال النبي محمد ﷺ: «ألا مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعاهدًا له ذِمَّة الله وذِمَّة رسوله فقد

(١) حجيجه: خصمه المطالب بحقه.
(٢) أخرجه أبو داود.

أخفر(١) بِذِمَّةِ الله ولا يُرَح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها لَيُوجَدُ مِنْ مَسيرة سبعين خريفًا(٢)»(٣).

ومن صلات الودّ التي شرعها الإسلام مع المسيحيين هو أنه أباح المُؤاكلة من طعامهم باستثناء الخمر ولحم الخنزير مع بعض المحرّمات الأخرى التي انفرد بها، كما أباح التزوّج من نِسائهم العفيفات مع الحرية لهن في البقاء على دِينهنّ، والمُصاهرة تستدعي الودّ، وحُسْنَ المُعاشرة، والإخلاص في المُعاملة جاء في القرآن: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ(٤) مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ...﴾ [المائدة: ٥].

كما دعا الإسلام في حال مجادلة المسيحيين في الدِّين أن يكون جدالهم معهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

كما أذكر أخيرًا أنَّ الإسلام نهى أتباعه أن يُكْرِهوا أحَدًا على الإسلام، جاء في القرآن: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما جاء أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا ما أحببت ذكره في هذه العجالة، ولو أحببت الاسترسال في هذا الموضوع لاستلزم الكثير من الصفحات.

---

(١) أخفر: نقض العهد وغدر.

(٢) الخريف: السنة والعام.

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) المحصنات: العفيفات.

كلمة شكر

وفي الختام أقدّم شكري وامتناني

إلى أصحاب **دار العلم للملايين** الأفاضل، لِما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة العلّامة القاضي المستشار **الشيخ حسين غزال**

وإلى فضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي **الشيخ شريف سكر** اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير.

وإلى الدكتور **محمد عبد الرحمن المرعشلي**

وإلى الأستاذة القديرة الأديبة **هدى سنو**

على ما بذلا من جهد في تصحيح هذا التفسير.

وأقدّم شكري للأستاذ **توفيق الحوري** عميد كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت على سعيه الدؤوب وتضحياته الجمّة في إنشاء مكتبة كلية الإمام الأوزاعي والتي أصبحت تضمّ أكثر من مائة ألف كتاب، هذه المكتبة التي قدّمت لي كثيرًا من المراجع في مسيرتي الطويلة في تفسير القرآن.

كما أقدّم شكري **لمكتبة كلية الآداب** في الجامعة العربية على ما قدّمت لي من مراجع وخدمات على أيدي موظفيها الكرام.

وأخيرًا أقدّم شكري لشركة سامو برس غروب على ما بذلته من جهد وعناية في تنضيد أحرف هذا التفسير وإخراجه بهذه الصورة الجميلة الأخاذة التي تريح القراء.

سائلًا الله أن يوفقنا جميعًا لخدمة كتابه الكريم.

المراجع

- جامع البيان في تأويل القرآن للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي.
- تفسير الكشاف للإمام الزمخشري.
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.
- تفسير أبي السعود للعلّامة محمد بن محمد العمادي.
- تفسير روح المعاني للعلّامة الألوسي.
- تفسير اللباب في علوم الكتاب للإمام عمر بن علي الحنبلي.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للإمام ابن عطية.
- تفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للإمام أبي الطيب القنوجي البخاري.
- صفوة البيان لمعاني القرآن للشيخ الأستاذ حسنين محمد مخلوف.
- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا.
- التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي.
- التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة.
- التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي.
- المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء للشيخ محمد محمد المدني.
- الموسوعة الفقهية، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ الكويت.

الفهرس

تعريف بسورة النساء ٥
وحدة الجنس البشري تقتضي تواصلهم وتراحمهم ١٢
أحكام تعدد الزوجات ١٥
ضرورات لتعدد الزوجات ١٨
المهر من حقوق الزوجة ١٩
الحَجْرُ على أموال السفهاء وحفظ مال اليتيم ٢٢
تخصيص الأقارب واليتامى والمساكين بقسم من الميراث ٢٧
ميراث الأولاد ٣١
ميراث الأب والأُم ٣٤
ميراث الأزواج والزوجات ٣٧
عقاب الذين يزاولون الفواحش ٤١
أحكام التوبة ٤٤
المحافظة على حقوق المرأة ٤٧
تحريم الزواج من امرأة الأب ٥٢
ما يحرَّم على الرجل الزواج من النساء ٥٤
ما يحرَّم على المرضعة ٥٦

الرَّضاعة المحرِّمة ٥٧

ما يحل وما يحرم من الزواج بالنساء ٦٠

تحريم المتعة ٦١

الزواج من الإماء عند الضرورة ٦٦

تحريم أكل أموال الناس بالباطل ٧٠

كبائر الذنوب ٧١

النهي عن تمني ما في أيدي الغير ٧٥

تأديب الزوجة المترفعة على زوجها ٧٨

دعوة إلى عبادة الله والتكافل الاجتماعي ٨٤

من صفات الكافرين والمنافقين ٨٩

حقوق الصلاة وكيفية التيمم ٩٣

ضلال اليهود ٩٧

إنذارٌ لليهود وإثم الشرك بالله ١٠١

كفر اليهود وضلالهم ١٠٦

مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة ١٠٩

أداء الأمانه والحكم بالعدل ١١٢

طاعة الله ورسوله وأُولي الأمر ١١٥

ضلال المنافقين ١١٩

من علامات الإيمان طاعة الله ورسوله ﷺ ١٢٢

القتال لرفع الظلم عن العباد ١٢٦

عدم الرهبة من الموت عند قتال المعتدين ١٣١

الدعوة إلى طاعة الرسول ﷺ والتدبُّر في القرآن ١٣٦

عدم نشر الأخبار المتعلقة بالأمن ١٤٠

الشفاعة والتحية ١٤٢

إفشاء السلام بين الناس ١٤٣

موقف للمؤمنين تجاه المنافقين ١٤٦

أحكام القتل عن خطأ وعن عَمْد ١٥١

التثبّت ممّن يُعلن إسلامه ١٥٧

فضيلة الجهاد في سبيل الله ١٥٩

دعوة المؤمنين إلى الهجرة من أوطانهم في حال اضطهادهم ١٦٢

قصر الصلاة في السفر وصلاة الخوف ١٦٧

صلاة الخوف ١٦٩

قصة اليهودي الذي اتُّهِم بسرقة الدرع ١٧٣

اتهام البريء هو من الآثام الكبيرة ١٧٧

الشرك باللهِ وبعض مظاهره ١٨٢

كل إنسان يجازى بعمله ١٨٦

حقوق النساء واليتامى والولدان ١٩٠

الدعوة إلى تقوى الله والتحذير من الكفر ١٩٦

الدعوة إلى العدالة المطلقة ١٩٩

أحوال المنافقين ومصيرهم في الآخرة ٢٠٣

صفات المنافقين والنهي عن الجهر بالسوء ٢٠٧
التصديق برُسُل الله ٢١١
عصيان بني إسرائيل لربِّهم ٢١٤
جرائم اليهود ومسألة صلب المسيح ٢١٧
تحريم الطيبات على بني إسرائيل بسبب ظلمهم ٢٢٢
محمد رسول من الله كسائر رسل الله ٢٢٥
مصير المنكرين لنبوّة محمد ﷺ في الآخرة ٢٢٨
نهي النصارى عن الغلوّ بعيسى عليه السلام ٢٣١
مصير الذين يترفَّعون عن عبوديتهم لله ٢٣٤
البرهان على صحة الإسلام ٢٣٦
توريث الإخوة ٢٤٣
قضية صلب المسيح ٢٤٧
علاقة الإسلام بالمسيحية ٢٥٠
كلمة شكر ٢٥٣
المراجع ٢٥٥
الفهرس ٢٥٧

كتب للمؤلف

- **روح الدين الإسلامي** — الطبعة الرابعة والثلاثون
- **مع الأنبياء في القرآن** — الطبعة الرابعة والعشرون
- **روح الصلاة في الإسلام** — الطبعة الثالثة والعشرون
- **الخطايا في نظر الإسلام** — الطبعة الثانية عشرة
- **اليهود في القرآن** — الطبعة الرابعة عشرة
- **الحكمة النبوية** — الطبعة الرابعة
- **تعلم كيف تحج** — الطبعة الثانية
- **THE SPIRT OF ISLAM**
- **الترجمة الإنجليزية لكتاب (روح الدين الإسلامي)**

صدر عن تفسير (روح القرآن) الأجزاء والسور الآتية:

- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر

- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر: الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر: الحِجْر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر: يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة المائدة
- تفسير سورة البقرة

هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

الموزعون الوحيدون:

دار العلم للملايين

978-9953-63-840-9 00531

9 789953 638409 9